

إهداء 2005

مهندسة / نهاد أبو الوفا عصام

جمهورية مصر العربية

كِتَابٌ

تاريخ العصور الوسطى

في الشرق والغرب

مقرر السنة الثانية الثانوية

تأليف

محمد فريد أبو عديب

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

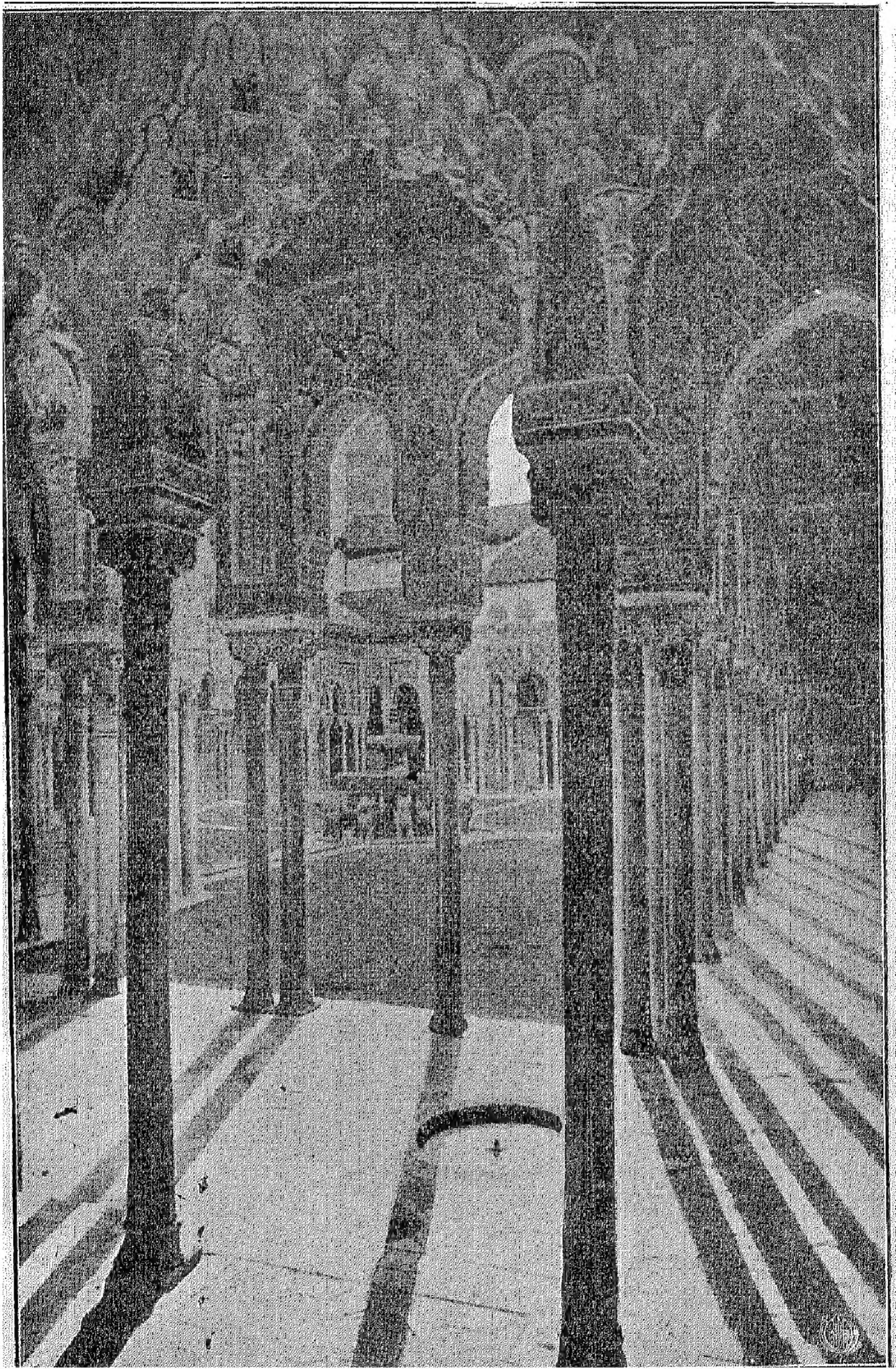
١٣٤٧ هـ - ١٩٢٨

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ان الحاجة التي كانت دائماً تعترض المدرس في مادة التاريخ في السنة الثانية قد دفعتني الى تأليف هذا الكتاب بعد أن عانيت تدريس هذا المنهج منذ ظهوره سنوات متتالية كانت هادية لي في تعرف خير طريق لبسط موضوعاته لمستوى الطلبة في تلك السنة

وقد سرت في معالجة الموضوع السير الطبيعي لشرح التاريخ أعني أنني توخيت بسط أحوال العصر الواحد في الدول المختلفة حتى يعرف أثر العصر في كل الأحياء وأثر كل مجتمع في المجتمعات الأخرى المعاصرة فان هذا أقرب الى الحياة الحقيقية لأن الدول لا تتأثر بماضيها مثل تأثرها بالدول الأخرى المعاصرة لها ولأن الواقع ان الدهر يمر على الدول جميعاً ويعمل فيها كلها عملاً مشتركاً — وقد اجتهدت أن أحصر بعد الشرح سير الحوادث في كل قطر حتى يحصل الطالب على فكرة متماسكة عن تاريخ كل دولة من الدول . وعانيت بالا كشار من الايضاح بالصور والخرائط .
واسأل الله أن أكون قد وفقت إلى ما قصدت من الخدمة



« بهو السباع بقصر الحمراء — بالاندلس »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

يمكن أن يقال عن صدق ان العالم كان منذ القرن الرابع الميلادى فى عصر
تطور وانتقال — فقد بلغت الدولة الرومانية القديمة آخر أدوار حياتها منذ
ذلك الحين وما زالت تعاني مشا كلها الداخلية والخارجية وماتكاد تحل معضلة
حتى تجد أخرى أما فى الداخل من شعبها وأما فى الخارج من الشعوب المجاورة
التي تحاول صدع حدودها واقتسام أرضها
وفىما كانت الدولة الرومانية فى هذا التطور والانتقال سقط نصفها
الغربي وحل فى أرضها أقوام من البرابرة الذين كانوا يحاولون صدع حدودها
من قبل والذين لم ينجحوا فيما مضى أكثر من ان يمدوا جيوش الدولة
الرومانية بالمرتزقة ولقد حاول النصف الباقي الشرقى ان يستعيد ما فقد وكاد
يفلح فى ذلك على يد ملك من أكبر من يذكر اسمه من أباطرة الدولة
الرومانية الشرقية وهو جستنيان لولا ان ذلك كان محاولة غير طبيعية فان
الذى أدى الى سقوط الدولة الرومانية الغربية فى يد البرابرة كان داء متغلغلا
ولم يكن فى طاقة جستنيان ان يعرف دواءه . فكانت النتيجة أن أصيبت
الدولة الشرقية بمصائب من وراء تلك المحاولة الثقيلة وزادت منها عوامل
ضعف البقية الباقية من ذلك العالم القديم وجعل يحس قرب أجله هو الآخر
فى نضاله منع من يليه من الشعوب
فاذا مادقق الانسان فى بحثه رأى ان العالم القديم يتداعى للسقوط
جزءا بعد آخر ولكن فى مدى قرون طويلة .
وفىما كانت الدولة القديمة الرومانية فى همها هذا ظهر فجأة على الأفق

شئ غريب وما زال ذلك الشئ يكبر تدريجاً حتى صار الدولة العربية الإسلامية العظيمة وبذلك دخل الى تاريخ العالم عنصر جديد انتقلت إليه السيادة بين الأمم من جميع الوجوه من جهة الحرب والمدنية بأنواعها وما زالت السيادة في الدولة الإسلامية طول مانسمية بالقرون الوسطى . وكانت أوروبا في أثناء هذا في اضطراب أشبه شئ باضطراب المعدن وهو يغلي في بودقه الصائغ قبل أن يصيغه في شكل محدود .

وبعد فترة بدأت مادة هذا المعدن المضطرب (أوروبا) تتخذ شكلاً جديداً وتكونت منها شعوب جديدة من خليط مركب من بقايا الرومان . ومن البرابرة الذين حلوا بأرض الدولة الرومانية وكان الخليط بنسب مختلفة . ومن عناصر متباينة

ولما تكونت تلك الشعوب بدأت نهضة جديدة واصطدمت تلك الشعوب الناهضة بالعالم الإسلامي حتى انجلى ذلك الاصطدام عن ان الشرق الإسلامي والغرب المسيحي يقف أحدهما ازاء الآخر موقف المنافسة والمناظرة في المدنية - وهذه كلها مظاهر للنضال المستمر الشبيه بنضال تنازع البقاء - ولقد تمكن الغرب المسيحي أن يترزع من الشرق الإسلامي ما كان في يده من السيادة وهكذا كانت الدول قديماً تتناوب الارث الانساني من المدنية فتترزع الأمم الناشئة تدريجاً السيادة من القديمة ثم تستقر بعد النزاع وتبنى على ما استولت عليه من الاساس والكل عاملون في بناء صرح واحد . وهو الصرح الانساني الذي يختلف من بين طبقاته ولكنه مع ذلك صرح واحد متماسك .

وموضوع هذا الكتاب هو تتبع هذه الحركات العظمى لبيان تفاصيلها وستناولها في الفصول التالية بالايجاز الواجب فإثما نقصد من كتابنا ان يكون في يد طلاب السنة الثانية من المدارس الثانوية وسنقتصر على ما فيه حاجتهم وللباحثين ميادين أخرى أوسع مادة وأكثر غناء .

الباب الأول

اضمحلال الدولة الرومانية القديمة

لا يمكن لأحد أن يفهم تاريخ أوروبا الحديثة إذا هو لم يستوضح ماسبق حلول شعوبها في أرض الدولة الرومانية القديمة . فقد كانت تلك الدولة الرومانية أعظم هيكل في العالم منذ القرن الثاني للميلاد وما زالت تبسط سلطانها على الأرض في جميع مهاب الرياح حتى صارت سيدة العالم لا ينازعها في ذلك منازع . وقد قامت بوظيفتها من نشر المدنية التي ورثتها عن سبقتها وبنت على أساسها ولكن الأمم كالأفراد تسير على سنن طبيعية لا محيد عنها . ومن تلك القوانين أن للأمم أعمارا فكما أن الفرد يولد ثم ينمو ثم يتم نموه ثم يضمحل ويزول كذلك الدول . وهناك عوامل تؤدي إلى هذه النتيجة ومن الواجب أن نجعل أساس موضوعنا بحث العوامل التي أدت إلى سقوط تلك الدولة وتحطم هيكلها الضخم وما أعقب ذلك من الاضطراب الناشئ من رجة ذلك التحطيم .

قد بدأت رومة قرية صغيرة كما هو معلوم وما زالت تكبر بالفتح حتى صارت سيدة ايطاليا وقاهرة مابها من الشعوب المختلفة . ثم تعدت إلى صقلية وهناك اصطدمت بالشعب الذي كانت له سيادة البحر الأبيض الغربي . وهو الشعب الفينيقى ، وهناك بدأت الحروب البونية التي استمرت حتى انتصرت رومة أخيرا في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد وهذا هو دور النمو الاول

وبعد ذلك يبدأ الدور الثاني وفيه نرى رومه وقد اخذت تبسط سلطانها بسرعة مذهشة على بلاد البحر الأبيض الشرقى — اليونان وآسيا الصغرى .

والشام ثم مصر — وفي أثناء ذلك كانت جيوشها توغل في مجاهل الشمال —
في غالة وبريطانيا

وبذلك صارت رومة دولة العالم سطوة وسلطانا تضم كل الدول القديمة
المتمدية وكذلك مجاهل المتوحشين في الشمال والغرب
غير أن عظمتها كان في طيها بذور الاضمحلال والضعف . وأكبر
العيوب التي كانت بها لم تنشأ الا من الفتح والغنى فان الدولة الرومانية لم
تصبح بعد اتساع سلطانها هي رومة القديمة البسيطة بل طرأ على نظامها
توشعها تغير جوهري

ويمكن أن نلخص وجوه التغير تحت هذين العنوانين

(١) التغير في الشعب الروماني :

كان الاساس الذي قامت عليه رومة قوة نفوس شعبها البسيط
وقد كان الروماني فلاحا ساذجا تتمثل فيه الرجولة التامة يلبي نداء الواجب
سريعا فاذا ما أحرز النصر لقومه عاد الى محراثه فعاش في بيته مع أسرته
البسيطة كما كان من قبل . ولكن اتساع الفتوح أتى على هذه البساطة
وأحل محلها ترفا ونعيا في الحياة وجعل الروماني ينتقل في معيشته الى مستوى
الترف الذي كان لليونانيين والقرطاجنيين والمصريين وسواهم ممن جعل
يتعسل بهم . وقد جر ذلك التغير معه أمورا أخرى كانت معاول تهدم أساس
رومه في ابان عظمتها وأكبر هذه الأمور هي :

(١) انقراض طبقة الملاك الصغار : لما عاد القواد الرومانيون بالغنائم
العظيمة من الميادين المختلفة وأحرزوا بعد انتصاراتهم الغنى الطائل جعلوا
همهم شراء الأرض وتنافسوا في ذلك ورغب الفلاحون في الاثمان العالية
التي كان الأغنياء يعرضونها لتلك الأراضي فباعوها وصارت الثروة
الأرضية تدرج الى ايد قليلة من الأغنياء ثم صبح ذلك عامل آخر وهو ان

الأسرى الكثيرة التي كانت تحمل الى رومة فتباع في أسواقها عقب كل
نصر كانت أرخص في العمل من الرجل الحر الاجير فاستعمل الاغنياء الارقاء
في فلاحه أرضهم وبهذا لم يجد الفلاح القديم الا النزوح الى العواصم
الكبرى وهناك عاش عيشة البطالة التي ستجر معها في المستقبل اكبر
السيئات .

وكان هؤلاء الفلاحون أعظم عامل في نصر رومة في أيام نشأتها فلما
أن صاروا الى تلك الحال لم يبق ما كان لهم من الفضائل القديمة التي
كانت تجعلهم اداة الانتصار وهذا مهد السبيل الى استخدام الجنود من
الأجانب المرتزقين

(٢) الحاجة الى الجيوش القائمة :

لما اتسعت دائرة الفتوح لم تكن الجيوش الرومانية القديمة كافية
للمحافظة على الدولة ، فقد كانت رومة من قبل تدعو المواطنين الى حمل
السلح للقيام بواجب الجهاد القومي اذا ماهاجمها مهاجم أو أرادت الغزو فيما
يليهها من البلاد وبعد انتهاء الحرب يعود كل الى عمله الذي كان يمارسه من
قبل ولم يكن استمرار هذه الحال بمستطاع بعد ان اتسعت الفتوح
ودخلت الى الدولة الرومانية شعوب أجنبية لا بد من اخضاعها والسهر على
طاعتها فان ذلك الاتساع استلزم وجود الجيوش القائمة اى التي تبقى باستمرار
للمحافظة على الدولة . وكان عدد هذه الجيوش يزيد زيادة مضطردة كلما
زاد اتساع الدولة . وكان الضغط على الدولة من الخارج يدعو الى ان ترابط
جيوش قوية على الحدود حتى تدفع المتوحشين عنها

ولا شك في ان مثل هذه الجيوش الكبيرة التي تلزم لاختضاع الشعوب
الداخلية في الدولة ورد الاغارات من الخارج كانت تستنزف كثيراً من أموال
الدولة ولا سيما بعد أن صار عدد الوطنيين في الجيش قليلا وصار أكثر

الاتكال على المرتزقة الأجنب عند تغير روح الشعب الرومانى كما مر .
(ب) التغير فى نظام الدولة الرومانية :

كانت رومة فى وقت نموها جمهورية على رأسها مجلس الشيوخ الذى كان يحكمها بحكمة واعتدال وقد كان ذلك المجلس يتصرف فى كل الأمور العامة من قضاء وإدارة وقيادة وتشريع . والحق ان جمع تلك القوة الهائلة فى يد مجلس واحد منتقد فى كثير من الوجوه . ولكن عيب ذلك النظام لم يظهر فى بادئ الأمر نظراً لضيق دائرة الدولة الرومانية فلما ان اتسعت الفتوح بدأت العيوب تظهر تدريجاً . وقد تضافرت عوامل عدة على ظهور الفساد فى نظام الدولة وسنحاول أن نوضحه بإيجاز
(١) سوء استعمال السلطة :

ان رومة الفقيرة الصغيرة لم يكن بها ما يحمل ذوى الاطماع على أطماعهم . ولكن لما صارت رومة غنية تحكم البلاد المتسعة وجدت ميادين فسيحة لذوى الاطماع فكان من أعضاء مجلس الشيوخ من اذا ولى اماراة من امارات الدولة أفسد فيها وقبل الرشى وظلم معتمداً على مكانته فى مجلس الشيوخ وأصدقائه فيه وكل منهم يطمع فى مثل ما يعمل له ذلك الحاكم الظالم . وبهذا بدأ الحكم من أعضاء ذلك المجلس يتوسلون بمنصبهم إلى غايات مادية دنيئة وهم آمنون .

(٢) انحطاط مستوى أعضاء المجلس الخلقى :

كان أعضاء مجلس الشيوخ قديماً يضرب بهم المثل فى العظمة الخلقية . وليس بعيد وصف جيران الرومانيين له بأنه مجلس مكون « من ملوك » إشارة إلى ما كان عليه أعضاء المجلس من السمو فى الفضائل العامة . فلما ان صار مجلس الشيوخ مؤدياً إلى الاطماع الخاصة جعل ذوى الغايات المادية يسمعون جهدهم ليصيروا أعضاء فيه حتى كان بعضهم يستدين لكى يصل

إلى غرضه عالماً انه سوف يحصل من وراء عضوية ذلك المجلس على فوائد تعوض عليه ما بذل . وهكذا جعل مستوى الأعضاء ينحط فلم يصبح مكوناً من « ملوك » بل من ذوى أطماع

وقد ساعد على الوصول إلى هذه الغاية ان الشعب الرومانى الذى كان له حق انتخاب أعضاء مجلس الشيوخ كان قد طرأ عليه التغير الذى وصفناه آنفاً فصار من السهل التأثير عليه ورشوته وصار من يقدم له أكبر مقدار من الملاحى والحمور والمال كل والمشارب يصبح أحب إليه من غيره وصار ذلك الشعب العاقل القاسى لا ينتخب للمجلس الا من يشبع ملذاته الدنيئة .
(٣) تطاحن أعضاء مجلس الشيوخ:

وهذه نتيجة لازمة لانحطاط مستوى الأعضاء فان الأعضاء عظماء النفوس لا يمكن أن يتطاحنوا على منافع خاصة كما انهم لا يمكن أن يسمحوا لأفراد قلائل أن يتطاحنوا على السيادة وهم ساكنون لا يتحركون . فلما أن انحط مستوى الأعضاء أمكن أن يتغلب جماعة من ذوى الشخصيات القوية على السلطان وكان الباقون أتباعاً اما لأحدهم واما للآخر . وكان المتنازعون لا يقصدون وجه الخير فى تطاحنهم وما كان التطاحن أبداً إلا وسيلة للمنفعة الفردية . وهكذا ظهر أمثال ماريوس وسلا ثم بومبيوس ويوليوس قيصر ثم أنطونىوس واكتافىوس وهكذا آل الأمر أخيراً إلى تفرد واحد بالسلطة وهو الامبراطور أغسطس (اكتافىوس) ومن ذلك الوقت يمكن أن يقال ان العظمة الحقيقية للدولة الرومانية قد تمزواها .

(٤) عجز النظام القديم عن الحاجة الجديدة :

شملت الدولة الرومانية أقاليم كثيرة يسكنها شعوب مختلفة مكونة من وحدات اقليمية متباعدة منفصلة متباينة في جوها وطبائعها ولكن مع ذلك قد بقي نظام الحكومة كما كان فكانت رومة مركز الدولة الواسعة كما كانت

هي مركز الدولة القديمة الصغيرة . ولكن لم يكن من الطبيعي أن يتحمل ذلك القلب كل الحمل الثقيل الذي رمى عليه وبدأت تشعر ان لا بد لها من تغيير في نظامها ولكن ذلك التغيير لم يسر مع حاجة الدولة . فسعت الحكومة الرومانية (التي صارت بعد ذلك في أيدي الأباطرة) إلى أن تحافظ على الدولة بما تستطيع من قوة الجيوش وما كانت قوة الجيوش وحدها لتحافظ على الدولة .

وقد أدت الحاجة إلى الدفاع إلى ادخال وسائل جديدة مثل تقسيم دقلديانوس للدولة إلى أقسام أربعة ومثل جسد الجيوش القوية على ثغور الدولة من عند نهري الدانوب من الشرق والرين من الغرب ومثل بناء العاصمة الشرقية (قسطنطينية) التي بناها قسطنطين لتكون معقلاً حصيناً في الشرق . ومثل تقسيم الدولة نهائياً إلى قسمين شرقي وغربي بعد موت تيودوسيوس . ولكن كل هذه الوسائل لم تكن مغنية فانما هي أدوية مؤقتة . تسكن الألم ولا تشفى .

سقوط رومة

ولما آل الأمر إلى ما وصفناه من الضعف وظهرت الأمراض الاجتماعية المستعصية وضعف نظام الحكم عن الوفاء بحاجة الدولة جعلت الاغارات تتخذ شكلاً مفرعاً .

فان الاغارات الاجنبية لم تنقطع في عصر من العصور ولكن كانت رومة القوية في شبابها لا تعبأ بتلك الاغارات بل تردّها بغير تكلف ولا مشقة فلما ان بلغت الدولة مرحلة الضعف ظهر عجزها عن مقابلة هجوم المغيرين . فكانت أشد الاخطار على وجود الدولة تلك الأمراض التي تفكك بها في الداخل . قواد من المرتزقة يتخاضمون ويشورون وخزائن الدولة قد استنزفتها اطماع الجيوش والقواد والدولة ليس لها كرامة عند الجنود

الاجانب الذين يهزأون بآلامها والشعب العاقل الفاسد غارق في جهله ورذائله لا يستطيع ان يتحرك للدفاع عن نفسه وموارد الدولة ذاتها. قد ضعفت مما توالى عليها من المحن والثورات وأجزاء الدولة المختلفة. لا تجد من الحكومة المركزية لا حكما عادلا يحببها ولا قوة تخشاها، وهكذا جعلت الصدمات تثقل على تلك الدولة فتضعف أمامها تدريجاً وحلت قبائل الهمج في جهات الدولة الرومانية حتى كانت الضربة الأخيرة في أواخر القرن الخامس سنة ٤٧٦ ميلادية على يد أودواكر) وهو زعيم الجيش المرتزق اذ ثار ثورة ليطالب بثلاث أراض ايطاليا للجنود. وكانت نتيجة تلك الثورة عزل آخر أباطرة رومة (روميولوس اغسطولوس) وصار (اودواكر) الزعيم المرتزق شبه ملك على ايطاليا خاضعاً بالاسم للامبراطور الشرقي الحاكم في قسطنطينية وهذا التاريخ سنة ٤٧٦ من أهم أعلام الحوادث فانه بدء لحركات عظيمة وانقلاب كبير في أوروبا ويعتبر هذا العام اول ما يسمى بالعصور الوسطى.

تقسيم الدولة الرومانية بين الهمج

نقصد بالهمج الشعوب التي كانت منذ أيام عظمة الدولة الرومانية. تسكن البقاع الشمالية الخارجية عن حدود تلك الدولة ويمكن ان نسميهم بالجرمان بوجه عام ولقد كان هؤلاء بين حين وآخر يغيرون على الدولة فتردهم عنها جيوشها المدربة القوية وذلك قبل ان يستفحل بها الداء فيضعف حيويتها وكان هؤلاء الهمج يعيشون في قرى أشبه بنجوع البدو ولم يكن لهم دراية بالفلاحة ولا بالصناعة وانما كانت حياتهم على الرعاية وكانوا في بلادهم الشمالية الباردة يعيشون عيشة خشنة جعلتهم أصلب عوداً من أهل الحضارة.

وكانوا على دأب في الحرب فعمودهم ذلك الاقدام على خوض غمارها كلما وجدوا فرصة ولا شك ان الاراضى الخصبة والمدائن الغنية التى كانت داخل حدود الدولة الرومانية كانت غنيمة هائلة يتطلع اليها هؤلاء الهمج طامعين فى الاستيلاء عليها . وكانوا اذا اغاروا اتبعوا نظاما بدويا فى حربهم فكل كتيبة من قبيلة واحدة وعلى رأسها زعيم مبجل منهم ولعل ذلك كان داعيا الى التساند والتعاون فى الحرب فكانت حربهم لذلك شديدة الوطأة على الجيوش المتحضرة . ولا سيما بعد ان صارت الجيوش الرومانية من المرتزقة أو من أهل المدن الذين مر وصف انحطاط مستواهم الخلقى

وقد رأى أباطرة الرومان المتأخرون قلة جدوى الاستمرار على دفعهم عن حدود الدولة فجعلوا يسمحون لهم بالدخول والحلول ببعض بلادها . وصاروا يتخذون منهم جنوداً وقوادا

وقد كان فى حدود الدولة ثغران يسهل على المغير الاغارة منهما الأول عند نهر الطونة الأسفل وهو ما يسمى بميدان داسيا والثانى عند نهر الرين الأسفل وهو ما يسمى بميدان جرمانيا ، وسند كرا أكبر القبائل الضاربة عند كل من الثغرين وبيان الجهات التى تزعوها من الدولة وحلوا فيها .

(١) ميدان جرمانيا

كانت هناك قبائل عدة أكبرها الفرنج ويليهم الفندال والألماني والبرغنديون . وقد كان هؤلاء منذ أيام قسطنطين خطرا عظيما على الدولة حتى اضطر الامبراطور جوليان أن يجعل هناك عاصمة لتكون مركزاً للدفاع ضدهم وهى (باريس) ولكن لما اضطربت أمور الدولة فى القرن الخامس حل الفرنج فى حوض نهر الرين الأسفل وهناك أقاموا شبه دولة كانت هى الأساس الذى سبى عليه الملك الفرنجى العظيم ملكه فيما بعد وهو كلودوفيج أو كلوفس كما سياتى

وأما الألمانى فحلوا قريبا منهم ولكن الى الشرق والجنوب
وأما القندال فانهم اقتحموا الرين فى أوائل القرن الخامس وجاسوا خلال
بيلاد غالة الرومانية وما زالوا حتى حلوا فى بلاد اسبانيا وهناك كونوا دولتهم
الاسميا تحت سيادة امبراطور الدولة الرومانية الغربية المقيم فى رومة والحقيقة
انهم كانوا غير خاضعين لسلطانهم . ولكنهم بعد قليل عبروا الى شمال افريقيا
وما زالوا فى القطرين معا حتى نزلت اسبانيا من يدهم اذ طردوهم منها قبائل
جرمانية أخرى وهم القوط الغربيون كما سيأتى . وأما البرغنديون فانهم حلوا
فى هذه الأثناء فى الجنوب الشرقى من بلاد غالة فى حوض نهر الرون

(٢) ميدان داسيا

كان أهم الشعوب الجرمانية المقيمة على ضفاف الطونه شعوب القوط ،
وقد اضطر هؤلاء لاقتحام حدود الدولة عند ما ضغط عليهم الشعب
الفضيع شعب الهون ، ومن ذلك الوقت سمح لهم أباطرة الرومان



(شكل ١ — أتلا ملك الهون)

بالاقامة داخل حدود الدولة ولكن لم يخل الأمر من وجود احتكاك
بينهم وبين الرومان أدى إلى حروب دموية بينهما نذكر منها موقعة

ادرنه التي قتل فيها الامبراطور فالنس سنة ٣٧٨ أى في أواخر القرن الرابع للميلاد . ومن ذلك الوقت عظم شأن القوط في الدولة وقد ظهر فيهم ملك نابغ (الريك) في أوائل القرن الخامس قادم وجعل يضرب بهم في قلب الدولة الرومانية ويصول في البلقان حينا وفي بلاد اليونان حينا ثم قادم بعد ذلك محملين بالغنائم إلى بلاد ايطاليا فذهب رومة العاصمة الكبرى سنة ٤١٠ . ومن ثم سار بهم الى بلاد غالة ولما مات هناك قادم خلفه الى اسبانيا حيث حلوا محل القندال بعد اجلائهم عنها . وهناك أقاموا دولة جديدة تقر بالسيادة للامبراطور الغربى في رومة كما كان يفعل سلفهم القندال في اسبانيا

١ - غارات أخرى

بريطانيا : وفي هذه الاثناء كانت قبائل أخرى تلج في نواح أخرى من الدولة الرومانية نذكر منها قبائل السكسون والانجليز المقيمين عند سواحل بحر الشمال من جرمانيا فان هؤلاء عبروا البحر الى بريطانيا وكانت جيوش الرومان قد جلت عنها قبل ذلك لحاجة الدولة اليها في دفع الأخطار الكثيرة التي كانت تهددها ومن ذلك الوقت صارت بريطانيا في يد الشعب الجرمانى الذى اقام فيها الاساس الأول للشعب الانجليزى الحالى

الهون : قد ذكرنا أن القوط الغربيين اضطروا الى دخول بلاد الدولة الرومانية في القرن الرابع لضغط الهون عليهم وقد كان هؤلاء الهون من الجنس المغولى أو هم من الترك اذا شئت أن تسميهم وكانوا فرسانا على جانب عظيم من المهارة والشجاعة حتى انهم أوقعوا العرب في قلوب من اصطدموا به فكان الجرمانيون على شجاعتهم وقوتهم يفزعون أيما فزع من لقاءهم وقد بقيت هذه القبائل قرب نهر الدانوب في شرق أوروبا الى أواسط القرن الخامس ودانت لسلطتهم بلاد

كثيرة وشعوب مختلفة من الجرمان وكان امبراطورا الشرق والغرب على السواء يفزعان من اغارتهم أكثر من فزعهم لاية اغارة أخرى . وفي أواسط القرن الخامس أغار ملكهم الكبير المشهور باسم (أتلا) على ايطاليا وكانت الدولة الرومانية الغربية في أواخر عمرها بعد توالى الصدمات والاغارات عليها ولكن تألب على الهون الخيفين جميع من يخشاهم واشترك في الدفاع جيوش الامبراطورية الغربية مع جيوش الفرنج والقوط الغربيين وصدت تلك القبائل في موقعة شالون سنة ٤٥١ وهى موقعة تعتبر من أكبر المواقع فى التاريخ لأن الهون لو انتصروا فيها لتغير وجه التاريخ ولـكانت السيادة فى أوربا الحالية لسلالة الهون الاتراك وليس لسلالة الجرمان . وقد دمرت دولة الهون بعد موقعة شالون اذ لم يكن لها اصل راس فى الارض

انتهاء الدولة الغربية الرومانية

بعد أن نزعنا هذه البلاد عن الدولة الرومانية الغربية لم يبق لها الا ايطاليا وكانت مهدودة القوى خاوية الخزائن معطلة الاعمال ولم يغن عنها أن المغيرين على بلاد الدولة من الهمج كانوا يظهرون الطاعة للامبراطور ولم يكن للامبراطور فى آخر الامر شىء من السلطة بل تسربت كلها الى أيدي القواد وهم من الجرمان الاجانب عادة فلما قامت ثورة سنة ٤٧٦ لم يحدث تغير حقيقى فى الدولة فانما تغير الاسم فعزل آخر الاباطرة وهو (روميولوس اغطيولوس) وتولى مكانه القائد الجرماني (أوداكر) وأرسل وفدا من الاعيان الى امبراطور الدولة الشرقية فى قسطنطينية وهو (زينو) يخبره أن امبراطورا واحدا فيه الكفاية وأنه يخضع لسلطانه ويحكم باسمه فى ايطاليا . وهكذا زالت الدولة القديمة اسما بعد زوالها فعلا ومن

ذلك الوقت توالى عليها الجرمانيون دولة بعد دولة كما سيظهر فى هذا التاريخ ولا يمكن أن تعتبر دولة (اود واكر) دولة بالمعنى الصحيح فانها لم تكن نتيجة استيلاء شعب معين على ايطاليا بل نتيجة ثورة من الجيش ضد الامبراطور وتولية قائد الجيش على الحكم ، فلم يكن لدولة (اود واكر) صبغة خاصة بل هي الدولة القديمة وقد تغير حاكمها فأصبح قائدا من الجرمان ترتكز سلطته على جيش من اخلاط من قبائل مختلفة ، ولن تكون فى ايطاليا دولة لها صبغة خاصة الا بعد ان يحل القوط الشرقيون فيها ويستولوا عليها بقيادة ملكهم العظيم (تيودوريك) كما سيأتى :

قيام الدول البربرية الجديدة

تكونت من تلك الشعوب الهمجية التى حلت بأراضى الدولة الرومانية دول بقى شأنها فى أوربا عظيماء مدة تختلف طولا وقصرا ومهما يكن من الأمر فان تلك الدول الهمجية بذور دول أوربا الحديثة التى هي عبارة عن خليط من مدنية الرومان القديمة وقد امتزجت بنسب مختلفة مع الشعوب الجرمانية التى دخلت اليها . وباختلاف تلك النسب فى المزيج تختلف طباع الشعوب الحديثة ومدنياتها وصبغاتها فمنها ما يكون به العنصر الرومانى اظهر من الجرمانى ومنها ما يكون فيه العنصر الجرمانى هو الاغلب وانا اذا كرون هنا بعض هذه الدول ومتبعين سيرتها

(١) دولة الفرنجة

حل الفرنج فى أول عهدهم بأرض الدولة الرومانية فى حوض نهر الرين وكانوا على عادة سائر الجرمانين قبائل وبطون لسكر منها رئيس ، وكانوا قسمين رئيسين الاول (الريارى) وكانوا على ضفاف الرين الاوسط والثانى (السالى) وكانوا على مصاب نهر الرين والى الغرب منه

وكان الفرنج على العموم شعبا طويل القامة شديدا قويا على تحمل الآلام ويلبسون ملابس ضيقة ويسدلون شعورهم الصفراء أو يصفرونها صفائر تقع على أكتافهم أو ظهورهم .



(شكل ٢ — محارب فرنجي)

ويتركون شواربهم الطويلة تنسدل على جوانب ذقونهم الحليقة ، فكان من ذلك منظر مهيب في الحروب . وكانت أسلحتهم الفاس (البلطة) والسيف والخراب ذات السنين ولما حلوا بأرض الرين جعلوا يزرعون إلى جانب الرعاية

وكان أكثر قبائل الفرنج يخضعون لأمراء من أسرة واحدة وهي (الميروقنجية) . وقد جعل بعض هؤلاء الأمراء ينبغي لاسيما في الفرنج

الساليين ويمكن أن يعتبر واضع أساس المملكة الفرنجية الأمير (شلدريك) وهو أبو الملك (كلوقس) العظيم .

و (كلوقس) تحريف اسمه الحقيقي (كلودويج) بدأ حكمه سنة ٤٨١ وكان ملكه لا يتعدى حكم طائفة من القبائل الفرنجية ولكنه حكم مدة ثلاثين عاما إلى سنة ٥١١ ترك بعدها دولة عظيمة راسية الأساس ستبقى في أوربا ثابتة مع تقلب الحوادث وتقاوم الصدمات العنيفة التي ستقضي على كل ماعداها من الدول البربرية التي تكونت منذ ذلك العصر .

حالة غالة عند أول حكم كلوقس

كانت بلاد غالة في أواخر القرن الخامس مقسمة إلى أقسام أربعة كبرى

(١) بقية أملاك الدولة الرومانية القديمة

عند انتهاء الدولة الرومانية كما مر سنة ٤٧٦ بقيت في غالة بقية من الجيوش الرومانية يحكمها القائد (سياجريوس) فاستقل بقطعة من بلاد غالة وكان البرابرة يسمونه (ملك الرومان) وكانت دولته حول نهر السين .

(٢) جنوب غالة وكانت تحت حكم القوط الغربيين الذين مر ذكر تكوين دولتهم في الأندلس وكانت حدودهم واصله إلى نهر اللوار
(٣) حوض نهر الرين وقد حل به البرغنديون في أوائل القرن الخامس كما مر .

حروب كلوقس

بدأ كلوقس سلسلة حروب على ما يليه وكان أولها على قسم سياجريوس فضمه سنة ٤٨٦ بعد موقعة قرب مدينة سواسون . ومن هناك بدأ سلسلة حروب مع جيرانه فاما الحرب مع البرغنديين فلم تنته بأكثر من خضوع أميرها لكلوقس . واما الحرب مع القوط الغربيين فاستمرت مدة طويلة وقتل فيها ملك القوط الاريك الثاني واستطاع الملك الفرنجي أن يضم لدولته كل جنوب بلاد الغال وبذلك صارت دولته ممتدة من بلاد الرين إلى البرانس ماعدا حوض الرين .

سرنجاح كلوقس

كان أكبر عامل على نجاح كلوقس ماقيه من المساعدة من أهل غالة الأصليين ومن رؤساء دينهم . والسفر في ذلك انه دخل في النصرانية سنة ٤٩٦ وكان أكبر الفضل في ذلك لزوجته المسيحية البرغندية كلوتلداوتنصر معه الفرنج واتخذوا المذهب الكاثوليكي وصاروا بذلك مثل أهل البلاد الأصليين مذهباً . فقرب هذا بين الحكام وبين المحكومين وجعل رجال الدين يساعدون على نصر الفرنج بكل ما يستطيعون من نفوذ ومما زاد في

تفوذ الفرنج ميل أباطرة الدولة الشرقية إليهم توسلا بهم إلى النكاية بالدول البربرية الأخرى وكان الاتفاق في المذهب الدينى عاملا على سرعة الامتزاج بين الفرنج والغاليين كما انه كان يجعل الغاليين يتسامحون كثيراً فيما قد يكون في الفرنج من الصفات التي عرفت عنهم مثل القسوة والغدر وحب سفك الدماء .

دولة القوط الغربية

بعد ان حل القوط في اسبانيا في أوائل القرن الخامس كما مر دانت لهم الشعوب المختلفة التي في شبه الجزيرة من الاسبانيين الاصليين وممن تخلف من قبائل القنдал والسويشى في الجبال الشمالية الغربية وهناك تأسست دولة قائمة على قانون القوط وعاداتهم وكانت من أقوى الدول البربرية الجديدة ولا سيما في أيام الملك (يوريك) ولكن قصر مدة حكمه عرضت بلاده لغزو الفرنج بعد موته سنة ٤٨٥ ولم يكن خلفه الاريك الثانى على مثل شجاعته وقوته وكان وجه الضعف في تلك الدولة ان القوط الفاتحين كانوا على المذهب المسيحى الآرى . وهو مخالف للمذهب المسيحى الذى كانت تتدين به البلاد الداخلة في الدولة الرومانية قديما فكان هذا عاملا على بقاء المحكام منفصلين عن الاهلين الاصليين فظلوا إلى النهاية أقلية حاكمة فوق أكثرية مخالفة لها

وكانت هناك وجوه كثيرة تعمل على اضطراب دولة القوط باسبانيا وأهمها سطح البلاد فانه من السهل على القبائل التي تريد أن تحافظ على استقلالها باسبانيا أن تعتصم ببعض الوديان في الجهات الجبلية لاسيما العالية التي في الشمال والشمال الغربى ويلى هذا العامل عامل آخر وهو انقراض لأسرة المالكية (أسرة الريك المعروفة بأسرة البلطيج) فانها انقرضت أثناء التضال الذى كان دائم الحدوث بين الفرنج والقوط وكان هذا مؤديا إلى تشاحن الأمراء ورؤوس الاسرات الكبرى على الملك يساعدهم سطح

البلاد وكثرة الفواصل الجبلية بها فكانت الدولة دائماً مهددة بالشوريات وانفصال بعض الدويلات في جهة من الجهات عن الدولة المركزية .
المذهب الآري . كان هذا مذهباً في الديانة المسيحية اعتنقه كل البربرية عند أول دخولهم في المسيحية ما عدا الفرنج الذين دخلوا في المذهب الكاثوليكي مباشرة .

ومما يسترعى النظر أن جميع الشعوب البربرية استمرت سائرة على المذهب الآري مدة طويلة حتى تبين لها مافى السير عليه من الضرر بها لأنه كان عاملاً على بقائها طبقة قليلة حاكمة فوق أكترية الأهليين الذين يخالفونهم في المذهب ولا يمكن الامتزاج والاختلاط بهم للفرق في المذهب وعند ما تبين للشعوب الحاكمة (البربرية) هذا الضرر تركوا الآرية واعتنقوا المذهب الكاثوليكي .

وليس هنا مكان البحث في حقيقة المذهب الآري ووجوه الفرق بينه وبين المذهب الكاثوليكي ولكن يكفي ان نبين أنه نسبة الى اريوس أحد كبار رجال الدين في القرن الرابع الميلادي ولعل أكبر وجوه خلافه عن سواه من أصحاب المذاهب المسيحية أن عقيدته أقرب الى اعتبار أن السيد المسيح (الابن) انما يستمد نوره من الله (الأب) الذي أوجده من العدم . وذلك يخالف العقيدة المسيحية العامة .

دولة الوندال (الوندال)

اصطدم القوط الغربيون عند دخولهم اسبانيا بالبرابرة (الوندال) الذين سيقوهم الى هناك . وهناك كان الانتصار للقوط . وأما الوندال واخوانهم السويبي وسواهم فبعضهم تحصن في الجبال الشمالية وبعضهم عبر الى شمال افريقيا وعم ملكهم على ذلك الاقليم من طنجة الى طرابلس .

وقد أقام الوندال هناك في القرن الخامس دولة اشتهرت بقوتها البحرية وعرفت بين الدول باقدامها على التدمير والنهب . فكانت أساطيلها تفتك بما يسير في البحر من سفن الرومان وسواهم وكان ملوك الوندال بين حين وآخر يرسلون سفنهم الى ايطاليا لفتحها على رومه وتشترك في نهش دولتها الضعيفة في أواخر أيامها . وكان أعظم ملوك الوندال (جنسريك) أو (جيسريق) وهو الذي بلغ بسطوة الوندال الى أعلى ما بلغت فسير أساطيله الى رومه فنهبتها سنة ٤٥٥ وطالت مدة حكمه الى سنة ٤٧٧ فكانت دولته في أيامه من أقوى الدول البربرية الجديدة . ولكن تلك الدولة كانت قائمة على غير أساس متين فان الوندال كانوا مثل القوط الغربيين (آرين) في المذهب وبذلك كانوا على غير مذهب عامة أهل شمال افريقيا (الكاثوليك) وهذا كان داعيا الى سلسلة من مواقف الشقاق الديني والاضطهاد الفظيع وكان أهل البلاد لذلك يحقدون على الطبقة الحاكمة من الوندال ويتربصون بها الدوائر فبقيت دولة الوندال أقلية تحكم أكترية تكرها ولا يمكن الاختلاط بينهما للفرق المذهبي . وقد زاد هذا الشقاق شدة بعد أيام (جيسريق) وكان من العوامل على ضعف الدولة كما سيأتي .

ملخص الباب الاول

عندما اتسعت املاك رومة دب فيها الفساد من وجوه كثيرة فاضمحل الشعب الروماني وأصبح غير جدير بالسيادة وضعفت قوة الدولة لما تحملته من الأحمال الثقيلة التي ليس من الطبيعي أن تحملها دولة . فبدأت الدولة الرومانية تضعف أمام هجمات المغيرين على أراضيها وكان أكبر هؤلاء المغيرين هم الفرنج والقوط الغربيون والوندال والهون والبرغنديون والانجليز والسكسون .

وقد قام بعض هؤلاء البرابرة بتأسيس دول في الأراضي التي حلوا بها من أراضي الدولة الرومانية القديمة وأكبرهم القوط الغربيون والوندال والفرنج . وكان لنزع هذه البلاد من دولة الرومان وتكوين هذه الدول وقع سيء عليها وزاد اضطراباتها الداخلية الى أن تجرأ أحد قوادها من المرتزقين البرابرة (اودواكر) على أن يخلع الامبراطور في رومة ويحل هو محله في الحكم سنة ٤٧٦ ولكنه لم يتخذ لقب الامبراطور بل أرسل يعلن خضوعه للامبراطور الشرقي مكتفيا بوجود امبراطور واحد .

وقد نمت قوة الدول البربرية الجديدة في أثناء القرن الخامس حتى اذا ما هل القرن السادس كانت هناك في أوروبا ثلاث دول كبرى من هذه الدول الناشئة وهي الدولة الفرنجية التي وسعها كلوفس وبلغ بها جبال البرانس والدولة القوطية باسبانيا وكانت أولا تمتد من جنوب اسبانيا الى نهر اللوار ولكنها نقصت أ كثر البلاد الواقعة شمال البرانس إذ غلبها الملك الفرنجي كلوفس عليها ولا سيما عند ما خلاله الميدان بموت الملك (أوريك) القوى العظيم وتولية الاريك الثاني الضعيف بدله والدولة الثالثة هي دولة الوندال

بشمال افريقيا وبلغت أقصى سلطانها في أيام الملك جيسريق واشتهرت باغاراتها البحرية على ما يليها من البلاد .

وجميع الدول البربرية كانت مخالفة للأهالي في المذهب الديني لأنها كانت آرية الا الفرنج فقد كانوا كاثوليكاً وهذا هو السر في أن دولة الفرنج هي الدولة الوحيدة التي بقيت بعد زوال كل الدول البربرية الاخرى فان وحدة الدين جعلت من السهل امتزاج الفرنج المغيرين بالأهالي الأصليين وسهلت بذلك تكوين دولة متماسكة مستقرة .

أُتِلَّة على الباب الاول

ما وجوه الاضمحلال الذي دُب بالدولة الرومانية ؟ كيف حاولت الحكومات الرومانية مقابلة الاخطار وما مقدار نجاح وسائلها ؟ ما معنى البرابرة ؟ وما أكبر الشعوب البربرية ؟ ما أكبر الدول البربرية واين تكونت كل واحدة منها ؟ ما هي مميزات دولة الفرنج ؟ ما أقسام غالة قبل تكوين دولة كلوفس ؟ ما مذهب البرابرة وما أثر ذلك المذهب في الدول الجديدة ؟

الباب الثاني

الدولة الرومانية الشرقية

في القرنين الخامس والسادس

بعد تقسيم الدولة الرومانية نهائياً إلى قسمين شرقي وغربي بين ولدي تيودوسيوس في أواخر القرن الرابع لم يكن القسم الشرقي خالياً من العيوب التي كانت تنخر في عظام القسم الغربي. فكانت الدولة الشرقية الرومانية وعاصمتها في قسطنطينية محاطة بمشاةل جمة من جميع الجهات غير ما كان في داخلها من وجود الضعف التي سبق ذكرها عند الكلام على سقوط الدولة الرومانية الغربية غير ان هناك فرقا في سير الدولتين فان حكم رومة آل في سنة ٤٧٦ الى الرئيس البربري (ادواكر) وانمحت الدولة الغربية في حين أن الدولة الشرقية بقيت تماشى الدهر عشرة قرون أخرى ومرت بها من الحوادث الجليلة ما سنذكر بعضه وكان الفضل في بقائها كل هذه المدة يرجع إلى عوامل عدة أكبرها مناعة موقع القسطنطينية فكانت أطراف الدولة الشرقية تنتقص من كل جهة وتصدع حدودها من نقط مختلفة ومع ذلك بقي قلب الدولة حيا في قسطنطينية فلا تلبث الصدوع ان تلتئم ولا تلبث الحياة أن تعود إلى الدولة بعد ما نقص من أطرافها .

وقد تلبد الجو للدولة الشرقية منذ أواخر القرن الرابع فان القوط وسواهم من القبائل البربرية حلوا داخل حدودها كرها وكانوا بين حين وآخر يشورون بها فيهيرونها هزات عنيفة مضعفة .

ثم تلا ذلك خطر الهون فلم يكن هجومهم مقصوراً على الدولة الغربية بل كانت الدولة الشرقية ترتجف من اغارتهم هي الأخرى .

ولا أدل على ذلك من قول الملك (اتلا) الهونى اذ قابله رسول الدولة الرومانية الشرقية وكان الملك اذ ذاك جالسا على كرسى من الخشب الساذج وسلاحه ولباسه وكل ما حوله خشن خشونة البداوة : قال للرسول « أى مدينة فى كل الدولة الرومانية الواسعة تستطيع أن تبقى آمنة سالمة إذا كانت ارادتى أن أمحوها عن وجه الأرض ؟ »

وفىما كان القوط والهون يصدعون الدولة من الشمال كانت دولة الفرس تنازعها السيادة من الشرق وكانت الحرب بينهما دائمة الثوران عند حدود آسيا الصغرى والشام غير ان حروب الفرس لم تكن فى شدة حروب البرابرة فان دولة الفرس المتعدنية لم تكن ذات الشوكة الجادة والفتوة الوحشية بل لأنها كانت تشعر بمثل ما فى احشاء الدولة الرومانية من الأمراض وكانت هى أيضا معرضة لهجوم جيران من البرابرة الهمج على حدودها . ولكن مهما يكن من الأمر فقد كانت الحروب بين فارس والرومان أكثر استمرارا من هجمات البرابرة فاذا كانت الدولة الرومانية ترتجف فزعا على حياتها من عنف اغارات الهمج فقد كانت تشعر أيضا بشغل وطأة الحروب مع فارس لاستمرارها عاما بعد عام وجيلا بعد جيل .

نشأة دولة القوط الشرقية بايطاليا

وهنا يجب أن نذكر نتيجة من نتائج استمرار ضغط الهمج على الدولة الرومانية الشرقية . فان القوط فى أواخر القرن الخامس كانوا لا ينفكون يفسدون فى أرضها وكانوا قد حلوا فيها قبل ذلك كرها منذ أواخر القرن الرابع وقد بينا ان بعضهم جلا مع (الاريك) حتى كونوا دولة باسبانيا أما سائرهم فبقى فى البلقان ويطلق عليهم اسم القوط الشرقيين وكانوا فى الظاهر خاضعين لامبراطور الدولة الشرقية ولكنهم كانوا فى الحقيقة غزاة فاتحين يجوسون خلالها ويفسدون فيها .

وقد نبغ في أواخر القرن الخامس أمير قوطى وهو (تيودوريك) جعل للقوط شأنا عظيما جعل أباطرة الدولة الشرقية يخشون بأس هذا الشعب أكثر مما كانوا يخشونه من قبل فاحتال الامبراطور الداهية (زينو) على الأمر بأن أوعز الى تيودوريك أن يجلو عن البلقان ويغزو إيطاليا وكانت إذ ذاك في يد الزعيم المتغلب عليها وهو (اودواكر) وكانت بينه وبين الامبراطور إذ ذاك عداوة. ووعد زينو تيودوريك ان يقره على حكم ايطاليا ويعترف به ملكا عليها اذا هو ترح اليها وغلب (اودواكر) .

ونجح في سياسته فتحرك (تيودوريك) بشعبه جالين عن البلقان جلاء تاما بحيوانهم وأموالهم تتبعهم عرباتهم الضخمة محملة بكل ما يملكون وذلك في سنة ٤٨٩ هكذا تمكن زينو من أن يضرب هدفين بسهم واحد أن يتخلص من جوار القوط وأن يقضى على دولة عدوه (اودواكر)

(تيودوريك) ولا بد لنا من ذكر شئ عن ذلك الرجل الفذ فقد كان يجمع بين فضائل القوط البدو وفضائل المدنية الاغريقية لانه في صباه اقام في بلاط القسطنطينية نحو عشر سنوات كرهينة عند الامبراطور ضمانا لحسن جوار القوط للدولة الرومانية فلما عاد الى شعبه بعد ذلك كان قد تأثر بحياته في وسط المدنية هذه المدة فأدرك أشياء كثيرة ما كان لهمجى ان يدركها في حياته البدوية

وكان متصفا بما يجعله محبوبا عند شعبه البدوى ولهذا كان به كل ما يؤهله لأن يكون زعيما قادرا .

انتصار تيودوريك : اصطدم القوط بقيادة زعيمهم القادر المحبوب بجيوش اودواكر في شمال ايطاليا وقد علمنا أنها لم تكن من جنس واحد بل كانت اخلاطاً من عدة أجناس وكانت فوق ذلك لا ترتبط بقائدها برباط الولاء او قرابة الدم . كما انها لم تكن تعمل لغرض معين بل كانت

مأجورة لخدمة غرض غيرها فلم يكن شك في انتصار تيودوريك وجنوده القوط بعد دخولهم ايطاليا من ممرات (الالب الجوليانية) واحرزوا النصر في ثلاث وقعات كبرى في شمال ايطاليا حتى اضطر (اودواكر) أن يتحصن في (رافنا) على الشاطئ الشرقي وحوها المناقع العدة التي تجعل الوصول اليها شاقاً ، وهناك حاصره تيودوريك نحو ثلاث سنوات تمكن في اثنائها من فتح سائر ايطاليا ولما أن طالت مدة الحصار فاوض اودواكر أن يسلم على أن يكون شريكا لتيودوريك في حكم البلاد ولكن تيودوريك بعد أن قبل ذلك الشرط دبر مكيدة لقتل ذلك الشريك المزمع فكانت هذه خيانة تلتخ ذكري تيودوريك وهي من الغلطات القليلة التي تعد على ذلك الرجل الكبير .

وكان تسليم رافنا وانفراد تيودوريك والقوط بحكم ايطاليا في سنة ٤٩٣ .

حكم تيودوريك بايطاليا

أقام تيودوريك القوطي في ايطاليا دولة تمتاز عن جميع الدول البربرية التي قامت على انقاض الدولة الرومانية الغربية بأنها كانت دولة مصلحة معتدلة — وكان القوط على المذهب الآري في حين كان عامه الشعب كاثوليكاً كما ان القوط كانوا اقلية صغيرة . فلم يذكر التاريخان عدد رجالهم زاد على مائتي الف في اعظم ايام دولتهم زهاء ولكن مع هذه العقبات نجح تيودوريك في اقامة دولة تكاد تعيد الى الذهن ما كانت عليه دولة الرومان في عزها القديم والفضل الأكبر في ذلك راجع الى اعتداله وحسن سياسته فجعل امام عينيه قصداً واحداً وهو اعادة سعادة ايطاليا وارجاع يسرها ورخائها بعد ما أصابها من النكبات المتوالية وجعل القوط سلاحه الذي يدفع به الخطر عن الدولة فلم يسمح لهم بأن يصيروا صناعاً أو عمالاً لأنه رأى ذلك يضعف من روحهم ولكنه شجع أهل البلاد على الانصراف

إلى العمل ولم يشعرهم ذلة الفتح وذلك لما كان له من التأثير في جنوده القوط وأخذهم أشد الأخذ بالاعتدال وعدم العسف بأهل البلاد ولم يؤخذ عليه غير أنه أخذ ثلث أرض إيطاليا في أول دخوله فيها ووزعها على القوط ولكن ذلك الثلث لم يؤخذ فعلا من الأثالي بل من جنود (اودواكر) المغلوب فإنه كان قد سبق بأخذ ذلك الثلث لهم من قبل .

واتخذ تيودوريك من أفاضل أهل البلاد وزراء كانوا عدته في الحكم وحاول بقدر استطاعته أن يعيد إلى الرومانيين ما كان لدولتهم القديمة من مظاهر المجد وإعادة أثارها المتهدمة ولم يكن تشجيعه للإنتاج مقصوراً على تسهيل سبله للوطنيين فإنه كان يعمل على تأمين الأجانب الذين جعلوا يفدون للتجارة إلى إيطاليا فيجدون من اصلاح الحكومة وعدلها وتمهيد الطرق وتأمينها ما يساعد على رواج متاجرهم .

وقد طال حكم تيودوريك فكان نحو ثلاث وثلاثين سنة بلغ في أثنائها من السلطان الداخلي والخارجي مبلغا كبيرا وقد ساعد على زيادة نفوذه الخارجي مصاهرتة لمن حوله من ملوك البرابرة كالفرننج والبرغنديين والفندال والقوط الغربيين حتى لقد صار المحكم في منازعات جيرانه والمعترف له بالزعامة بين جميع الطوائف الجرمانية .

ولكنه مع كل هذا لم ينبج من سوء آثار اختلاف مذهب قومه عن مذهب أهل البلاد فإن كل نعمة منه كانت تعتبر أنها نعمة آتية من أجنبي بل كافر لاحق له في شكرهم ، وقد حقد على الإيطاليين انكارهم لجميله فأدى به ذلك إلى شيء من الشدة والضغط في أواخر حكمه ولنا أن نضم ذلك إلى غلطاته القليلة .

ولقد مات سنة ٥٢٦ تاركا دولته وسط سحب سوداء سنرى ماذا يكون ما آلتها ولم يكن في القوط خليفة له يستطيع أن يحفظ ما بناه إذ كان ولي عهده حفيده (اتالاريك) في سن العاشرة ولم يكن ممن يرجي أن يكون عظيما كجده .

انقلاب جستنيان

لأنجد لحكم جستنيان وصفا يلائم ما حدث به غير أن نصفه بأنه كان ثاقلا با فقد وجد جستنيان الدولة الرومانية على حالة لم يرضاها فسعى إلى بلوغ غاية بعيدة وسنحاول أن نبين غايته وما آل أعماله وآثارها على الدولة فيما يلي . ولعله من المفيد أن نعرف شيئا عن الرجل قبل أن نصف ما أحدثه: خلف جستنيان عمه جستين الأول سنة ٥٢٧ ولكنه قبل ذلك كان المدير الحقيقي لأمور الدولة في مدة حكم عمه الذي لم يكن له حظ من العلم أو القدرة الإدارية وكانت له قدرة عجيبة على العمل وعرف بأنه كان لا ينام الا قليلا ولا تلذه لذة أكبر من انكبابه على درس تفاصيل الإدارة مع مساعديه من الموظفين . وكان سهل الحجاب حلما لطيف الحديث هادئا قويا على حكم نفسه وكان معروفا بالعفة والاعتدال في كل شيء حتى في مأكله الذي كان ساذجا مقتصرا .

وكان يقال عنه ان ساعة من النوم تكفيه ويقضى سائر وقته في العمل أو القراءة ولهذا كان واسع المعارف يضرب بسهم في الفنون والعلوم المعروفة في وقته

وقد تزوج براقصة (تيودورا) كانت في وقت من أوقات حياتها تعيش عيشة منحلة ولكنها دلت في حياتها معه على شيء كثير من القوة والذكاء وكان لها في دولته رأى نافذ وأمر مطاع .

ولكن لا بد أن نعترف ان حب الشهرة قد جر عليه غلطات في السياسة كان لها عواقب وخيمة ولم يوفق إلى أن يجعل لنفسه مكانة في نفوس الشعب الروماني مع حرصه الشديد على ذلك

ميادين أعمال جستنيان

وان اتساع نطاق أعماله في مدة حكمه الطويل (اذ حكم نحو ثمان وثلاثين سنة) يجعل من الضروري تقسيمها إلى الأنواع الثلاثة الآتية

(١) الأعمال القانونية

(٢) أعمال الإصلاح والتعمير

(٣) أعمال السياسة والفتوح

(١) الأعمال القانونية

كانت القوانين والأحكام إلى عهد جستنيان قد تكاثرت وتشعبت حتى صار من أشق الأمور على القضاة أن يجدوا هاديا في أحكامهم فعهد جستنيان في أول حكمه إلى عشرة من أكثر المشترعين اطلاعا أن ينظروا في مراسيم أسلافه وقوانين الدولة القديمة فأتموا عملهم وجمعوا القانون المسمى باسم جستنيان في نحو أربعة عشر شهرا ثم عهد إلى جماعة أخرى أن يجمعوا الأحكام ليستخلصوا منها أصول الحكم ومبادئ القانون فأتموا ذلك في ثلاث سنين وجمعوا (الباندكت) و (مجموعة الأحكام) فصار من ذلك ثلاثة مراجع عظيمة حفظت القانون الروماني وجمعت شتاته وهي قانون جستنيان والباندكت ومجموعة الأحكام .

ومهما قيل في عمله هذا فانه كان الجزء الخالد من أعمال جستنيان بعد ان زالت آثار أعماله الأخرى .

(٢) أعمال الإصلاح والتعمير

يعرف جستنيان بأنه كان من أكبر من عمر المباني ومهد الطرق . ولا يكاد يوجد قطر من الأقطار الخاضعة له لم يكن له فيه بناء جديد أو أثر مجدد . ومن أظهر آثاره الباقية للآن كنيسة أياصوفيا التي صارت الآن المسجد الشهير في تركيا . وله الفضل في بناء كثير من الأديرة وتجديد كثير

من الآثار القديمة ولم ينس مجده الذاتي فقد أعاد بناء قصره في قسطنطينية
وبنى له قصرًا عظيمًا على الشاطئ الاسيوى كان آية في الجمال .

وفوق ذلك كله أعاد حصون الحدود في جميع النواحي ولا سيما على
حدود فارس وعند نهر الدانوب .

ولكن يجب أن نقر أن تلك المباني التي أقامها كانت من دماء أهل الدولة
الرومانية . فقد كانت تستنزف أموال الدولة وتجعل من الضروري أن
يحمل الناس حملاً لا يستطيعونه من الضرائب

(٣) أعمال السياسة والفتوح

ورث جستنيان عمه واعتلى عرش الدولة سنة ٥٢٧ . فوجد الدولة
الرومانية على الحال التي وصفناها من قبل وقد قطعت واستولى الهمج على
كثير من أنحائها فأقاموا بها دولة الفرنج في غاله والقوط الغربية في اسبانيا
والقوط الشرقية في ايطاليا والوندال في شمال افريقية . وكان مع ذلك سائر
اجزاء تلك الدولة تتهددها الاخطار عند حدودها فالعرب من الجنوب والهون
من الشمال تسيرهم دولة الفرس في جيوشها فتصدع بهم الحدود الشرقية وقبائل
الصقالبة والآقار والبلغار يغيرون على البلقان من الشمال ولا تكاد الدولة
تستطيع مقاومة هؤلاء المغيرين بغير الرشوة .

وقد تطلع جستنيان الى أمل بعيد فطمع في اعادة الدولة الرومانية الى
مجدها القديم بأن يزيل عنها ما لحق بها من هوان ويطردها عن أرضها كل من
حل بها من الهمج . ولقد سئحت له ظروف جعلت من الممكن أن يبدأ
في تحقيق ذلك الحلم وكاد أن يحققه وحروبه التي أثارها لاسترجاع تلك
البلاد هي

(١) حرب الوندال

(٢) حرب القوط الشرقيين (ايطاليا)

(٣) حرب القوط الغربيين (اسبانيا)

ولكنه لم يحاول فتح بلاد الفرنج ولعل اتحاد المذهب الديني يجعلهم أقرب الى أن يكونوا حلفاء ويعتبروا كالرومانيين .

نظرة في اعمال جستنيان الحربية

لم تكن حروبه المذكورة هي المشاغل الوحيدة للدولة بل كانت هناك الحروب العظيمة مع فارس والحروب مع قبائل البلقان ولهذا كانت الدولة تتكاف مجهودا عظيما لا تستطيعه .

وقد انفقت الدولة على هذه الحروب نفقات عظيمة اذا أضفناها الى ما انفقته جستنيان على مبانيه الكثيرة عرفنا ان جستنيان أنهك قوى الدولة واستنزف أموالها وحمل أهلها الاحمال الفادحة . على أنه من الضروري أن نسأل أنفسنا هل كانت الدولة الرومانية في مدة جستنيان لا تزال محتفظة بشبابها فتقدر على المحافظة على كل البلاد الفسيحة التي كانت تحكمها من قبل ؟ والجواب على ذلك لا شك معروف فان الدولة الرومانية لم تفقد أرضها ولم يتغلب عليها الهمج من قبل الا لأنها صارت عاجزة عن المحافظة عليها فاذا بذل جستنيان مجهودا كبيرا لاسترجاع هذه الأرض لم يكن عمله دائم البقاء بل لن تلبث تلك الأرض أن تفقد لأن روح الدولة لم تكن تلك الروح القوية التي تقدر على الاحتفاظ بها : (١) جنودها مرتزقة (٢) شعبها مترف منصرف الى التافه من الأمور لا يقدم على الحرب (٣) وقد أزهقته الاحمال فهو غير راض عن الحكومة . (٤) والدولة مكونة من وحدات مختلفة غير متجانسة لا في اللغة ولا في العادات (٥) وهي متباعدة الاطراف كل منها اقليم قائم بذاته ينزع دائما الى الانفصال عن سواه .

فكان من المحتوم أن تعود الدولة التي بناها جستنيان الى التفكك وهذا ما حدث فعلا ولذلك كان مجهوده ضائعا في عمل لا بقاء له ولا فائدة منه بل اعقب زيادة في الضرائب وزاد في كره الناس للدولة . وجعل الاقاليم المختلفة تميل اكثر من ذي قبل الى الانفصال عنها .

حرب الوندال

كانت السنين الاولى من حكم جستنيان عاصفة بالحوادث فكانت الحرب ثائرة مع الفرس وكانت اغارات القبائل المجاورة تزعج الدولة بين حين وآخر وفوق كل هذا ثارت ثورة في القسطنطينية بدأت صغيرة في ميدان السباق ثم زادت شدة حتى هددت العرش لولا ثبات الملكة (تيودورا) غير ان كل تلك الاخطار زالت فقضى على الثورة وهذا القبائل المجاورة وأوقف الحرب مع فارس ببذل مقدار عظيم من المال فلما كانت سنة ٥٣٢ كان جستنيان يستطيع أن ينتهز الفرص التي تسنح له ليحقق آماله العظيمة ولاحت له أولى تلك الفرص في بلاد الوندال فقد كان هناك اضطراب بعد انقراض الجيل الاول من ملوك الوندال (جيسريق وابنه هنريك) فنزع الملك الحاكم من ملكه (وهو هلدريك) وتولى الملك من عزله (وهو جيلامير) فتدخل جستنيان في الأمر منتصرا للملك المخلوع وهكذا أعد العدة لحرب الوندال وأسند القيادة الى عظيم من قواده وهو (بلزار يوس) الشهير وسار أسطوله سنة ٥٣٣ يحمل خمسة آلاف من الخيل وعشرة آلاف من الرجال ميمما شاطئ قرطاجنة التي عادت فصارت عاصمة لدولة الوندال فوصل الى جنوبها قليلا بعد نحو ثلاثة شهور وهناك حدث أول اصطدام مع الوندال عند الميل العاشر من جنوب قرطاجنة ومنه اشتق اسم الواقعة (ديسميوس) وكان الوندال عند ذلك على ما ليس يضمن النصر وذلك لسببين الاول ان عددا كبيرا من جيشهم كان في غزوة لفتح جزيرة (سردانيا) بقيادة أخى الملك وكان الوندال أقلية حاكمة ولم يكن من الممكن أن يجندوا من أهل البلاد للدفاع عن دولتهم المكروهة . والسبب الثاني انهم منذ حلوا بإفريقية وتمتعوا بدفء جوها وطيب ثمارها نسوا خشونتهم الأولى وانغمسوا فيما يمهده لهم الغنى من دعة وزعيم ولا سيما وقد كان أكثر خيرات البلاد

بؤول اليهم ويحرم منه العديد الاكبر وهم أهل البلاد الأصليين وقد أدى ذلك الانحلال الى تفرقة في الكلمة فلم يهبوا الى علم ملكهم عند قدوم بلزاريوس: بل قعدوا عنه فلما اصطدم بهم بلزاريوس لم يجد أمامه لا عددا عظيما ولا شجاعة تحل محل كثرة العدد فكان له نصر كبير سنة ٥٣٤

وكان من دواعي النصر عطف أهل البلاد عليه وقد جاء ذكر ذلك على لسانه مرة فقال « لست اعتد بعدد جندي ولا بشجاعتهم أكثر من اعتدادي بحب الاهلين وعطفهم علينا وكرهم للوندال »

هرب الملك جيامير الى الصحراء الجنوبية وهناك حاول مرة أخرى أن يستعيد حظه واستعان بجند سردانيا الذي عاد بعد فتحها ولكن الحظ قعد عن الوندال هذه المرة أيضا فهرب بعد هزيمته ولكنه سلم أخيرا إذ لم يستطع المقاومة وعاد مع بلزاريوس الى قسطنطينية سنة ٥٣٤ ليكون مع سائر الأسرى زينة الموكب الفخم الذي أعدته عاصمة الدولة وامبراطورها للاحتفاء بالغازي الكبير فاتح قرطاجنة ومبيد دولة الوندال وكانوا يحيونه باسم « شبليون الافريقي » اعادة لذكرى القائد الروماني العظيم الذي حطم عظمة قرطاجنة

حرب القوط الشرقيين بايطاليا - الدول الاولى

سنحت لجستينيان فرصة للتدخل في إيطاليا شبيهة بالفرصة التي سنحت له في افريقية فان تلك الدولة بعد موت ملكها العظيم (تيودوريك) لم تجد ملكا من نسله يستطيع أن يسير على منهاجه ويحتفظ بتراثه العظيم بل خلفه ابنته وصية على ابنها حفيد تيودوريك . ثم مات ذلك الحفيد وقد عجل موته سوء حياته وانهما كه في لهوه ولما يزل صبيا وكان القوط قوما على سنة شعبهم من الجرمان لا يخضعون لامرأة تسوس أمورهم فاضطرت ابنة تيودوريك أن تشارك معها في الملك أحد أبناء أسرتها (تيودوهات) وكان رجلا يجمع بين الضعف والقسوة . فأساء معاملة الأميرة ونفاها

ثم دبر قتلها وعند ذلك رأى جستنيان التوسل بتلك الحوادث للتدخل
ورمى القوط بقائده الكبير بلزاريوس سنة ٥٣٥ فصار في البحر الى
صقلية بجيش لا يزيد على ثمانية آلاف . وأتم فتح تلك الجزيرة في أشهر
قلائل ولكن لم يعبر الى ايطاليا مباشرة اذ اضطر الى العبور الى افريقيا لاختضاع
ثورة ثارت من الجند في قرطاجنه فلم يتمكن من الاصطدام مع القوط
في شبه جزيرة ايطاليا ذاتها الا سنة ٥٣٧ .

وقد أظهر الملك (تيودوهات) من الجبن ماخذل القوط عنه . وكان
أهل ايطاليا يكرهون القوط لما ذكر من قبل وجوه الخلاف بينهم في المذهب
الديني واللغة والعادات وزاد ذلك الكره منذ مات الملك العادل (تيودوريك)
فلم يلق بلزاريوس صعوبة في اكتساح شبه الجزيرة الجنوبية . وكان ذلك
الخذلان داعياً الى ثورة القوط على ملكهم فعزلوه واختاروا مكانه أحد
شيوخهم (وتيجس) ولكنه لم يكن على شيء كبير من حسن التدبير في
الحرب فاستمر بلزاريوس في انتصاره حتى دخل رومة ثم ارتد (وتيجس)
الى (راقنا) وتحصن بها بعد ان عجز في محاولة استرداد رومة طول سنة ٥٣٧ .
ومنذ ذلك الحين رجحت كفة (بلزاريوس) رجحانا ظاهراً وما زال الحصار
يشدد على راقنا حتى سلم (وتيجس) سنة ٥٣٩ . وعند ذلك استدعى
جستنيان قائده الكبير ليعود قبل أن يتم اخضاع السهول الشمالية ومدنها
الكبيرة .

الدور الثاني من حرب ايطاليا

شغل جستنيان بعد سنة ٥٤٠ بحرب طاحنة مع فارس تلك الدولة
العظيمة اذ ذاك بحكم ملكها الكبير ذي الأطماع الواسعة كسرى الأول
المعروف (بانوشروان) الذي تولى ملك فارس نحو نصف قرن (٥٣١ —
٥٧٩) وكان مثلاً للملك القادر العالم . ولم تكن تلك الحرب هي الأولى بين

فارس والرومان فقد كانت الحروب غير منقطعة تقريبا بين هاتين الدولتين العظيمتين المتجاورتين وقد حدثت احدى هذه الحروب فى أوائل حكم جستنيان ولم تنته الا على دفع الرومانيين فدية من المال وقصد جستنيان بذلك ان يتفرغ لبلوغ مقاصده وهى إعادة الدولة الرومانية الى ما كانت عليه من العظمة وارجاع أملاكها التى فقدتها

فاما رأى أنوشروان مابلغه جستنيان من فتح افريقية وايطاليا أعاد الحرب سنة ٥٤٠ وبدات منذ ذلك الحين حرب طاحنة متقطعة كانت فيها كل من الدولتين تلتمس المساعدة من كل جهة على عدوتها . ولندكر هنا ان بعض العرب كانوا من جنود الفرس وبعضهم كان من جنود الرومان كما أن الحبشة المسيحية انضمت فى ذلك النضال الى جستنيان امبراطور الدولة المسيحية الكبرى .

فى مثل هذه الحال لم يكن من المتيسر ان يقضى جستنيان بسهولة على بقايا القوط فى ايطاليا ولهذا أمكنهم ان يسترجعوا ما فقدوه

وعادت أمورهم الى الانتظام تحت قيادة ملكهم الجديد الشجاع (بدويله) أو (طوطيلة) فان هذا البطل تمكن من استرجاع كل ايطاليا تقريبا وأعلى نفوس القوط بعد ما نالهم من الهزائم حتى اضطر الامبراطور مرة اخرى ان يرسل اليه بلزاريوس نفسه ومع ذلك ظلت الكفتان متراجعتين نحو عشر سنوات الى ان أرسل الامبراطور القائد الثانى الكبير (نارسيس) الذى تمكن أخيراً من أحكام الخطة وهزم بطل القوط هزيمة كانت القاضية عند (تاجينه) فى الشمال الشرقى من رومة بعد دفاع يستحق الاعجاب أصيب فيه ملك القوط البطل بجرح مميت . ولم تبق بعد ذلك دولة القوط الا قليلا ثم سلم من تبقى منهم بعد ذلك النضال الطويل على أن يجلوأ عن ايطاليا بنسائهم وأطفالهم ومن ذلك الوقت لا يسمع التاريخ شيئا عنهم .

واستولى الرومانيون على ايطاليا منذ ذلك الحين ولو ان نارسيس اضطر لكي يخلص له ملكها ان يحارب جيوش الفرنج ويهزمها وكانت قد أتت منتهزة فرصة النضال العنيف لعلها تصيب مغنا . على ان بقاء الرومانيين في ايطاليا لم يكن الى أمد طويل فما لبثوا أن ترعها منهم شعب آخر من البرابرة الذين لم يكن فيه شيء من فضائل القوط ولا اصلاحهم فانه ماضت ستة عشر عاما بعد موقعة تاجينه حتى كانت جيوش اللمبردين في سهول نهر البو واجتاحوا بعد ذلك ايطاليا وخرّبوا عامرها بعد ان كادت تلك البلاد تعود الى سابق عهدها وسالف تقدمها على يد تيودوريك القوطي

أليس من الحق أن نقول ان جستنيان أضرب دولته وبايطاليا في نفس الوقت من أجل فكرة ولدها تطلعه الى المجد وشغفه بالعظمة الجوفاء ؟

حرب اسبانيا

حدثت في أوائل القرن السادس جروب عنيفة بين الدولتين المتجاورتين دولة الفرنج التي كونها كلوقس ودولة القوط الغربية باسبانيا وقد قتل في تلك الحروب الملك الاريك الثاني ولولا حماية تيودوريك لدولة القوط باسبانيا لضمها الفرنج لدولتهم . ولكن بعد موت ذلك الحامي تجدد النضال وقتل فيه الملك القوطي الصغير (امريك) وبمقتله انقرض البيت القديم الذي يجله القوط وهو نسل (الأريك الأول) ومن ذلك الوقت ثارت الشجناء بين كبار القواد القوط وتقسم الشعب القليل الآري المذهب شيعا وهو مكروه من الشعب الاسباني الأصلي لاختلافه عنه في اللغة والدين والعادات كما تقدم فكانت هنا فرصة جستنيان . وقد توصل الى مساعدة فريق من المتشاكين وتوصل بذلك الى بسط يده على الجزء الجنوبي الشرقي من أرض اسبانيا . وبقيت تلك الرقعة في حوزة الرومانيين مدة طويلة الى أن استردها القوط بعد نضال طويل

رد الفعل بعد جستنيان

قام جستنيان كما رأينا بمجهود كبير لانفاذ خطة واحدة وهي إعادة الدولة الرومانية الى سالف مجدها . وقد كلفه ذلك المجهود مشقة وحمل الشعوب الداخلة في الدولة الرومانية أحمالا ثقيلة .

ومع ذلك فقد ترك الدولة والحدود الفارسية لاتزال مصدوعة فلم تلبث الحروب أن تجددت هناك . وترك حدود البلقان ولا تزال قبائل الصقالية والاقار والبلغار كالامواج تتوالى في اتجاه العاصمة وهي مرة متردة وأخرى قوية مدمرة . ثم ترك البلاد التي فتحها وأعادها الى حظيرة الدولة الرومانية منهوكة القوى شعبها يئن من ضرائبه ومصائب الحرب عنده . حقا ان جستنيان استطاع بشخصه ان يحافظ مادام حيا على صورة ذلك البناء الضخم ولكنه لما مات ارتجت الدولة رجة عنيفة لن تنجلي عن أقل من ضياع أكثر ما فتحه وزادت الرجة خطرا حتى هددت كيان الدولة ذاتها . وكانت أكبر مظاهر تلك الرجة هي :

- (١) فتح اللمبرد ايطاليا
- (٢) تجدد الحروب مع فارس
- (٣) اغارات قبائل الصقالية والاقار والبلغار على البلقان وتهديدهم القسطنطينية .

فتح اللمبردين لاطاليا

اللمبرديون اسم لشعب من الشعوب الجرمانية التي كانت تسكن البلاد الشمالية من اسكندناو في اقدم الازمنة ثم عبرت البلطيق واستوطنت بلاد جرمانيا وما زالت تنزح الى الجنوب الى ان بلغت شواطئ نهر الدانوب وهناك نبدا نسمع عنهم عند حدود الدولة الرومانية وكانوا يدخلون في جيوش تلك

الدولة جنوداً مرتزقة . واصل اسمهم كما قيل مشتق من (لانج بارد) ومعناه
اللحم الطويلة لأنهم كانوا يطيلون لحامهم . ولعلمهم من أقل الشعوب الجرمانية
احتكاكا بالمدينة وتأثراً بها وقد استعدهم جستنيان على قبائل الجيبيدي الذين
كانوا يغيرون على دولته وهذا أول ما جعلهم يملكون أرضاً في الدولة الرومانية
اذ حلوا فيها محل قبائل الجيبيدي بعد انهزامهم وزوال ملكهم وكان منهم
في جيوش نارسيس في ايطاليا فعرفوا من ضعف الرومانيين هناك ومن
غنى تلك البلاد ما جعلهم يطمعون في الاستيلاء عليها فما مضى على موت
جستنيان أكثر من ثلاث سنوات حتى كانوا يطرقون أبواب ايطاليا
يحاولون فتحها .

ولسنا في حاجة الى ان نعيد ان ايطاليا كانت في شر حال تحت حكم
جستنيان: ضرائب فادحة وأعمال ثقيلة وحكومة عاسفة تتخذ من علو اسمها
وقدمه ذريعة الى الظلم حتى لقد بدا لأهل ايطاليا انهم خسروا دولة القوط
وترحموا على اصلاحها .

فلما دخل اللمبرديون سهول الشمال لم يتحرك أهل البلاد مع الجيوش
الرومانية فكانوا لا يساعدون جنود الدولة أية مساعدة . وكانت الدولة
موزعة القوى بين ميدان حرب في فارس وآخر في البلقان فلم تكن متفرغة
لصد اللمبردين فوجد هؤلاء الفتح أمامهم سهلاً . وهكذا تمكن ملكهم
الشاب الشجاع (البوين) من فتح شمال ايطاليا بين سنتي ٥٦٨ - ٥٧٢ ولكنه
قتل في ذلك الوقت الحرج قبل اتمام فتح شبه الجزيرة . قتله امرأته لأعمال
تدل على شدة قسوته وفظاعة طباعه الهمجية ولم يكن له خليفة الا طفل
صغير . فترك اللمبرديون بلا ملك يجتمعون عليه لمدة عشر سنوات . ولكنهم
مع ذلك ساروا في الفتح وجعل كل أمير منهم يفتح لنفسه اقليماً ويحل به وكان
لهذا نتائج كبيرة الاثر أهمها

(١) كانت أملاك اللميرديين متقطعة تتخللها بقاع بقيت للرومانيين لأنهم لم يفتحوا كل البلاد بنظام واحد تحت قيادة واحدة .

(٢) لم يكن هناك فضل لحكومة مركزية في ذلك الفتح فكان الأمراء اللميرديون مستقلين كل منهم له الفضل في فتح اقليمه . واستمر استقلال الأمراء الى النهاية حتى بعد أن أرجعت المملكة واختير من بينهم ملك واحد سنة ٥٨٣

وكان اللميرديون فوق ما انصفوا به من الهمجية والبعده عن التهذب المدني . مخالفين للايطاليين في المذهب الديني اذ كانوا (آريين) . فأى خلف كان هؤلاء لدولة (تيودوريك) !

نمو سلطان البابا

تمتاز دولة اللميرديين بأن نفوذ البابا نما في أثنائها نمواً كبيراً . حقا ان البابا كان منذ ايام قسطنطين رئيساً له نفوذ ديني كبير وكان بابا روما بصفته . رئيس رجال الدين في رومة العاصمة الكبرى يعتبر بين رجال الدين في مكانة سامية . ولكنه في مدة القوط اتخذ صفة جديدة وذلك انه أصبح رئيساً دينياً في دولة تخالف الأهلالي في مذهبهم الديني فكان هو بمثابة زعيم لأهل البلاد في مواجهة الدولة الحاكمة الأجنبية . فلما عاد الملك الى الرومانيين مدة جستنيان رجع الأمر والرئاسة الى الامبراطور العظيم . ولكن بعد فتح اللميرديين عادت اليه الزعامة التي كانت له مدة القوط وزاد عليها عامل جديد زاد من نفوذه وسلطانه وذلك ان الامبراطور الشرقي لم يكن متفرغاً للدفاع بجيوش الدولة عن إيطاليا فاضطر أهل البلاد الكبرى أن ينظروا في أمر مصيرهم بأنفسهم ولما حاصر اللميرديون رومة وضع البابا الموجود إذ ذاك وهو جريجوار الاول نفسه على رأس المدينة فكان يدبر الدفاع عنها ثم تولى أمر المفاوضة في الصلح مع ملك اللميرديين الى أن اتهم

معاهدة سنة ٥٩٩ جعلته واليا أو أميرا على رومة في داخل دولة اللامبرديين .
وتلك زيادة على رئاسته الدينية على عامة المسيحيين الذين يخضعون للمذهب
الغربي . وبذلك صار للبابا شأن دنيوى الى جانب نفوذه الدينى وصار من
ذلك الوقت زعيم الوطنيين أمام الدولة الحاكمة الأجنبية والحاكم على رومة
المدير لها فى آن واحد

حروب الدولة الرومانية الأخرى

كان جستنيان أثناء حكمه يجتهد بقدر استطاعته أن يقلل من الحروب
على الحدود التى لا ينتظر أن يوسع دولته فى اتجاهها فكان يصل الى ذلك
بالعطايا والمنح فكان يعطى للقبائل الضاربة فى البلقان كثيرا من المال
ليمتنعوا عن غزو الدولة وأكبر هذه القبائل الآفار والصقالبة وكذلك كان
يجتهد أن يحفظ السلم بقدر الاستطاعة مع دولة الفرس فكان كلما أثار
أنو شروان عليه حربا دافع جهده ثم رضى بعقد الصلح على اساس دفع
خريبة سنوية تضمن له السلم فلما مات هذا الامبراطور الكبير لم يخلفه
من كان مثله فى الكياسة السياسية ولهذا اشتعلت نيران الحرب على الحدود
الفارسية وفى البلقان فى آن واحد . وكانت حروب فارس اشدها واثقلها على
كاهل الدولة واستمرت ثائرة نحو عشرين سنة بعد موت جستنيان (اى بين
سنة ٥٧٢ - سنة ٥٩٢) ولكن السلم عاد بعد ذلك لظرف خاص وهو
الصداقة التى نشأت بين الامبراطور (موريس) والملك كسرى الثانى بن
هرمزداس ابن انو شروان . على ان الحرب لم تنقطع الا مدة قصيرة فقد ثار
الجند على الامبراطور (موريس) بزعامة (فوكاس) وكان رجلا عاتيا
نجاهلا فقتل الامبراطور (موريس) وتولى مكانه ومنذ ذلك الحين زال سبب
السلم بين الدولتين فتجددت العداوة مرة اخرى ولكن الدولة الرومانية

هذه المرة صدمت صدمة كادت تكون القاضية فان الجيوش الفارسية فتحت كثيرا من بلادها وترعت منها الشام وجزءا كبيرا من آسيا الصغرى ووقفت حيناً على حدود مصر

ثورة هرقل

عند ما رأى كبار الدولة الرومانية ما آل اليه امرها من الضعف على يد ذلك الامبراطور الجبان القاسى (فوكاس) دبوا مؤامرة لتزعه وكان اكبر عامل فيها حاكم شمال افريقيا وهو (هرقل الاكبر) وكانت نتيجة تلك المؤامرة ارسال اسطول من افريقيا الى القسطنطينية بقيادة ابنه (هرقل الأصغر) حتى اذا ما وصل اشترك معه جنود الحرس الامبراطورى . وسارت فى نفس الوقت جيوش من شمال افريقيا الى مصر تشغل من هناك من جنود الدولة حتى لا يستعين بها فوكاس . ونجح التدبير وعزل فوكاس ثم قتله هرقل وتولى مكانه سنة ٦١٠ .

ولم تقف فتوح الفرس فى هذه الاثناء وكذلك لم تقف اغارات القبائل البلقانية ولهذا كان مركز هرقل عند توليته غاية فى الحرج واستمر نحو سنوات يعالج أمر الدفاع وهو عاجز عنه فتوغل الفرس فى آسيا الصغرى حتى صاروا على الضفاف الاسيوية لمرمرة والبوسفور وفتحوا مصر وشددوا آفاق الهجوم من قبل أوروبا على القسطنطينية ولم يبق للدولة الرومانية الا العاصمة وحدها مع شمال افريقيا

ولكن منذ سنة ٦٢٢ نهض هرقل نهضة عجيبة انقلب لها الحال وتبدلت على يديه الدولة الرومانية من ذلها عزا ومن انهزامها انتصارا .

كلمة عن حال دولة الفرس

كان انوشروان ملكا داهية عظيما يقصد الى اضعاف جارته القوية دولة جستنيان وكان كل من العاهلين يقصد الى المحافظة على دولته بكل الوسائل

فكان كل منهما يلتمس الحلفاء من اى ناحية فكان جستينان يحرض من يليه من قبائل العرب (الغساسنة) بالشام على غزو الفرس فى حين ان انوشروان كان يحرض من يليه منهم (المناذرة) على غزو الروم وكان ذهب جستينان يعمل على اثارة الترك ضد الفرس كما كان انوشروان يحرض قبائل البلقان على دولة عدوه .

ومن بين الأقاليم التى كان عليها منذ زمن تنافس شديد بين الدولتين بلاد العرب ولا سيما الجزء الخصب الجنوبي وقد حرض اباطرة الرومان ملك الحبشة المسيحية على فتحها ولما فتحت سر جستينان لذلك ليقاوم نفوذ الفرس هناك ولكى يجعل تجارة البحر الأحمر فى يد حلفاء لا يضررون التجارة الرومانية وقد بقى الحبشان فى اليمين مدة نحو نصف قرن ولكن الفرس لم ينسوا أن وجود الحبشة هناك يقصد به اضعاف نفوذهم فى تلك البلاد مع انها مجدية لا خير يذكر فيها ولهذا أعان انوشروان العرب على طردهم سنة ٥٧٠

ولكن لما مات انوشروان لم يكن خلفه (هرمز داس) مثله فى الكياسة والقوة ولهذا اضطربت شئون فارس ولم تلبث أن قامت عليه الجنود بقيادة بهرام وقتل (هرمز داس) وانقسم الفرس حزبين حزب مع وارث الملك (كسرى الثانى) ابن (هرمز داس) والاخر مع الثوار فاستعان كسرى بالامبراطور الرومانى موريس فاعانه حتى اقره فى ملكه فكانت يداً للامبراطور عنده جعلت سلاماً بين الدولتين مدة حياة موريس ولكن كسرى الثانى كان يطمع فى المجد مثل جده الكبير فلما قامت ثورة فوكاس وقتل موريس اتخذها كسرى سبباً للحرب الطاحنة التى بدأت منذ سنة ٦٠٢ واستمرت كما وصفنا الى ان لم يبق للدولة الرومانية غير العاصمة وشمال افريقيا

مجهود هرقل العظيم

كانت السنوات العشر الاولى من حكم هرقل من اشد السنين التي هزمت بالدولة الرومانية الشرقية فان غزو الفرس الذي بدأ مدة فوكاس لم يقف بعد قتل ذلك الامبراطور القاسى على يد هرقل بل استمرت الاغارات فدخل الفرس مصر واكملوا فتح آسيا الصغرى وصاروا عند بحر مرمرة يخاطبون الجيوش الآقارية التي كانت فى الوقت عينه قد فتحت معظم البلقان والقت الحصار على قسطنطينية . وكاد هرقل نفسه يقع فى يد الآقاريين فى وقت من اوقات تلك الحقبة العظيمة . وهكذا انتهت السياسة الحربية التي بدأها جستنيان بأن تقلص ظل الدولة الرومانية حتى لم يبق لها الا شمال افريقية الغربى على ساحل البحر الأبيض المتوسط ولكن تمكن هرقل بعد هذه السنين العشر ان يصالح جانباً من اعدائه وهم الآقار وعزم على مجاهدة اشد اعدائه وهم الفرس الذين سلبوا الدولة اغنى ارضها واذلوا الديانة المسيحية فى شخصها عند اخذ بيت المقدس اذا استولوا على الآثار المقدسة ومن بينها الصليب

وقد وفق هرقل فى حربه هذه فانه جازف مجازفة المستيئس فأوغل فى قلب الدولة الفارسية تاركا وراءه جيوشها فى آسيا الصغرى والشام ومصر ولكن مخاطرته نجحت كل النجاح فقد كانت الدولة الفارسية فى داخلها مفككة وكانت الأعداء على حدودها الشرقية تهددها فلما اوغلت جنود هرقل فيها لم يستطع كسرى الثانى ان يثبت فأخذ يستدعى جيوشه الموزعة فى الأقاليم التي نزعها من الدولة الرومانية للدفاع عن قلب دولته فلم يجده ذلك بل هزم واضطر للهرب وقتله ابنه شيرويه بعد قليل . وهكذا تم النصر لهرقل سنة ٦٢٧ واقام فى سنة ٦٢٨ مهرجانا عظيما اسمه (مهرجان اعلاء الصليب) ورجع الى الدولة الرومانية جميع مآثر منها من ارضها فى مدة هذه الحرب

القصيرة . ولكن هرقل لم يرجع هذه البلاد لتبقى للرومانيين الى امد طويل فسوف تنزع عنها الى الأبد على يد قوم لم يكن يظن أحد انهم يفعلون ذلك وهم العرب كما سنرى .

آثار الحروب بين فارس والروم .

مما سبق وصفه يمكن أن نقول ان الحرب لم تنقطع بين هاتين الدولتين مدة قرن تقريبا أى بين أول حكم جستنيان سنة ٥٢٨ وبين سنة ٦٢٨

وقد كانت قبل ذلك حروب بين الدولتين ولكن هذه المدة الطويلة كانت حروبها أشد اتقادا وأكثر اتصالا ولم يكن فيها تفوق من احدى الدولتين على الأخرى ولهذا كانت تشور وتلتهب ثم تنتهى على إعادة الأمور الى ما كانت عليه قبل الحرب تقريبا

وقد كان لهذه الحروب المستمرة آثار كبيرة نلخص أكبرها فيما يلي

(١) ضعف خزائن الرومان وفارس على حد سواء واضطرت كل من الدولتين الى اتباع سياسة مالية مرهقة للناس بكثرة الضرائب والضرائب اذا زادت عن المقدار الضرورى المأمون صارت ضارة بالانتاج فعاقبت الزراعة والصناعة والتجارة وسائر مرافق الحياة ومن جهة أخرى فانها تزرع في الناس كره الحكومة وتجعلهم ينصرفون عنها فاذا كان الشعب وطنيا أى انه محكوم بحكومة من أهله مثل الشعب الفارسي تشاقل عن أداء الفروض المطلوبة منه ونفر عن مساعدة حكومته اذا ماألت أزمة بالبلاد وذهبت عنه الثقة بها واما اذا كان الشعب مخالفا للحكام في الجنس كالشعب المصري والشامي مثلا فانه يتمنى زوال دولتهم فاذا ما حلت أزمة كان مساعداً على تلك الحكومة التي أرهقتها وفي كلا الحالين تكون الدولة معرضة لأشد الأخطار في حالة حدوث الأزمات .

(٢) ضعفت قدرة الدولتين بكثرة الحروب وصارت الأموال غير كافية لسد ما ينقص من المعدات ولهذا صارت الجيوش تضعحل في الاستعداد والعدد ولا سيما لأنها في كلا الدولتين لم تكن جيوشاً وطنية بل جنوداً مرتزقة لا تجتمع للدولة إلا مادامت الخزائن فياضة .

(٣) كانت هذه الحروب المستمرة في ذاتها معطلة للتجارة وسائر أبواب الرزق زيادة على ما سبق ذكره من أثر ثقل الضرائب ولهذا كان الناس إذا ضاق بهم الأمر من شدة الحروب وتواصلها تمنوا وقوفها ورغبوا في السلام بأي ثمن ولهذا كان أهل الدولتين عند ما تجددت الحروب بعد ذلك قد ملوا تلك الحال ورغبوا في السلام بأي ثمن ولو كان الخضوع للغزاة المجديدين .

(٤) كانت دولتا الزوم والفرس تستخدمان العرب في حروبهما فكان الروم يستخدمون من جاورهم من العرب الخاضعين للفسانيين وكان الفرس يستخدمون في حروبهم ما يليهم من العرب الخاضعين للمناذرة وكان استمرار الحروب هذه المدة الطويلة داعياً لزيادة أهمية العرب في جيوش الدولتين حتى كان منهم القواد في جيوش الرومان والفرس وأكسبهم ذلك علماً بما في هذه البلاد من اضطراب وضعف وكان ذلك درساً لهم يساعدهم فيما بعد في فتوحهم .

(٥) حدث أثناء هذه الحروب أن الرومانيين شجعوا الحبشة على فتح بلاد اليمن كما مر ثم حاولت الحبشة فتح داخل بلاد العرب فعجزت واستمر ملكها مقتصرًا على بلاد اليمن إلى أن ساعدت فارس في مدة أنوشروان أهل البلاد على طردهم من هناك كما تقدم وكان لذلك أثر عظيم في بلاد العرب فان قلب تلك البلاد الصحراوية الذي كانت مجاهلها دون متناول العالم الخارجي قد اهتز في هذه الحروب وبدأ يتصل بمحوادث العالم وكان هذا الاهتزاز .

مهيتا للشعب العربي للوثوب مع الاسلام الوثبة العظيمة التي لم يذكر التاريخ لها مثيلا .

خلاصة .

من كل ما سبق وصفه يمكن أن ندرك أن الحوادث التي جرت في الشرق الأدنى بين فارس والروم قد مهدت السبيل الى ضعف الدولتين العظيمتين اللتين آلت اليهما أرث مدنية العالم في ذلك الوقت وأعدتهما للوقوع فريسة للمفترس القوي وكان ذلك المفترس القوي على أبواب الدولتين وهو الشعب العربي وقد أثرت فيه هذه الحوادث أيما أثر فكان هو السيد المحتوم للعالم المتفاني الذي قامت له القيامة وحل عليه الفناء .

ورثة العرب مع الاسلام

مقدمة في حالة العرب قبل الاسلام

لم يكن للعرب قبل الاسلام شأن في تاريخ الأمم فقد كانوا قبائل متفرقة ينزلون في شبه جزيرة أكثر أرضها صحارى لا تصلح لأن تكون فيها دولة ولا أن تقوم فيها مدنية وقد اضطرتهم ظروف أرضهم الطبيعية الى أن يكون النضال بينهم شديدا على القليل من موارد الرزق في بلادهم ولهذا كان فيهم صفتان أساسيتان الأولى انهم قوم دائبون على الحرب والنضال فيما بينهم والثانية انهم قوم أهل عصبية وهي الرباط القوي بين الفرد وقبيلته ينصرها وتنصره في كل موطن طلبا للبقاء في النضال والى جانب هاتين الصفتين الاساسيتين كان للعرب صفات ثانوية ناشئة من نظام حياتهم ومن حالة اقليمهم وبيئتهم وكان بعض هذه الصفات حسنا وبعضها سيئا فمن حسناتها انهم كانوا لا يحرصون على المادة بل يبدلون في سبيل العزة فكان الكرم

وعندهم فضيلة والحرص وذيلة كما انهم كانوا يحملون الشهامة وحفظ الجوار يستقبحون الغدر بالجار واخفار الذمة على ان من سيئات صفاتهم اباحة النهب فكان من مفاخرهم الاغارة والحق ان كل رذائلهم وليدة فقر الاقليم . وقد كانوا يبيحون الزواج الكثير ولم يكن عندهم حرص على الفضائل الخلقية وكانوا يبيحون شرب الخمر وتدفعهم المبالغة في الانفة الى اعمال قسوة فظيعة كواد البنات واساءة معاملة الرقيق ولكنهم مع كل هذه الصفات كانوا شعبا حاد الذكاء أكسبتهم الحياة في الصحراء ذات السماء الصافية والجو المعتدل نفوذا في الفكر وقد كانوا مضطرين بحكم نضالهم المستمر الى أن يكونوا أقوياء الملاحظة لهم دقة عظيمة في الاستقراء ليفهموا ما وراء الظاهر من المعاني ومن أثر هذا انهم كانوا أهل دراية باقتفاء الأثر وبالفراسة وأمثالها من وجوه دراسة مظاهر الانسان ودلالاتها .

موارد الرزق في بلاد العرب

ولم تكن بلادهم ذات غنى إذ ان أكثرها لا ينبت نباتا وليس فيه من الخيرات القليل وأكبر وجوه الثروة فيها هي :

(١) الزراعة : القليلة في بلاد اليمن وفي بقاع اخرى قليلة مثل حول المدينة وفي خير واقليم هجر وساحل البحر الأحمر واكثر حاصلات الزراعة عندهم النخيل .

(٢) الرعاية وكانت ضئيلة في الوديان الشمالية والجنوبية ولكنها كانت ذات شأن في الهضبة الوسطى (نجد) حيث كانت الابل النجدية والخيل العربية المشهورة . ولكن لا يكاد يخلو واد في تلك البلاد من وجود حشائش تصلح للرعاية ان كثيراً أو قليلاً ، اللهم الا المفاوز التي لانبات فيها ولا ماء وتلك في الجهات المنخفضة وراء الجبال كالربع الخالي وراء جبال اليمن وصحراء الدهناء في الوهد الشمالي وراء نجد .

(٣) التجارة : وكان لها طريقان الطريق البحري والطريق البري فكان العرب في سفنهم الصغيرة يجتازون باب المندب ذاهبين الى ساحل الهند وافريقيا الشرقية . ويرجعون الى سواحل مصر والى ايلة عند رأس خليج العقبة وكانوا يتجرون بين اليمن والشام على الساحل الغربي حاملين من اليمن بضائع الشرق ومن الشام بضائع الغرب ويخرجون من وراء ذلك بربح اما أجر عملهم اذا كانوا فقراء واما ربح أموالهم اذا كانوا من الأغنياء أصحاب المال .

(٤) الاشتغال بالجندية : وكان ذلك على الاكثر من عمل القبائل التي عند حدود فارس والروم بعضهم ينضم الى لواء واحدة والبعض الى لواء الأخرى .

(٥) موسم الحجاز : كان للحجاز ولا سيما لاهل مكة باب آخر للرزق وهو موسم الحج فقد كان العرب يهبطون تلك المدينة المقدسة منذ القدم يؤدون فيها مناسكهم ويعطون كبار أهل مكة نظير ذلك ضرائب معينة نظير تمكينهم من أداء ذلك الواجب والسماح لهم بالاقامة بين ظهرانيهم والشرب من مائهم الى غير ذلك .

وكانت من ذلك وظائف في أيدي الاسرات الكبرى بمكة مثل حجابة الكعبة والسدانة وسقاية الحاج .

مدنية العرب قبل الاسلام

المدنية المادية : انما تنشأ المدنية في أرض اذا كان بها مايؤهلها لتلك المدنية وأساس كل ذلك أن تكون الارض ذات ثروة وبها مجتمع ينتفع بهذه الثروة ويفيض منه فضلة يبنى منها ما نسميه باثار المدنية ولكن العرب نشأوا في بلاد ذكرنا ما بها من موارد الرزق الضئيلة فليس غريبا أن نقول أن المدنية بمعناها المادي لم توجد في بلاد العرب فمصر مثلا كان بها مدنية مادية هائلة فتقدمت بها الزراعة وما يلزم لها من الآلات والوسائل وتحكم

المصريون في مياه النيل بوسائل فنية راقية وصنعوا أجمل المصنوعات من منسوجات وأثاث ومعادن وبنوا الهياكل الضخمة وزينوها بما لا يجاريهم فيه أمة من أجمل الزينات وأبدعها . وهكذا يقصر بنا القول عن وصف تلك المدنية المادية وكذلك يمكن أن يقال عن مدنية بابل واشور المادية وعن مدنية اليونان والرومان المادية . وكانت ثروة تلك البلاد أول أسس تلك الآثار المادية . فالعرب بطبيعة الحال لم يكن لهم شيء يقاس بثقل تلك الآثار المادية بل كانوا شعباً بدوياً كل آثار المدنية به فطرية تافهة . وكل ما يتعلق بتلك المدنية المادية ويمهد لها السبيل من علوم وفنون جميلة لم يكن للعرب حظ منه كعلم الهندسة وفن البناء والنقوش وصناعة الآنية وغير ذلك

ولئن كان عندهم علوم أو فنون فقد كان موضعها اليمين ومع ذلك فقد كانت في مرتبة غير عالية .

المدنية الفكرية : ولكن العرب لم يكونوا بمعزل عن العالم المتمدين بل كانوا على اتصال به وعلى مقربة منه فلم يكونوا مثل الشعوب البربرية التي أغارت على الدولة الرومانية بل كانوا أعرق اتصالاً بالمدنيات وأقرب داراً . وإذا كانت بلادهم صحراء غير صالحة لأنحاء المدنية المادية فقد كان الشعب العربي شعباً ذكياً صافى الفطرة قوى الملاحظة نبيه العقل ولهذا استطاع أن يقتبس من المدنيات التي حوله شيئاً كثيراً واستطاع أن يوجد لنفسه خزانة خاصة من الثقافة أظهرها في شعره البدوي البسيط . ففي شعر الجاهلية ونثرها وما يروى من أخبار العرب أدبه نجد آثاراً تدل على أنهم فقدوا المادة فأظهروا ما عندهم من قوة عقلية في المظاهر الفكرية . فكلما اننا نهتز إذا رأينا جمال النحت والنقش اليوناني وعظمة الهياكل المصرية كذلك نهتز إذا رأينا الجمال في شعر الشعراء أمثال المنخل اليشكري وبأخذنا جلال قول النابغة الذبياني ولا يسعنا إلا اجلال زهير بن أبي سلمى في تفكيره الهاديء الرزين

وكان أكثر الثقافة في القبائل المجاورة لفارس والشام طبعاً . على أن الثقافة الفكرية لم تقف عند هذا الحد بل أن العرب أخذوا كثيراً من فلسفة الأمم المجاورة فقد وجدت الأديان سبيلاً إلى بلاد العرب بين الديانة اليهودية والديانة المسيحية ومبادئ زردشت الفارسي وقد تسترعى النظر حركة التفكير التي دبت في بلاد العرب قبيل الإسلام وذلك من آثار الهزة العظيمة التي اهتزتها تلك البلاد من جراء حروب الحبشة ثم حروب فارس في اليمن كما مر ذكره . فنجد بين العرب جماعة كثيرة من المفكرين نذكر منهم أمية بن أبي الصلت وورقة ابن نوقل وزيد بن نفيل .

الرأي العام : ولكن هذه الآثار كانت شخصية فما كان هناك في بلاد

العرب مجتمع له رأي عام بالمعنى الموجود في البلاد الأخرى إلا في جهات محدودة مثل مكة أو المدينة مثلاً . وكذلك نجد أنه لم يكن بينهم قانون يخضع له الجميع ويتبعون ما يفرضه عليهم وذلك لما تقدم ذكره من انعدام وجود المجتمع فكان بعض الأفراد يسرون على سنة فاضلة اختياراً ولكن الأثرية كانوا يتبعون في سيرتهم ما تمليه عليهم عصبية القبيلة أو الهوى الشخصي . وكان ذلك يجر إلى كثير من الظلم والسوء في الحياة

رسول الله

إن نواحى الكلام في رسول الله صلى الله عليه وسلم متشعبة ولا يتسع مثل هذا المجال الضيق للأفاضة ولهذا سنقتصر على الكلام في تاريخه من جهة واحدة وهي تأسيس الدولة العربية الإسلامية :

ورسول الله من هذه الناحية شخصية تاريخية مجيدة بل هي أكبر شخصية تحدثت عنها الأخبار المجردة التي لا تحيز فيها فقد أوجد دولة سارت الدهر وبعث بدين لا يزال مثلاً عالياً للطهارة والصلاح . ومنذ

تأسست الدولة العربية صارت عنصراً عظيماً من العناصر التاريخية ، بل
لقد صارت في وقت ما الدولة الكبرى التي ورثت تراث المدنيات القديمة .
وزادت عليه وسامته للدول الحديثة اتباعاً لسنة الكون من تعاقب الدول
وتداول المدنيات بين الشعوب .

وان من الحق علينا أن نعرف شيئاً ولو مجملًا عن شخصية الرجل العظيم
والنبي الكريم الذي أحدث كل ذلك الأثر .

ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب حوالي سنة ٥٧٠ ميلادية في أواخر حكم
الملك الفارسي الكبير (كسرى انوشروان) وقد مات أبوه وما زالت أمه
حاملًا به فلما ولد صار في حجر جده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن
قصي . وكان عبد المطلب في ذلك الوقت زعيم قريش وهم أكثر سكان مكة .
وما حولها يجتمعون في جد واحد وهو قصي .

وقد كان لعبد المطلب هذا مواقف في تاريخ قريش فقد كان زعيمهم
عند ما أغارت جيوش الحبشة على مكة فدبر حيلة لقومه وهي الخروج عن
المدينة من وجه العدو حتى طال عليهم الزمن هناك في صحرائها وهم غير معودين .
الحياة في مثل مناخها ففعل بهم حرها وفتك بهم المرض وأضر بهم الجوع .
وكان عبد المطلب بين حين وآخر يهبط عليهم بقومه من الجبال فيحدث
فيهم فشلاً ويزعجهم حتى اضطروا للعودة وترك فكرة فتح البلاد

ولما ساعد كسرى اليمين على الثورة ضد الحبشة وتولى زعيم اليمين سيف
ابن ذي يزن والياً تحت حماية الفرس كان عبد المطلب رئيس وفد قريش
الذاهب لتهنئته . وقد بقي محمد مدة في البادية مع ظئره على عادة أشراف مكة .
اذ ذاك حتى خيف عليه فرد إلى أهله وقد ماتت أمه ولا يزال طفلاً صغيراً
فزادت عناية جده به حتى كان يطلق عليه اسم « ابني » كأنه وحيد . وقد
بدرت منه في طفولته أمور تنبئ بعظم نفسه حتى كان جده يقول عنه « أنه
ليأنس في نفسه ملكاً »

ولكن جده توفي وهو صبي في نحو الثامنة أو التاسعة ، فكفله عمه .
أبو طالب وكان تاجرا وانتقلت اليه زعامة قريش بعد عبد المطلب
وكان أبو طالب يستصحب محمدا في بعض أسفاره الى الشام وكان محمدا
كلما شب ظهرت فيه من الصفات ما جعلت كل من عرفه يتوسم فيه العظمة .
فكان شديد الاحساس قوى العاطفة غير ميال من صغره الى اللهو . نظيفا
عفيفا في كل شيء من لبس وأكل وقول

وكان قوى الجسم منذ صغره جميل الصورة حسن الهيئة وقد عمل في
التجارة لما صار شابا ، وعرف بالأمانة حتى أن سيدة من أغنى سيدات قريش
وأعلاهن نسباً وأحسنهن جمالا وأعفهن جملة مضاربا لها في التجارة ولما
رأت أمانته وكرم نفسه عرضت نفسها عليه ليتزوجها وكان سنه إذ ذاك
نحو خمس وعشرين سنة وكانت هي في نحو الأربعين ، ومنذ تزوجها
استغنى عن العمل وانصرف الى حياة التفكير والتأمل التي أعدته لتحمل
الأمانة العظيمة التي القاها الله عليه ، وفي هذه المدة كان خلقه يتم ونفسه
تزيد طهارة وعلاوا حتى انه سمي بين الناس بالأمين ، وكانت عادته في
هذه المدة ان يكثر من الاختلاء بنفسه ولا سما في غار حراء في خارج مكة
حيث كان يذهب بقليل من الأكل البسيط كخبز الشعير والزيت فيقيم مدة
قد تكون اياما قلائل وقد تكون اسبوعا أو اكثر من ذلك فتكون شهرا
وكانت السيدة خديجة أحيانا تخرج معه وأحيانا يخرج وحده

ولما بلغ سن الأربعين اختاره الله لحمل رسالته الى الناس (ويوافق
ذلك سنة ٦١٠ ميلادية) فلما قلبه شعورا بواجب الدعوة الى المثل الأعلى
من الخلق والتدين ، وكان يراجع نفسه حذرا ما قد يجره ذلك من الآلام
لرجل مثله شديد الاحساس محب للمسألة ولكن ارادة الله كانت ونزل اليه
الوحي وأوله آية (اقرأ باسم ربك الذي خلق الانسان من علق الخ)

ثم فتر عنه الوحي مدة وعاد اليه وكلف بالدعوة اذ نزلت عليه الآية « يا أيها المدثر قم فأنذر الخ ».

وقد بدأ دعوته الى الناس سرا فآمن به أقرب الناس اليه العارفين بما كان عليه من الصدق والاثمانية وسموا الخلق . فآمنت به خديجة وأبو بكر . وعلى بن أبي طالب وقليل غيرهم ، ولبت سنين يؤدي الاثمانية ويدعو الى المثل الأعلى وكانت الآيات التي يكلف بتبليغها للناس تدعو الناس الى التفكير في خلق السموات والارض وفي نعم الله على الناس وفي بيان محاسن الخلق والحض على المكارم ولكن قوما من أهل مكة كانوا يرونه جاء بشيء جديد وخافوا أن يكون طامعا في رئاسة ينزعها منهم وحسده جماعة منهم كأبي جهل ، الفظ الطاغية ، وأبي لهب عمه فجعلوا يؤذونه بالكذب ويرمونهم بالسحر والجنون وهو صابر على الأذى معرض عنهم تكريما ، دائب على القيام بواجبه مهما تكلف في سبيله من المشقة .

وقد امتحن أشد امتحان إذ فقد في سنة واحدة عمه أبا طالب الذي كان يحميه وزوجته خديجة التي كان لها أكبر الفضل في تعزيتة ومواساته فيما كان يصاب به من قومه .

وقد عرض عليه قومه قبيل وفاة أبي طالب أن يعطوه ما أراد من مادة الدنيا والسلطان اذا هو كف عن نشر دينه فابي أن يأخذ رشوة على ترك ما كلف القيام به من الإصلاح وحرص على أن يبلغ رسالته ولوناله في سبيل ذلك أكبر مكروه . ومنذ مات أبو طالب جهد القرشيون أن يخضعوه بالاضطهاد والأذى ، ولكن الله وهبه نفسا كبيرة وقوة شخصية كانت تحميه من الاعتداء^(١) اذ فقد الحامي وأدبا عاليا كان يشعر المعتدين عليه بالخجل عند اعتدائهم الذي لا يقابله الا بالموعظة وبيان مكارم الخلق^(٢) . وأخيرا اعتز

(١) تدل على ذلك وقائع كثيرة مثل واقعة مطالبة أبي جهل بالدين الذي عليه للاعرابي

(٢) تدل على ذلك وقائع كثيرة مثل واقعة حيرانه إذ رموا عند باب الوساخ وورده عليهم

الاسلام بدخول عمه حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب فيه . وكان
لاسلامهما وقع عظيم على القرشيين لشجاعتهم واشدتهم في نصرته ما يريانه حقا
ولما رأى الرسول قلة من يتبع النصيح من قريش عزم على نشر الاسلام
خارج مكة ، وأذن لأصحابه أن يهاجروا الى الحبشة حتى لا يصل أذى أهل
مكة اليهم وقد امتحن الرسول امتحانا شديدا في أول الأمر اذ صدم في الطائف
وفي بعض المواسم ولكنه واصل السعي الى أداء الواجب حتى ظهر أول
ثمر الفتح وذلك أنه عرض الاسلام في موسم الحج على نفر قليل من أهل
يثرب وكانوا ستة أو سبعة فوجد منهم قبولاً وفي العام الذي يليه عاد
هؤلاء وقد قبل الدعوة معهم نفر سواهم فاسلم في ذلك الموسم اثنا عشر رجلاً
وامرأتان ويسمى اتفاقهم مع الرسول على الاسلام ببيعة النساء اذ بايعوه
أي اتفقوا معه على الشروط التي كان الاسلام يطلبها من النساء عند اسلامهن
وهي قواعد الاخلاق الأولى بغير تكليف بنشر الدين بالقوة وفي مدة العام
الذي يلي ذلك انتشر الاسلام في يثرب انتشاراً كبيراً حتى بلغ عدد من
قدم مكة من المسلمين في الموسم التالي نحو السبعين بين رجل وامرأة وقد
أرسلوا للرسول سرا يدعونه للاتفاق معهم رجاء الخروج من مكة اليهم ليعيش
بينهم وينصروه

وقد خرج اليهم الرسول ليلاً ومعه عمه العباس وكان لا يزال على دين
قريش ولكنه خرج معه عصبية ليحميه وليستوثق له من أهل يثرب وقد
أطمأن الرسول وعمه العباس الى مبايعة أهل يثرب وكانت على أن يخرج
اليهم وانهم يحمونه من كل ما يحمون منه نساءهم وأطفالهم وأموالهم . ومن
ذلك الوقت يمكن أن نقول أن الاسلام اتخذ مجرى جديداً فان الرسول
عزم على الخروج من مكة لكي يظهر أمر الله على رغم قريش
ولم يكن من الغريب أن تسمع قريش بذلك الاتفاق مع أنه كان ليلاً

وفي السر مع شديد الاحتفاظ والاحتياط وقد كانوا يتوقعون أن محمدا لا بد
يسعى للخروج من بينهم وقد عرفوا أنه اذا خرج من مكة وجد نصرا من
غيرهم فلا يلبث أن يعلموا أمره ويظهر دين الله برغمهم فتواعدوا وتشاوروا
فيما بينهم حتى استقر الرأي بينهم على قتله (١) ولكن أراد الله ان ينجي الرسول
من كيدهم فعرف بما عزموا عليه ودبر خطة محكمة للنجاة منهم وساعده الله
كي يتم أمره كما سيأتي

الهجرة : كان الرسول منذ رأى اشتداد الامر بأصحابه قد أمرهم بالنجاة
بأنفسهم خوف أن يفتنوا عن اسلامهم وقد ذكرنا أمرهم بالهجرة الى الحبشة
وقد هاجر جماعات من المسلمين الى هناك مرتين ومنذ اتفق الرسول مع أهل
يثرب أمر المسلمين بالذهاب الى هناك فجعلوا يذهبون بعضهم خفية وبعضهم
علانية وكانت للهجرة مظاهر مجيدة تدل على ما كان في قلوب المسلمين
الاوائل من الايمان والشجاعة والاستهانة بقوة اعدائهم المادية (٢) ولكن
الرسول نفسه انتظر الى آخر الامر شأن القائد الاثمين والزعيم النبيل وهو
فوق ذلك الوصف كله . وكان قد أمر ابا بكر الصديق أن يبقى ليكون معه
في الهجرة فاستعد ابو بكر لذلك بشراء الابل واعداد الدليل وغير ذلك

فلما كانت ليلة مؤامرة القرشين خرج الرسول ليلا من ظهر منزله ولم
يره الارصاد الموكل اليهم أمر مراقبته في داره وترك عليا وهو شاب صغير
راقدا في مكانه مسجى بغطائه وقد رضى على بذلك راغبا مسرورا لعلمه
أنه انما يؤدي واجبه ولو عرض حياته للموت

(١) اتفقوا على أن يختاروا عشرة فتيان من قبائل مختلفة من قريش فاذا قتلوه
لم يستطع بنو هاشم أن يقفوا لکل تلك القبائل فيقبلوا عنه الدية

(٢) كما تدل عليه هجرة حمزة وعمر وصهيب وما أظهر هؤلاء من شدة الجنان
والثبات أمام عدوهم الكثير العدد

وذهب الرسول الى منزل ابي بكر ومن هناك خرجا معا من مكة ولم يرها أحد وما زالا سائرين حتى بلغا غارا في جبل بجوار مكة فأقاما فيه ثلاثة أيام عالين أن أهل مكة سيرسلون وراءهما في طلبهما عند ما يعلمون بهجرتهما وقد أراد الله أن يستترهما ذلك الغار ولم يهتد اليهما فيه من أرسل وراءهما وبعد الايام الثلاثة خرجا من الغار وجاء اليهما الدليل الذي استأجره أبو بكر ومعه الرواحل ومن هناك ساروا نحو يثرب ولم يحدث لهما حادث يستحق الذكر بعد ذلك الا أن لحق بهم رجل اسمه سراقه ولكنه أراد الله أن ينجيهم منه فعاد ولم يجرأ على أن يؤذيهم

ولما بلغوا يثرب وجدوا أهلها خارجين فرحين منتظرين قدوم الرسول عليهم ومعهم النسوة يغنين ويضربن بالدفوف الايات المشهورة

« طلع البدر علينا من ثنيات الوداع » الخ الخ

وقد أظهر أهل يثرب من الكرم ما لا نظير له اذ آووا المهاجرين حتى بيوتهم وشاطروهم أموالهم راضين فرحين ولم يكره قدوم الرسول الا جماعة ممن في قلوبهم مرض مثل عبد الله ابن ابي بن سلول وهؤلاء كرهوا قدوم الرسول اذ ظنوا أنه سلبهم الرياسة التي كانوا يحرصون عليها في يثرب ولكن حكمة الرسول كانت أوسع من كيدهم فكان مع علمه بكرههم يتألف قلوبهم ولا يجازي اساءتهم الا بالاحسان والارشاد (وتوافق الهجرة سنة ٦٢٢ ميلادية)

طريق الاسلام الجديدة بعد الهجرة

كان سيدنا الرسول مكلفاً بتبليغ العالم رسالة الاسلام والتبليغ انما يكون بالطريق الطبيعية لان الله انما اختار بشرا لاداء ذلك الواجب ولا شك أن الناس أنواع فمنهم صاحب العقل والبصر الذي يرى الحق فيتبعه

وهؤلاء هم الاخيار الابرار الذين يكونون دائماً في المرتبة الاولى من البشرية ومن الناس المقلدون وهؤلاء الا كثرون وليس في طباعهم حب الشر ولكنهم لا يسمون الى مرتبة أصحاب العقل والبصر ومن الناس أشرار أصحاب مطامع يضحون بكل شيء في سبيل مطامعهم ولو كان ما يضحون به خيراً الانسانية كلها . والرسول الصادق المكلف بابلاغ دعوة الخير يدعو أولاً بالعقل والبصر فيتبعه الاخيار ويؤمنون به رغبة فيما يدعو اليه من الخير واما الدهماء من العامة فلا يميلون الا الى من رجحت كفته واما الاشرار فلا أمل في اجابتهم دعوة الخير ولذلك كان من الطبيعي المحتوم أن يأخذ الرسول دعوته في يمينه ويهز الدهماء همزاً قوياً حتى يروا أنه هو الصالح وهو الوارث وهو القوى وان كفته هي الراجحة فيميلون الى حقه بعد أن يروا بأسه وفي نفس الوقت لابد أن يشعر الاشرار أن الخير أقوى منهم وأن العاقبة لاهله الصالحين . والهجرة هي الحد الفاصل بين الدور الاول الذي دعا فيه الرسول من له عقل وبصر بالحكمة والموعظة والمجادلة بالحسنى فلما أن حصل على ايمان هؤلاء لم يكن بد من السيف والقوة ليرغم من عداهم على اتباع الخير ويدلهم ولو كرهوا على ما فيه صلاحهم .

وقد بدأ الرسول بالاستعداد للجهاد منذ ترك المدينة ففضى العام الاول في درس الاقليم الذي حول المدينة وبدأ يشمر القرشيين أنه سيأخذهم بقوة الله ولكن الاصطدام العظيم لم يحدث الا في العام الثاني للهجرة في موقعة (بدر الكبرى)

موقعة بدر الكبرى

كان الرسول عالماً ان دهماء أهل مكة وأهل الأغراض فيها لا يمكن أن ينصاعوا لغير القوة ولكنه مع ذلك أحب أن يبعد القتال ما استطاع ولعله كان يريد أن يضايق تجارتهم اذ كانت يثرب على الطريق المؤدية الى الشام ولعله .

كان يريد من ولاء مضايقة التجارة ان يشعرهم بان مصلحتهم في الاتفاق معه وكانت شروطه معروفة وهى اتباع فضائل الاسلام وتلك فضائل ما كان لعقل ان يهرب منها أو يرغب على اتباعها ولكن جماعة من أهل المطامع خشوا على سلطانهم ان يهدده الاتفاق فكانوا يثيرون الأحقاد في قلوب العامة بالأكاذيب . فأحب الرسول أن يشعرهم خوفاً أكبر من ذلك فعزم على أن يهبط على غيرهم التى تحمل التجارة وفيها أودعت أموال أغنياء قريش . فرصد لها في وادى بدر في الجنوب الغربى من يثرب ينتظر عودتها من الشام وكان رئيسها أبو سفيان فشعر أبو سفيان ان الرسول رصد له فأرسل الى أهل مكة يطلب منهم النجدة وينذرهم ان أموالهم في خطر من الضياع وان المسلمين راصدون ليغنموها واحتال حتى بعد عن يثرب ونجا بالغير ونفر القرشيون وخرج جيش فيه أكبرهم فى نحو ألف رجل وكان الرسول فى نحو ثلثمائة . وكان جيشه مع ذلك قليل الرواحل ولم يكن معهم خيل الا واحداً أو اثنين ولم يرد الرسول حرباً ولكن القرشيين أصرروا على ان يقضوا على الاسلام كما زعموا فاضطر سيدنا الرسول ان يحارب وكانت شجاعة هذه الفئة القليلة هي الغالبة على كثرة العدد والعدد وظهر فى تلك الموقعة ثبات المسلمين واقدامهم على الشهادة وظهر من كريم صفات سيدنا الرسول ما هو أهله . وأحرز المسلمون نصراً عظيماً دل على ان العاقبة لهم لا محالة . وقد وفقهم الله الى النصر فى قتال لم يقصدوه عند خروجهم من يثرب . انتقام أهل مكة — موقعة أحد .

ما كاد يخلو بيت من بيوت مكة بعد موقعة بدر من نائحة على قتيل ولهذا أجمع السادة والأغنياء على التعاون فيما بينهم ليستعدوا للانتقام قاصدين ان يذهبوا الى يثرب ويستأصلوا المسلمين فاجتمع منهم نحو ثلاثة آلاف وساروا فى العام التالى الى أن بلغوا جبل أحد فى الشمال الشرقى من المدينة وذلك فى السنة الثالثة من الهجرة .

وكان بين المسلمين رأيان أحدهما ان يخرجوا ليقابلوهم خارج المدينة والثانى ان يبقوا فى داخلها وينتظروا هجومهم فيردوهم عنها . وقد ساد رأى الأول محافظة على كرامة أهل يثرب . وخرج الرسول الى أحد ليقابل القرشيين وحدث فى أثناء ذلك حادثان . الأول ان جماعة من أصحاب المطاعم ورؤيسهم عبدالله بن أبى بن سلول انشقوا عن المسلمين ورجعوا فى الطريق . والثانى انه كان فى جوار يثرب محلات لليهود وكانوا على عهد مع الرسول فبدأ الرسول يلاحظ عليهم بعض الغدر والميل الى العدو منذ ذلك الوقت وكانت موقعة أحد ثلاثة أدوار الدور الأول وفيه انتصر المسلمون انتصارا عظيما حتى وصل أبطالهم الى ظهر جيش القرشيين وبلغوا مكان نساءهم اللاتى كن معهم يحرضن على القتال .

والدور الثانى وأصيب فيه المسلمون اصابة كبرى وسببها ان الرماة الذين أمرهم الرسول بالبقاء على سفح الجبل ليمنعوا خيل العدو ان تأتيهم من خلفهم لما رأوا انتصار المسلمين تركوا أما كنهم فانتهز فرسان قريش الفرصة وأثأوا للمسلمين من الخلف وأصابوهم اصابة عنيفة حتى ان سيدنا الرسول نفسه جرح وأشيع انه قتل وتفرق الناس ووقع فى صفوفهم اضطراب .

والدور الثالث وفيه تشجع أبطال المسلمين وعزموا على النضال وزادهم ثباتا انهم عرفوا ان الرسول لم يقتل . فاضطر القرشيون ان يكفوا عن القتال بعد ان قتل نحو السبعين من المسلمين وقد اعتبر القرشيون ذلك نصرا لهم ولكن المسلمين لم تخر عزيمتهم بل كانت نفوسهم عالية وردوا على فخر ابى سفيان ردا قويا (١)

وقد كان خوف القرشيين من تجديد الاصطدام بالمسلمين أكبر مايدل

(١) قال أبو سفيان مفاخرأ مقالة طويلة جاء فيها « نعمت فعال . والحرب سجال يوم يوم بدر » فرد عليه عمر قائلا « لاسواء قتلتنا فى الجنة وقتلاكم فى النار »

على أن إحدا لم تكن هزيمة بالمعنى المعروف فانهم رجعوا الى مكة ولم يجرأوا على أن يمسوا المدينة بسوء . وقد أظهر الرسول شدة بأس المسلمين وعلو عزيمتهم بأنه تبع القرشيين الى مسافة طويلة جنوب يثرب فلم يستطع القرشيون أن يعودوا للاصطدام معه بل ساروا في طريقهم إلى مكة ينتظرون فرصة أخرى لاستئصال الاسلام .

الآزمة الكبرى — غزوة الخندق

استعد القرشيون هذه المرة استعداداً لم يسبق مثله لمدينة صغيرة في مثل صحراء العرب أن تستعده وجمعوا اليهم حلفاءهم من القبائل الضاربة حول مكة وصارت عدة جيشهم نحو خمسة آلاف رجل وذلك في السنة الخامسة من الهجرة . ولم يتردد المسلمون هذه المرة بل رأوا الاقامة في يثرب والدفاع عنها واقترح سلمان الفارسي أحد الصحابة على الرسول أن يحفر المسلمون خندقاً في جانب المدينة الذي يمكن للجيش المغير ان يدخل منه فأنفذ الرسول ذلك الرأي وعمل بنفسه مع المسلمين حتى أتم الخندق فما اتى أهل مكة حتى رأوا مكيدة لم يسبق لهم عهد بها، وقد جاءوا طامعين في صدمة سريعة يرجعون بها مؤملين الفوز لكثرة عددهم فخاب أملهم واستطالت بهم مدة الحصار وهم لا يستطيعون الوصول الى المسلمين بحال من الاحوال ولم يحدث قتال الا قليلاً لا يكاد يذكر وكان لطول المدة أثر سيء في الجيش المغير ولا سيما الحلفاء فانهم لم يأتوا ليقيموا مع حلفائهم مدة طويلة وخصوصاً ولم يحدث القتال الذي جاءوا له . وقد حارب الرسول بالمكيدة هذه المرة فانه أرسل من المسلمين فتى ليبدأ فطنا أوقع بين الحلفاء وقريش سوء الظن ، ثم ساعد نفاذ المؤمن مع طول مدة الحصار على رغبة المقاتلين في الرجوع . وساعد على خذلان القرشيين أن اشتد البرد وهبت الرياح فكانت تكفأ القدور على النيران

ولا يقدر الناس على الوقوف من شدة عصف الريح والبرد . وهكذا اضطر المحاصرون أن يعودوا خائبين . وكان هذا نصراً بغير قتال ولكنه كان نصراً عظيماً . لأن قريشاً لم تستطع بعده أن تستعد للهجوم إذ أنها رمت بأسلحتهم في كسائنها .

تنفس المسلمون إذ فرج الله عنهم تلك الكربة الشديدة وقد رأى الرسول أثناء الحصار ما كان من خطر اليهود المقيمين بالمدينة وحولها . فأنهم كانوا أثناء الحصار يظنون الدائرة تدور على المسلمين فجعلوا ينقضون العهد فعلاً ويعينون على المسلمين حتى اشتد الأمر على المسلمين من الخارج ومن الداخل . ولهذا أخذ الرسول يشتد في سياسته معهم شدة كبرى (١)

الاسلام يتخذ خطة الهجوم

لم يكن الاسلام الى ذلك الحين مهاجماً — فانما قصد الرسول في بدر أن يرغم القرشيين على الاتفاق معه بأخذ أموالهم وحدثت الموقعة بغير أن يريدوها . ثم هوجم المسلمون في أحد وفي الخندق ولكن منذ العام السادس من الهجرة رأى المسلمون أنه لن يرجع أهل مكة ولن يسلموا الا اذا غزوا في بلادهم وقهروا بالقوة فبدأ الرسول يعمل على تأمين المدينة أولاً ممن حولها من اليهود حتى لا يكونوا وراءه يتمكنون من ظهره . وفي نفس الوقت والى المسلمون التقدم نحو مكة وقد أحب الرسول ان يسالم أهل مكة الى آخر ما في استطاعته فذهب في العام السادس للهجرة حاجاً ولكن القرشيين أبوا ان يدخلوه مكة ولو حاجاً فكسب الرسول بذلك عطف العرب المحايدين . لأن الحج في نظر الجميع فريضة دينية يجب ألا يمنع منها أحد ولكن القرشيين

(١) كان الرسول يقنع باجلاء اليهود عن المدينة أولاً عند ما رأى من قلة وفائهم فلما رأى خيانتهم فعلاً عند الحصار عاقبهم عقاباً صارماً فقتل المحاربين منهم وجعل الذراري والنساء والأموال سبياً للمسلمين

اتفقوا معه على عقد هدنة لمدة عشر سنين على أن يباح له الدخول الى مكة في العام المقبل وتسمى هذه بغزوة (الحديبية) نسبة للمكان الذي حدثت فيه المعاهدة . وفي العام السابع دخل الرسول مكة حاجا مع المسلمين وخرج له القرشيون منها حتى حج فكان هذا نصرا أدبيا عظيما — ثم أن القرشيين نقضوا العهد اذ قتلوا أحد حلفاء المسلمين فلم يأمن الرسول الى عهدهم وعول على أخذ الأمر كله في يده . وفي العام الثامن تجهز لدخول مكة

فتح مكة

كان الاسلام بعد موقعة الخندق وفشل القرشيين فيها ينتشر انتشارا سريعا بين العرب فقد بدأ العامة يرون بأس المسلمين وتسامعوا بفوزهم وجعلهم هذا يفتحون آذانهم لدعوة الاسلام فيجدون أنها دعوة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتأمر بالعدل والفضيلة وتنهى عن الظلم والرياسة وهكذا جعل الناس يفتدون أفواجا ويدخلون في الاسلام طائعين ولما عزم الرسول على فتح مكة كان جيشه ينيف على عشرة آلاف رجل وكان للرسول فيهم كتيبة من الانصار والمهاجرين كان يطلق عليها اسم الكتيبة الخضراء لكثرة ما على رجالها من الدروع والسلاح .

ولما سمع القرشيون بمسير الرسول اليهم وعلموا بكثرة عدد المسلمين خرج قادتهم ليسلموا عالمين أن من أسلم لم ينله أذى . وكان أبو سفيان فيمن خرج ليسلم وهو الذي آلت اليه رئاسة قريش في ذلك الوقت وفرح الرسول بحقق الدماء وأرسل يؤمن الناس ويحرضهم على وضع السلاح وجعل كل من دخل داره آمنا وكذلك آمن كل من لجأ الى دار جماعة منهم أبو سفيان وكل من دخل الكعبة . وقد قصد بذلك تأليف قلوب الرؤساء أمثال أبي سفيان علما منه أن في قلوبهم شيء من الكره له لا يزال باقيا .

وبذلك دخلت الجيوش الاسلامية مكة بغير حرب تقريبا وكان الرسول

راكباً على جمل وهو خاشع خشوعاً عظيماً في ذلك النصر الذي أولاه الله منذ كراً كيف خرج من مكة خائفاً منذ ثمان سنوات وكيف يعيده الله اليها منتصراً وقد علا الدين ودانت له الناس . وقد عفا عن كل من كان قد أجرم ولم يعاقب أحداً بجريرة الجماعة كانت لهم جرائم ذنيئة وهؤلاء لم يعاقبهم بأكثر من النفي من مكة .

وكان من هؤلاء عبد الله بن أبي سرح ووحشى قاتل حمزة بن عبد المطلب

الاسلام بعد الفتح

بعد فتح مكة لم يكد يكون خارجاً عن الاسلام الا قليل في بلاد العرب وقد زال تردد المترددين عن الاسلام بانتصار جديد في غزوة حنين بقرب الطائف أخضع المسلمون فيها القبائل القوية الضاربة في الجنوب والشرق من مكة (وهي هوازن وثقيف) .

وعقب ذلك زاد توارد الوفود مسلمين خاضعين لسيدنا الرسول وكان يرسل اليهم من يعلمهم الدين ويقضى بينهم ومن يجمع منهم الزكاة ومن ذلك يمكن القول أن سيدنا الرسول بدأ يكون في جزيرة العرب دولة على أساس الاسلام . ولكنه لم يكن مرسلاً للعرب وحدهم وكان من قبل قد أرسل كتباً الى الملوك والحكام في البلاد المجاورة فبعضهم أجاب اجابة حسنة وبعضهم تولى كبره وأغلظ في الجواب ورأى الرسول أن يبين للعرب الطريق لنشر الاسلام في غير بلاد العرب ولكنه كان عالماً بما في ذلك من مشقة لان أقرب الدول اليه دولتا الرومان والفرس . وما دولتا الرومان والفرس . انهما كانتا دولتي العالم اللتين آلت اليهما المدنية واللتين كانتا صاحبتى الجيوش الجرارة والاموال الطائلة ولم يكن عند العرب بعد علم بأساليب حروبهم فجعل الرسول يبين طريق الفتح ولكن في حذر وتريث مكتفياً بأن يجرىء

العرب على الاتجاه في هذه الوجهة خوف أن تمنعهم رهبة تلك الدول من محاولة نشر الاسلام فيها وكانت أولى تلك البعثات هي التي اصطدم فيها العرب بجيوش الحدود الرومانية في غزوتي مؤتة وتبوك .

ولكن تلك الصدمات لم تكن حروبا مع تلك الدول العظمى بالمعنى المعروف ولم يقصد بها أن تكون كذلك . وكان الرسول دأباً في ذلك القصد يجهز حملة ثلاثة لنفس الغرض وقد توفي قبل أن ينفذها. ولكن العرب لم ينسوا أنه أشار لهم الى الطريق التي يسلكونها ولم يترددوا في المسارعة الى السير حيث أشار . وتوافق وفاة الرسول سنة ٦٣٢ ميلادية

الدولة الاسلامية بعد وفاة سيدنا الرسول

ضم الاسلام قبائل العرب وجعل منهم كتلة واحدة وهم قوم بدو لهم فضائل البداوة وما فيها من صفات الخشونة وتحمل الشدائد والشجاعة فكانوا قوماً صالحين للفوز في النضال اذا ما دخلوا في نضال مع دولة من الدول التي رمتها المدنية بمفاسدها وذهب الترف والاطمئنان بما في نفوسها من صلابة الرجولة . وكان العرب من قبل لا ذكر لهم في تاريخ الامم اذ كانوا قبائل مفرقة فاما وقد اجتمعوا على دولة راسية الاساس يؤمنون بدينهم ايماناً صادقاً ويرون الجنة في الشهادة ويقبلون على الموت كحرص غيرهم على الحياة ، فقد كان محتوماً أن يكون لهم في العالم اثر عظيم وها هم يبدأون سيرتهم منذ سنة ٦٣٣ أي بعد وفاة الرسول بأقل من عام .

وقد بينا ما كان حال الدولتين اللتين كانتا على رأس العالم المتمدين وهما دولتا الفرس والرومان وكان لا بد من أن أول اصطدم بين العرب والعالم يكون مع هاتين الدولتين وسنرى ما كان من ذلك وهو أعجوبة من أعاجيب التاريخ تتمثل فيها كيف يقضى على الدول الضعيفة الفانية اذا ما هزتها دولة

فتية صالحة للبقاء . غير أن العرب اضطروا للانتظار عاماً بعد وفاة الرسول وذلك من جراء الهزة العظيمة التي أصابتهم عند ذلك كما سنرى .

الخلافة

لم يسبق في بلاد العرب قبل الإسلام في عصر من العصور المعروفة في تاريخها أن خضعت قبائلها للحكومة واحدة وهذا من اثر ظروفها الطبيعية التي سبقت الإشارة اليها فليس عجيباً أن يكون العرب غير عارفين بنظم الحكومات ولهذا يكون من الطبيعي أن يبدأ العرب بعد وفاة سيدنا الرسول في الابتكار ليقموا حكومة جديدة في بلادهم مجتهدين في نظامها بحسب ما يمليه عليهم عقلمهم ويصوره لهم حسن تصرفهم ، لا سيما وأن القرآن لا يشير الى نوع الحكومة الإسلامية فهو لا يتعرض الا للمبادئ العامة وأصول الحكم بطريق فلسفي نظري . وكذلك لم يشر الرسول للعرب أن يتبعوا طريقاً معينة في حكومتهم بل تركهم عمداً ليجتهدوا لأنفسهم بحسب ما تقتضيه ظروف العصور المختلفة

وسنرى في تاريخ العرب أنهم كانوا يجربون ويحاولون أن يقيموا نظاماً يليق بهم وبأحوالهم غير أنهم اتفقوا على شيء واحد كان من الطبيعي لهم أن يتفقوا عليه وهو أن يجعلوا أحدهم في مكان الزعامة الذي خلا بوفاة سيدنا الرسول وأطلقوا عليه لقب « خليفة رسول الله »

الخلافة الأولى — دور الجمهورية

في أثناء الاضطراب العظيم الذي هز بلاد العرب عند سماعهم بوفاة الرسول رأى أقرب الصحابة للرسول أن يزيلوا الخلاف ويسارعوا الى البت في اختيار زعيم ممن يرضاه الناس متوقعين حدوث حوادث جلية يخشى على حياة دولتهم الجديدة اذا هم لم يبتوا في ذلك الامر بغير تراخ ولم يصعب عليهم أن يجدوا ذلك الزعيم المرضى واستعملوا أعظم ما يمكن من الحكمة ليقبلوا من

اتساع دائرة الخلاف و ثم اختيار أبي بكر الصديق بغير صعوبة تذكر. رشححه
عمر بن الخطاب ورضى به الا كثرون من الحاضرين راغبين فيمكن أن يعتبر
انتخابه عاماولو أنه لم يشترك فيه الا عدد محدود من العرب وهم الذين كانوا
في المدينة عند وفاة الرسول

أبو بكر

كان ابو بكر من تلك الشخصيات العظيمة التي يندرج وجود مثلها في التاريخ
فكان يجمع بين مضاء العزيمة وصدق الإرادة والصلابة في الحق وبين أعلى
مراتب الوداعة والزهد ولين الجانب وكرم النفس . وكان محبوبا عند المسلمين
وهذا من أكبر ما أزال عن الدولة الاسلامية خطر الانهدام ونظرا لما تم على
أيدي أبي بكر نستطيع أن نسميه المؤسس الثاني للدولة الاسلامية، فالحق أن تلك
الدولة أحاطت بها أشد الاخطار وتحركت فيها عوامل التفرق الطبيعية في
بلاد كبلاد العرب ونلخص أكبر هذه الاخطار فيما يلي

(١) المنافسة بين أهل مكة (المهاجرين) وأهل المدينة (الانصار) حتى
كان المدنيون يطمعون أن يكونوا مستقلين تحت حكم أمير منهم
(٢) كره العرب لبذل الاموال لحكومة مركزية اذ يعدون ذلك قيدا
على حريتهم المطلقة وقد منع الكثيرون منهم الزكاة

(٣) المنافسة العظيمة بين القبائل المختلفة حتى دفعهم ذلك الى أن يتبعوا
بعض الكاذبين من الكهنة والمتنبئين لا لشيء الا لانهم من قبيلتهم

(٤) انشقاق جماعة من الراغبين في الزعامة لانهم يرون أنفسهم أحق بها.
وقد كان لابي بكر أعظم الفضل في مقابلة كل هذه الاخطار وردها عن الدولة
الاسلامية فان شخصيته المحبوبة أرجعت الكثيرين من طالبي الانقسام الى
الوحدة والجماعة عند ما رأوا ذلك الرجل خليفة الرسول

وما كاد انتخابه يتم حتى ظهرت قوة عزمته التي لا تضعف فشجع

الخائف ودفع المتراخي وكان مثلاً حسناً أمام المسلمين حتى انتصروا على مانعني الزكاة وكانوا قد أتوا إلى المدينة وهددوها . فكان هذا أول نصر أعلى اسم الدولة الإسلامية وسهل أمامها عملها الباقي

ولما نفس أبو بكر عن المدينة تلك الشدة جهز الجيوش للقضاء على حركات الانفصال في الجهات البعيدة من بلاد العرب وقد ظهرت قوة ارادته مرة أخرى عند ذلك فقد كان أكثر الصحابة يرون الانتصار على العرب مستحيلاً بعد وفاة الرسول إلا أبا بكر فقد ثبت قائلاً « لو منعوني عقلاً مما كانوا يؤدونه لرسول الله لحاربتهم عليه أو أهلك دونه » فلم يكن للصحابة بد أمام هذه الصلابة إلا الازعان وكانت النتيجة انتصاراً عظيماً على يد قواده الكبار أمثال خالد بن الوليد فما كاد يمضي العام حتى كانت بلاد العرب مرة أخرى دولة موحدة تحت خلافة أبي بكر

وقد أسرع أبو بكر بتجهيز الجيوش لإتمام عمل سيدنا الرسول من نشر الدين في العالم فبدأ بتجهيز حملة صغيرة بقيادة أسامة بن زيد الذي كان الرسول عازماً على إرساله في حملة إلى الشام قبل وفاته وقد أفادت هذه الحملة من وجوه عدة لأنها ذكرت الناس بأيام الرسول ، وأظهرت للعرب أن الأمور سائرة على سبيلها الأولى وأن على العرب جميعاً واجباً عظيماً وهو السير حيث أشار النبي ولأنها فوق ذلك أظهرت للمترددين من العرب أن الحكومة المركزية بها قوة عظيمة وأن الخير لهم في الانضواء تحت لوائها ، وثالثاً لأنها جعلت العرب يتنبهون إلى أن هناك ميادين عظيمة يستطيعون أن ينصرفوا إليها تحت راية حكومة عربية مركزية بدل أن يجعلوا بأسهم بينهم في حرب داخلية . وهكذا ما أنت أواخر سنة ٦٣٢ حتى وجد أبو بكر نفسه حراً من جميع المشاغل الداخلية فجهز جيشين في وقت واحد ليصدم بهما الدولتين العظيمتين المجاورتين معاً وهما فارس والروم . وهو عمل هائل فإن أبا بكر لم يقدم على شيء أقل من محاربة جميع العالم المتمدين في وقت واحد

حرب فارس

أرسلت البعثة الاولى بقيادة خالد بن الوليد الى تخوم فارس في اواخر سنة ٦٣٢ وبهذا يمكن أن يقال أن فتح بلاد فارس أول عمل خارجي جدى قام به العرب وخالد غنى عن أن يعرف فهو البطل الذى أطلق سيدنا الرسول عليه (سيف الله) وهو بطل الحروب الداخلية بعد وفاة الرسول . وكان اسمه يحبب العرب في الغزو تحت لوائه وقد نجح مجاحا عظيما اذا استولى في زمن قصير على جميع أرض السواد بمدينها الكبرى الحيرة والانبار وأخضع جميع القبائل العربية الضاربة على حدود أراضي الفرات ثم تعدى إلى ما بين نهري دجلة والفرات ، وجعل يوغل فيها منتصرا حيث سار الى أن استدعاه أبو بكر لنصرة العرب في ميدان الشام على أن يكون هو القائد الا على هناك فلما ترك خالد جيوش العرب في فارس لم يكن ذلك بغير أثر عظيم فاسترجع الفرس ما استولى عليه العرب تدريجا بين النهرين وقتل جماعة من أشجع القواد الذى بقوا مع الجيش هناك مثل المشى بن حارثة وهكذا تراجع تيار الفتح تدريجا الى أيام عمر كما سيأتى

والسبب في ذلك واضح ظاهر وهو أن محاولة العرب الاضطدام بدولتين عظيمتين في وقت واحد ، وان كان له أثر أدبي كبير في نفوس العرب في الداخل لم يكن من السهل على دولة فتية ناشئة ليس لها العدد القوية ولا التجربة في الحروب المنظمة مع دول ذات مدن مسورة وحصون

حرب الشام

في أوائل سنة ٦٣٣ ارسل أبو بكر البعثة الثانية الى بلاد الشام وكانت تلك البعثة جيوشا متفرقة تحارب متساندة أي أن كلامنها يحارب وحدهم ويساعد الاقسام الاخرى اذا ما احتاجت اليه . وكان اكبر القواد أبو عبيدة عامر بن الجراح الصحابي الشهير الذى شهد المواقع كلها مع الرسول ويسمى

١) (ساقط الثنيتين) تكريماً لأنه سقطت ثنيتاه في موقعة أحد وهو يخرج حلقات المغفر من وجه الرسول اذ دخلت في وجهه الكريم عند ما أصيب في تلك الموقعة . وكان أبو عبيدة شجاعاً فاضلاً ولكنه لم يكن بالقائد العام المسيطر الماهر . ولهذا لم تلق جيوش العرب بالشام من النجاح مالاقتته جيوشهم في فارس . وهناك خلط كبير في وصف خط سير العرب في ذلك الفتح ولكننا نتبع أمثل الأقوال واليقها بأن يكون الواقع بحسب طبيعة الجيوش العربية

ففضل العرب أن يسيروا من الشرق في الجهة الشبه الصحراوية متحاشين فلسطين ذات المدائن والحصون الكثيرة التي يشق فيها السير وتكثر المفاجآت . وهناك من جهة الشرق يوجد مدخل الى بلاد الشام وهو الفرجة التي بين وادي الاردن جنوباً ووادي العاصي شمالاً وفي تلك الفرجة توجد مدينة دمشق وهي المحطة الطبيعية لمداخل الشام من الشرق كما أنها أكبر مدن ذلك القطر . وبالطبع لا يمكن أن تبقى الجيوش الرومانية ساكنة فتحركات حتى صارت عند ذلك المدخل تمنعه فالتقى بهم العرب عند نهر اليرموك أو (وادي الواقصة) وهو واد من الوديان العميقة التي تصب في نهر الاردن الاعلى وهناك أتى للعرب امداد كبير اذ كان خالد قد أمر بالذهاب للشام لمساعدة جيشها وقد قطع خالد المفازة بين فارس والشام بمهارة لا يمكن أن تبارى حتى وصل الى الشام واشترك في موقعة اليرموك وكانت انتصاراً باهراً للعرب سنة ٦٣٤ ولم يبق بعد ذلك مانع من الانقضاض على دمشق . فحوصرت قليلاً ثم سلمت — وفي أثناء حصار دمشق جاءت الاخبار بوفاة الصديق وتولية عمر وترع خالد من الرياسة وتولية أبي عبيدة مكانه اذ كان عمر يأخذ على خالد بعض أمور ولعله كان يخشى على وحدة الدولة العربية أن يفتن الناس به

عمر بن الخطاب

إذا كان الإسلام قد أظهر أبا بكر مثلاً عالياً للحاكم الثابت الرحيم فإنه كذلك قد أظهر عمر مثلاً عالياً للحاكم القوى العادل ويطلق عليه في التاريخ لقب الفاروق (أى الذى يفرق بين الحق والباطل)

وكان انتخابه بطريقة جديدة غير طريقة انتخاب أبى بكر ، وذلك أن أبا بكر رشحه للخلافة قبل موته ووافق المسلمون على اختيار الصديق له . اجلالاً منهم لحكمة ذلك الخليفة العظيم على أنهم كانوا يرون فى عمر صفات عظيمة جعلتهم يسارعون الى الموافقة على اختياره وفى هذا دليل على أن العرب انما كانوا يجربون تجارب جديدة بين حين وآخر فى نظام حكمهم لعلمهم يوفقون الى نظام حسن لدولتهم الجديدة . لم تكن الظروف عند انتخاب عمر مثل الظروف التى قابلت أبا بكر ، فقد ترك الصديق دولة راسية الأساس منتصرة على أكبر دول الارض وترك العرب أمة متحمسة مقبلة على عهدها الجديد بقوة لم يشهد التاريخ مثلاً . فما كان على عمر الا أن يقود تلك الأمة بحكمة وأمانة حتى تصل بقوة اندفاعها العظيم الى غايتها المحتومة

انمام حرب الشام

حوصرت دمشق مدة قصيرة ، ثم سلمت بعد أن دخلها خالد بالقوة . من جانب منها . واستمر النصر بعد فتح دمشق موالياً للعرب وقد هبطوا بعد دخول الشام الى الاراضى ذات المدائن والاسوار وكان جيش الروم قد ضرب ضربتين قويتين فى اليرموك وحصار دمشق ولهذا سهل على العرب الأيغال فى البلاد وكانت أكبر المواقع بعد ذلك موقعة (اجنادين) سنة ٦٣٦ وهى الموقعة الكبرى الثانية التى انتصر فيها العرب بعد اليرموك . وقد خلت بعدها بلاد الشام من وجود جيش روماني يخشى بأسه فقسمت

الجيش العربية الى أقسام ثلاثة قسم للاستيلاء على فلسطين وقسم للاستيلاء على السواحل وقسم للاستيلاء على الاقاليم الشمالية . ويمكن أن يقال أن فتح الشام تم بالاستيلاء على العاصمة الثانية وهي بيت المقدس سنة ٦٣٧ . ومما يستحق الذكر أن بطريقها أبي أن يسلمها الا الى الخليفة عمر ف جاء هذا من المدينة ببساطة مظهره البدوي وتسلمها وأظهر عند استلامها من الاعتدال والحكمة السياسية والعدل ما لا يذكر مثله لا كبر ملوك الدول المتمدينة .

ولقد حاول الرومان أن يسترجعوا ذلك القطر بالهجوم من البحر أو من آسيا الصغرى ولكن ما كانت أمة فتية كالعرب لتطرد من قطر كالشام على يد مرتزقة الرومان فالحق أن الشعوب دول وكانت دولة الرومان مندفعة في تيار الجزر

الاستمرار في حرب فارس

رأى عمر ما آل اليه أمر ميدان الفرس من الضعف منذ سنة ٦٣٣ — وقد كان مشغولاً عنه بالنضال مع الشام حتى تحطم الجيش الروماني في اجنادين . سنة ٦٣٦ . وعند ذلك استطاع عمر أن يوجه كثيراً من قوات العرب الى دولة الالكاسرة . وقد اختار رجلاً من أكبر أبطال الاسلام لقيادة جيوش فارس . وهو سعد بن أبي وقاص وقد كان من أجل الصحابة الذي شهدوا المشاهد مع سيدنا الرسول وقام معه مقاماً محموداً في موقعة أحد . وكان أول نصر عظيم تحت قيادته انتصار القادسية سنة ٦٣٦ وهي الموقعة الكبرى التي واجهت فارس فيها جيوش العرب بأكبر استعداد من عدد وسلاح ودواب . واستمرت الموقعة ثائرة ثلاثة أيام انتصر بعدها العرب وقتل قائد الفرس (رستم)

وقد استولى العرب بعد نصر القادسية على جميع الضفة الغربية لنهر .

الفرات وأسسوا مدينة البصرة لتكون قابضة على التجارة وتجعل مفتاح البحر في يد العرب ثم جعل سعد يستعد للاستيلاء على ما بين الفرات ودجلة مسرعا ليستفيد بنصره العظيم في القادسية . وكان اسم العرب يسبق الجيوش فيوقع الرعب في قلوب الملك (يزدجرد) وقواده حتى انهم هجروا العاصمة (المدائن) قبل ان يحصرها العرب وتقدم العرب تدريجا الى المدائن وكانت مدينتين احدهما على الضفة الغربية لدجلة والاخرى على الضفة الشرقية لاتساع تلك العاصمة فاستولى العرب على الغربية أولا ثم عبروا دجلة بخيولهم واستولوا على المدينة الشرقية وحصلوا منهما على غنائم لم يسبق مثلهما للعرب ولا غرابة فقد استولوا على قلب الدولة القديمة التي ظلت قرونا طويلة سيدة الشرق ومركز مدنيته

وقد حاول (يزدجرد) أن يسترد ما كان فجمع جموعا عظيمة عند جلولاء في شرق المدائن . وهناك وقعت الواقعة الثانية الكبرى وانتصر فيها المسلمون مرة أخرى انتصارا باهرا سنة ٦٣٨

وكانت هزيمة الفرس ضربة قوية عليهم حتى انهم أبعدوا مقرهم في الجبال الشرقية وهناك لم نسمع بمجهود جديد لهم قبل مضي أربع سنوات أخرى .

وعند موقعة جلولاء ينتهى الدور الثانى من الحرب على ان أصبح العرب سادة جميع الجزء الخصب من بلاد فارس الى حدود الاقليم الجبلى الشرقى . ومن هناك جعلوا يرسلون البعوث الى الاقليم الشرقى ويفتحون مدنه

أثر الانتصارات فى عمر

أدرك عمر بفطرته السليمة ان هذه الانتصارات قد أمطرت العرب بالغنائم ذات القيمة العظيمة وكان عمر يقسم كل شئ بين المسلمين بحسب أسهمهم . وقد رأى ان تلك الثروة فيها خطر شديد على نفوس العرب

معتقداً ان السر الذي جعلهم يتصرفون على كل الأُمم هو انصرافهم عن الدنيا ومادتها واحتقارهم لحياتها . فكان يتألم كلما رأى الغنائم تنصب الى قومه من الدول الغنية المقهورة ولكن ذلك التيار كان لا بد منه وما كان عمر يستطيع رده الا بأن يبطل الحروب وذلك أمر من أشق الأمور وأصعبها عليه فقد اندفعت الدولة في سبيلها ولم يكن في طاقة عمر ان يمنع ذلك التيار الجارف ، فكان يذرف الدمع خشية من أثر الغنى في قومه ولكنه مع ذلك لم يستطع تغيير شيء الا انه كان يمانع في فتح ميادين جديدة للحرب أشد مماثلة ذلك مهالته في فتح مصر مع شدة الحاح عمرو بن العاص . عليه في ذلك

واكتفى عمر بأن يقلل شر الغنى بقدر استطاعته بأن يمنع العرب من امتلاك الأرض والاشتغال بالفلاحة في البلاد التي فتحوها واستمرت هذه الممانعة مدة طويلة حتى ابيح شراء الارض والعمل في الفلاحة فيما بعد أيام عمر .

سياسة عمر أمام الظروف الجديدة

لقد كان عمر بدوياً لا عهد له بالحكومات المنظمة ولكنه رأى الدولة اتسعت في أيامه اتساعاً عظيماً فجعل يلتمس الوسائل تنظيم حكمها وكانت المسألة أمامه ذات وجهين الأول نظام حكومة المركز والثاني نظام حكومة الأقاليم

أما نظام حكومة المركز فقد عمل على ان يجعل كل الولاية خاضعين لارادة الحكومة المركزية في كل ما يتعلق بالسياسة العامة وادارة الحروب والفتوح ولكنه ترك لهم الحرية المطلقة في السير في حكومة الأقاليم بحسب ما كانت سائرة عليه قبل الفتح الاسلامي ، وكان يختار للحكم من يرى فيهم النباهة وسعة العقل امثال معاوية بن أبي سفيان

وكان لا يقطع أمراً في حكومته بغير مشاورة كبار الصحابة ويسير في أكثر الأمور فيما يشيرون به ولكنه أبقى كل أمور الحكومة المركزية على بساطتها الأولى فلم يجعل فيها أنظمة لمكاتبة الاقاليم ولا لجمع الضرائب منها ولم يجعل في المدينة (عاصمة الدولة الكبرى) نظاماً جديداً غير تدوين أسماء المحاربين وبيان عطاء كل منهم في دواوين خاصة يقصد بذلك أن يقيم جيشاً منظماً وأن يجعل العرب منصرفين عن كل الأعمال إلا أعمال الجندية .

وأما نظام الحكومات في الاقاليم فإن عمر وان لم يخطط نظاماً جديدة في المركز كان له من سعة العقل ما جعله يتبع في حكم الاقاليم الوسائل التي كانت متبعة فيها من عصور وغاية ما جدد هو انه جعل في كل قطر عاصمة عربية ليبعد العرب فيها عن الاختلاط بالشعوب المغلوبة ولينزههم عن مفاسد المدنيات المنحلة وليجمعهم وخدمهم في وسط اسلامي حربي يبقی عليهم خلقتهم الأولى ، فجعل في فارس عاصمة البصرة ثم اتخذ سواها الكوفة لأنها خير منها موقعاً وهواء وجعل في دمشق محلة اسلامية لانعزالها بقرب الصحراء ، وكان دائماً يختار العواصم في جانب الصحراء حتى لا تفصله المياه عن جزيرة العرب .

وكان عمر لا يحب ترك القديم علماً منه أن تقليد أهل فارس أو الرومان يدخل الى العرب ما اضعف الفرس والروم فكان شديد الوطأة على كل من يخرج عن بساطة العرب الأولى كما فعل مع معاوية وسواه من الحكام ولكنه كان يحاول شيئاً غير ممكن فأن اختلاط العرب بسواهم كان لا مفر منه بعد تلك الفتوح وكان محتوماً أن يدخلوا الى الشعوب المهزومة دماءهم ولغتهم ودينهم وكان كذلك محتوماً أن يأخذوا من الشعوب المغلوبة فنونها وصناعاتها ومدنيتها من جميع وجوها

فتح مصر : في سنة ٦٣٨ كانت الفتوح قد تمت في الشام واستقر الامر تقريباً هناك وكذلك كان العرب قد استولوا على جميع اراضي النهرين

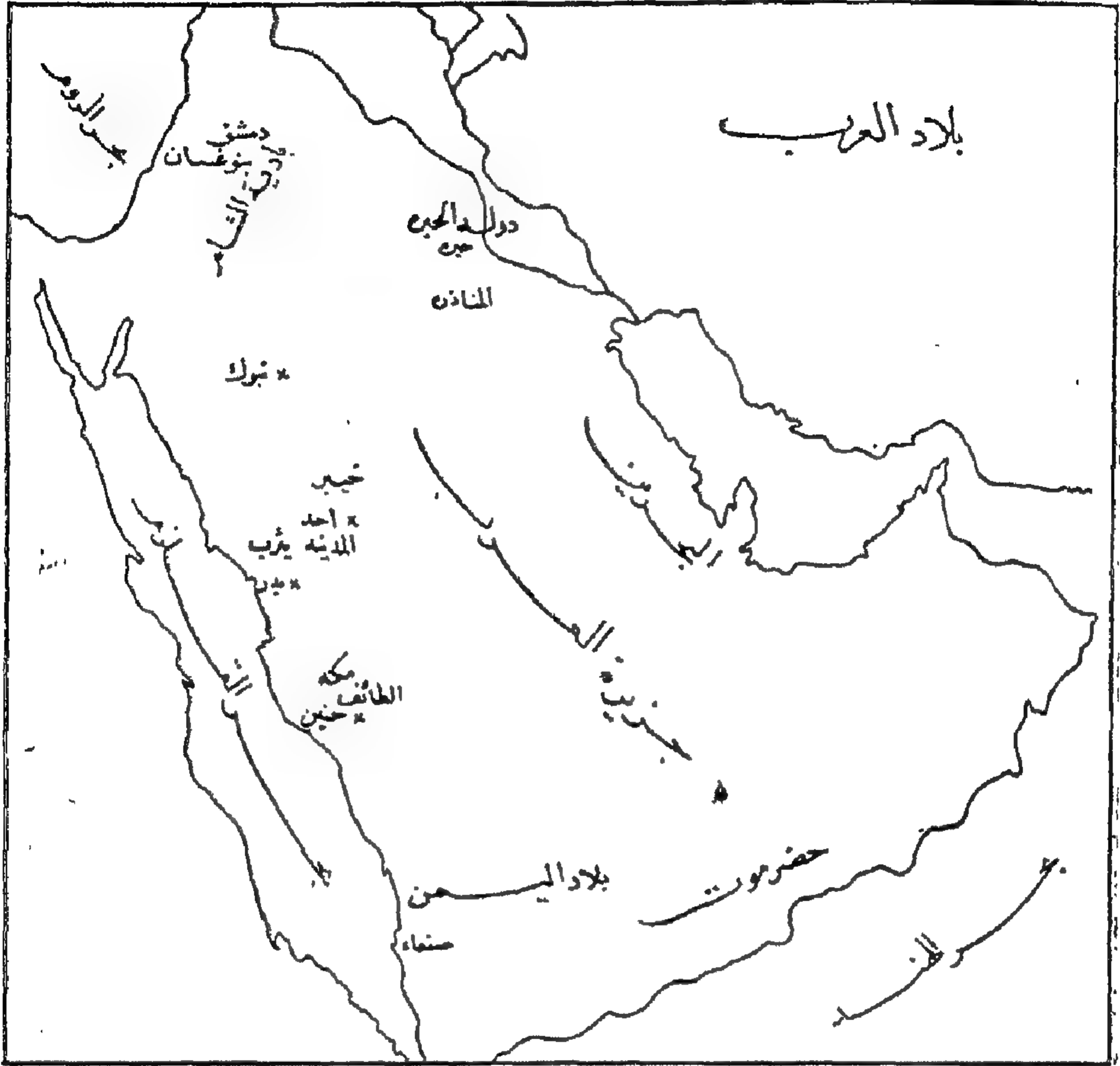
الى حدود هضبة ايران وبعد الملك الفارسي الى الشرق لا يكاد يقدر على مهاجمة العرب وعلى ذلك يمكن أن يقال أن عمر وجد نفسه خالي اليدين من الاعمال الحربية منذ ذلك العام وقد كان ميالا الى عدم التوسع في الفتوح خوفا من الروح العربية أن يفسدها التوسع السريع وما ينشأ عنه من التغير الفجائي في طريقة الحياة

ولكن عمرو بن العاص كان يطمع في الاستيلاء على مصر فجعل يقنع عمر بضرورة فتحها وفائدة ذلك للدولة العربية ولكن عمر كان شديداً في الالباء ولعل حجة واحدة جعلته يتردد في تشدده أولاً ثم يرضى أخيراً بتسيير الجيوش العربية الى ميدان مصر ويستأنف فتحاً جديداً وتلك الحجة هي أن مصر كانت لازمة لسلامة الشام وأن الرومان ماداموا في مصر يستطيعون أن يهددوا العرب في الشام بأن يرسلوا الجيوش من مصر عن طريق صحراء العريش الى جنوب الشام فتهدد المواصلات بين العاصمة العربية (المدينة) وبين ذلك القطر في حين أن الجيوش من اسيا الصغرى تهبط من الشمال وتأتى الاساطيل الرومانية من البحر فيكون في ذلك ضغط على العرب من جهات ثلاث. ومصر لاشك قطر غنى ومادام في يد الرومان أمكنهم أن يستعينوا بثروته على غزو العرب كما أن الروم في مصر يستطيعون أن يهددوا سواحل بلاد العرب ذاتها ، وقد جعل عمرو بن العاص يصف لعمر سهولة فتح مصر وأن المصلحة في أن يؤخذ الرومانيون فيها على غرة بعد صدمتهم الشديدة في الشام قبل أن يمر زمن كاف لاستعادة قواهم وتنظيم جيوشهم وأحوالهم وهكذا نجد عمر يرضى بسير عمرو بن العاص الى مصر في أواخر سنة ٦٣٩ ومعه نحو اربعة آلاف رجل

ويمكن تقسيم حرب العرب في مصر الى أدوار ثلاثة :

(١) الدور الاول الى مجيء المدد

- (٢) الدور الثاني إلى موقعة عين شمس ، وأخذ حصن بابليون
(٣) الدور الثالث إلى فتح الاسكندرية



(خريطة ١)

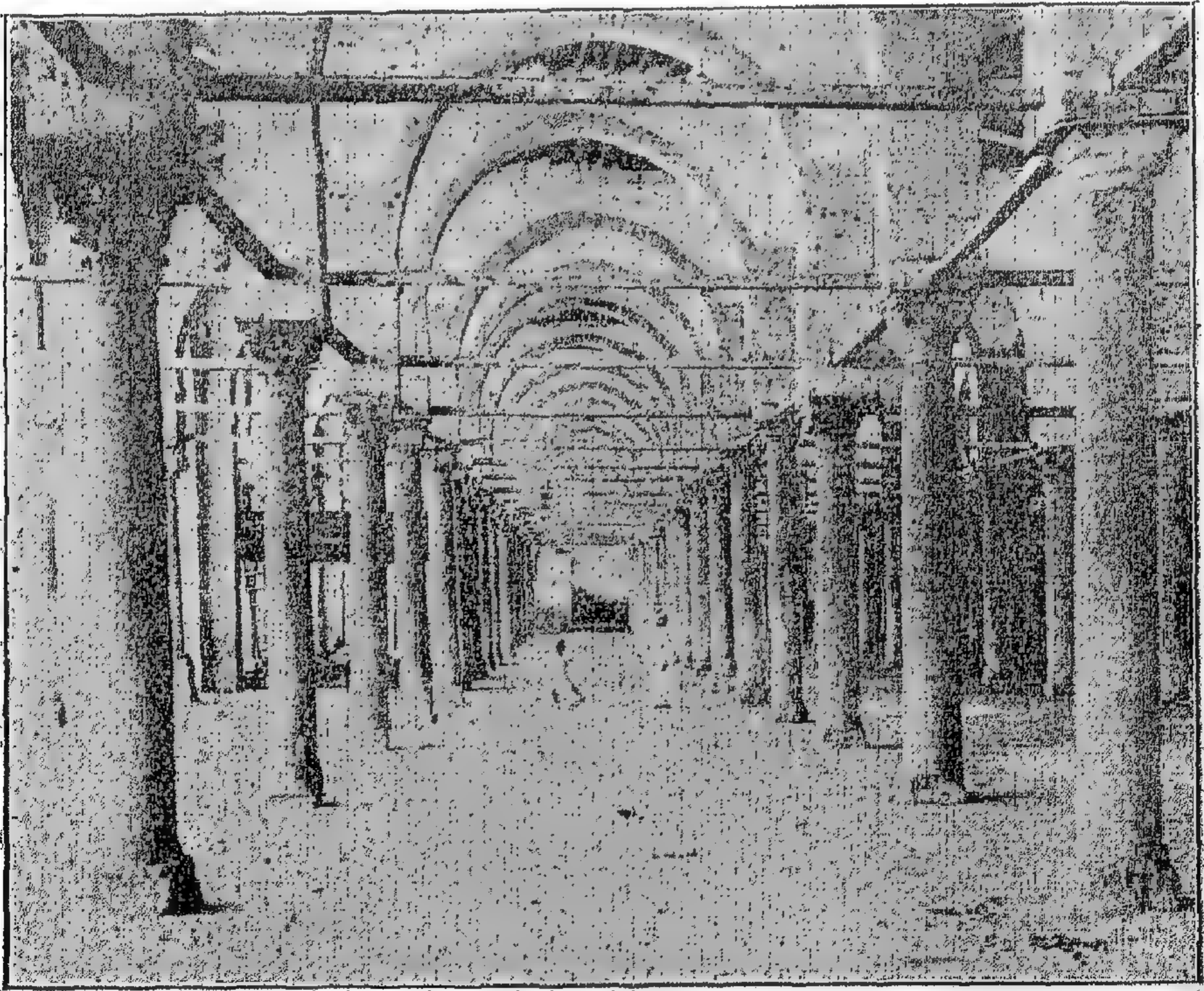
الدور الأول

سار عمرو مع جيشه الصغير العدد الكبير القوة نحو مصر وكان الخليفة متردداً لا آخر لحظة حتى أن عمرو عند ما قرب من حدود مصر علم أن رسولا من الخليفة لاحق بالجيش فأسرع حتى يدركه الرسول بعد دخول الحدود غاماً منه أن الخليفة أحكم وأعقل من أن يأمره بالرجوع إذا هو دخل تلك البلاد وحدث ما توقعه عمرو فان الرسول أذركه بعد دخول مصر ومعه كتاب يأمره فيه عمرو بالرجوع عن الغزو إذا كان لا يزال خارج الحدود ، أما إذا

هو دخلها فليسر على بركة الله . رهكذا عمل عمرو على ادخال العرب في مصر بكل ما استطاع من حجة وحيلة . وبدأ سيره في أواخر سنة ٦٣٩ ولم يجد عمرو مشقة في فتح القرى الصغيرة في شبه جزيرة سيناء حتى القرما (بلوز) وبعد ذلك دخل وادى النيل ومن حسن حظ العرب أن الرومانيين ما كانوا يتوقعون مجيء العرب الى مصر بهذه السرعة بعد الفراغ من الشام ولهذا لم يكونوا مستعدين بل كانت جيوشهم القليلة بمصر موزعة على القرى والجهات المختلفة ، وكان حكم الرومانيين بمصر شديدا كما قدمنا وكانت كثرة الحروب التي خاضتها الدولة الرومانية سبباً في ملل الشعب المصري واحتقاره للحكومة وميله للتخلص من الاحمال الثقيلة التي القيت على كاهله بكل وسيلة ، كما أن اختلاف المذهب الديني بين المصريين والرومانيين واضطهاد الحكام لرؤساء الدين في مصر كل ذلك جعل المصريين يميلون للتخلص من حكامهم بأي ثمن ولهذا وجد العرب من الحكام المصريين أمثال المقوقس وهو مدير القسم الشرقي من مصر مساعدة عظيمة في تسهيل الفتح فكانت الحرب في مصر كما كانت في الشام بين العرب والجيوش الرومانية فقط وأما الشعب فكان على الأقل محايداً إن لم تقل أنه كان يقدم للعرب مساعدات عظيمة . فلماذا لم يصعب على عمرو أن يصل بجيوشه الى النيل عند مدينة (مصر) كما يسمونها وهي العاصمة وقد أدرك عمرو أن مصر ليست من الصغر بحيث يستطيع فتحها بعدده القليل فأرسل يطلب المدد من عمرو في أثناء طلب المدد عبر النيل الى الضفة الغربية وشغل جنوده في احراز انتصارات موضعية أعلنت من حماستهم وحصلوا منها على كثير من الغنائم والمؤن . ولما جاء المدد عاد عمرو لمقابلته فعبور النيل ثانياً وتلاقت القوتان العربيتان وكل ذلك والرومانيون لم يتم تجمعهم لمعاكسة عمرو معاكسة جديدة مع أنه جازف مرتين بعبور النيل مرة الى الغرب ومرة راجعاً الى الشرق

الدور الثاني :

جاء المدد وكان نحو ثمانية آلاف رجل ومعهم جماعة من مشهورى الابطال أمثال الزبير بن العوام وكان الرومانيون فى تلك الاثناء تمكنوا من جمع أول جيش كبير فى ميدان مفتوح وهناك حدث الاصطدام بين الجيشين بجوار مدينة (عين شمس) سنة ٦٤٠ وأحرز العرب نصرا عظيما يمكن أن تعدد فاصلا. فان الرومانيين لم يجهزوا بعد ذلك جيشا كبيرا فى ميدان مفتوح آخر وكان لموقعة عين شمس اثر عظيم فان العرب استولوا بعدها على مصر الوسطى وجعلوا يبعثون البعوث للاستيلاء على مدن الوجه البحرى والقبلى وحاصروا الحصن العظيم الذى دخلت اليه بقايا الجيش الروماني وهو حصن (بابليون) وما زالوا محاصرين له حتى سلم فى نفس السنة سنة ٦٤٠



(شكل ٣ — جامع عمرو « جامع الفتح »)

الدور الثالث . فى أثناء حصار حصن بابليون كان العرب قد استولوا على مدن الوجهين القبلى والبحرى ولم يبق من المراكز الهامة الا العاصمة

الكبرى الاسكندرية وتوجه العرب اليها بعد الاستيلاء على حصن بابلين
وكان حصار الاسكندرية من أشق الاعمال على العرب لاتصالها بالبحر
وكان الرومانيون غير مدافعين الى ذلك الوقت في سيادة البحر . ولكن
العرب استولوا عليها في سنة ٦٤١ . وبذلك تم لهم تملك مصر في أقل من
سنتين . غير أن الرومانيين حاولوا استعادة الاسكندرية مراراً بعد ذلك
ونجحوا نجاحاً مؤقتاً حتى أيسوا أخيراً منها بعد محاولتهم الأخيرة في خلافة
سيدنا عثمان سنة ٦٤٦

الكال فتح فارس : كان من حسن حظ العرب أن الفرس لم يتحركوا
ضدهم في هذه السنوات الأربع منذ سنة ٦٣٨ الى سنة ٦٤٢ فانهم لو تحركوا
في هذه الفترة لكان وقع حركتهم على العرب شديداً لانشغالهم في فتح
مصر . ولكن انتهى فتح مصر قبل أن يتمكن الفرس من جمع شملهم واعادة
الكرة على غزاتهم ليستردوا منهم استقلالهم . فلم يجمعوا جيشاً جديداً بعد
انهزامهم في جلولاء الا سنة ٦٤٢ ووقفوا للعرب عند نهاوند وكانت هناك
موقعة عظيمة تفوق المواقع السابقة وقد انتصر فيها العرب مرة أخرى
بقيادة القائد الجديد الذي حل محل سعد بن أبي وقاص وهو النعمان بن مقرن
الذي كان خير مثال للشجاعة والشبات في جيش العرب وقد قتل في أثناء
الموقعة بعد حملة حملها بنفسه كان لها الأثر الأكبر في الانتصار . وكانت
وقعة نهاوند آخر اجتماع عظيم للفرس ولذلك تسمى فتح الفتوح وهرب
الملك (يزدجرد) وظل يتنقل طريداً مدة الى أن قتل في مدة سيدنا عثمان
سنة ٦٥٢ . وبعد نهاوند اندفع تيار الفتح في فارس لا يوقفه شيء حتى بلغ
قلب آسيا فيما بعد .

عثمان ابن عفان : قتل الفاروق على يد أحد الموالى من الفرس وهو
أبو لؤلؤة . وقتله يدل على المشكاة التي بدأ العرب يقابلونها فان الحكومة

البسيطة التي بقي العرب عليها الى ذلك الوقت لم تكن متلائمة مع الفتوح الكثيرة والغنى والاتساع الذي صارت اليه الدولة العربية واذا كانت بساطة عمر تأخذ بالنفس إعجاباً فان بساطة النظام تجعل المفكر يرى عدم ملاءمته للظروف الجديدة .

ولما أحس عمر بأنه موف على الآخرة ابتدع طريقة ثالثة في اختيار الخليفة وهي مخالفة للطريقتين الاوليين وفيها يظهر نوع جديد من اجتهد العرب في الابتكار لعلمهم يصلون الى نظام صالح لدولتهم . والطريقة الجديدة هي انه اختار ستة من أفاضل الصحابة وجعلهم أصحاب الشورى بأن يختاروا أحدهم ليكون خليفة وأمر ألا يطول بهم الزمن أكثر من ثلاثة أيام خوفاً على الدولة من أن تبقى طويلاً بلا خليفة يمسك زمامها في مثل هذا الوقت الحرج وقد استقر الرأي أخيراً بعد تردد طويل على اختيار عثمان بن عفان وهو من جلة الصحابة ذوى السابقة والشرف في الاسلام ولو أنه لم يكن من رجال الحرب المشهورين في خوض دماؤها .

ولعل الاختيار بهذه الطريقة التي رآها عمر كانت ذات أثر في حوادث الشقاق التي حدثت فيما بعد لاسيما وقد كانت من عثمان أعمال عدها الناس غلطات وجعلوا يلومونه عليها كما سيأتي فكان كل واحد على قيد الحياة من أصحاب الشورى يرى نفسه جديراً بأن يكون في محل عثمان ليصالح الامور بدله . وكان لكل منهم حزب ينصره لعلو مكانته بين العرب فكان هذا أول وجود الأحزاب وتفرق الكائنة والحرب الداخلية .

ما أخذته الناس على عثمان : جاء عثمان في وقت كانت الفتوح فيه قد اتسعت وأصبحت الدولة فسيحة الارحاء وافرة الثروة وفرغ العرب من المشاغل الحربية وجعلوا ينظرون الى ما يعمله الخليفة من الاعمال الدقيقة في سبيل حكم تلك البلاد المتسعة . فكان الامر يتطلب مجهوداً عظيماً وعاملاً

كبيراً بأساليب الإدارة . وهذا ما لم يكن لعثمان
لم يسر عثمان سيرة أبي بكر وعمر في الأمور العامة وهذا ناشئ من
الفرق بين طبائع بعض الناس وبعض فكان لا يخرج من تولية أهله والمتقربين
إليه بدل الجلة من أصحاب الرسول فغضبت لذلك طبقة القادة والزعماء ومنهم
بعض أهل الشورى وكان يقطع أهله أقطاعات من الأرض دون المسلمين
وحانى بعضهم في الأموال العامة فأثار هذا كره عامة المسلمين . ولم يخل
الأمر من أحقاد شخصية كانت تعمل ضده في الخفاء بعضها ناشئ من
كره شخصي وبعضها ناشئ من المنافسة بين القبائل والأسرات وهكذا
أحاطت بعثمان تيارات مختلفة متضاربة لم يستطع أن يسير فيها سيراً سهلاً
ولم تكن له سياسة متناسقة من شدة أو من لين بل كان يتردد بين الإصرار
على انفاذ رأيه مرة والرجوع إلى رأى أصحابه مرة أخرى وكان أحياناً يظهر
من الضعف ما جعل العامة تطمع فيه وعلت الشكوى منه وجعل أصحابه
وأهل الشورى منهم خاصة ينصحونه ويتدخلون في إصلاح الأمر إذا أمكن
فسبقت الحوادث كل سعيهم وحدثت الثورة المنتظرة .

سبب الثورة المباشر : إذا كانت هذه الحوادث مهدت إلى الثورة فإن
الحادثة التي أشعلت الثورة هي حادثة الكتاب المشهورة فإن أهل مصر
أتوا يشكون العامل عليهم وهو عبد الله بن أبي سرح وقد نزل عثمان على
رأى الناس وعزل ذلك العامل وولى بدله محمد بن أبي بكر وسار محمد في
جماعة إلى مصر ثم ما لبثوا أن عادوا معهم عبد لعثمان قالوا انهم وجدوه
مسرعا في طريق مصر وراءهم ولما فحصوه وجدوا معه كتابا لابن أبي سرح
يأمره بقتل محمد ومن معه وكان الكتاب مختوما بخاتم عثمان
وقد أنكر عثمان كتابة ذلك الكتاب أو العلم به فطالب الجماعة أن يسلمهم
كاتبه مروان ليحققوا أمره فأبى لأن من حقه هو أن يحقق الأمر ويجازى
المسئء - فكانت هذه الحادثة الشرارة التي ألهبت النيران .

الخصار : وما زالت الحركة تشتد حتى حوَصر عثمان في داره ومنع من الخروج ومنع عنه الزاد والماء وكان أكبر الصحابة ينظرون الى تلك الحركة كارهين ولكنهم ما كانوا يستطيعون أن ينصروه متحمسين ولعلمهم كانوا يرون أنه أخطأ وما كانوا يدركون ان الامر سينتهى بالكارثة التي حدثت ولكنهم مع ذلك كانوا يظهرون بين حين وحين عطفهم ورحمتهم كما فعل على إذ بعث له الماء مع ولديه لما علم بانه يطلب الماء وأمرهم أن يمنعوا الناس من الوصول اليه ، وكان الصحابة لما رأوا اشتداد الامر وتفاقم الخطب قد عزموا على نصرتة والوقوف بجانبه بالسيف أمام الجماهير ولكن الثوار عندما شعروا بذلك تسوروا عليه الدار ودخلوا عليه وأهانوا حرمة وبعد منظر مؤلم بينهم وبينه قتلوه رحمه الله سنة ٦٥٥

وكان قتل عثمان أول عهد جديد في الدولة الإسلامية فقد كان حكمه قصارى ما بلغه النظام الابتدائي الذي أقامه العرب ودخلت الدولة بعد ذلك في اضطراب جديد ينجلي عن نظام جديد اكفل بسلام الدولة ولو أنه كان نظاماً أقل سمواً من النظام الاول كما سيأتى .

الفتوح في مدة عثمان

لم تكن الفتوح في مدة عمر قد بلغت حدوداً طبيعية من جبال لا يمكن اختراقها أو بحار يعجز العرب عن افتتاحها ولهذا كان لابد من استمرار التيار في مدة عثمان وقد امتدت الفتوح من جميع النواحي فمن الشرق واغلب العرب في فارس وبعد قتل (يزدجرد) لم تبق مقاومة في دولة الفرس وما زال العرب الى ان بلغوا حدود الهند والتركستان ومن جهة سوريا أغار معاوية واليهما على آسيا الصغرى وجعل يستعدي بناء اسطول ليم له الاستعداد لغزو دولة الروم براً وبحراً ومن جهة الغرب تقدمت الجيوش من مصر الى برقه ولم يصعب على فرسان العرب ان يهزموا الروم هناك ويستولوا على ذلك القطر . ففتوح



(خريطة ٢)

العرب مدة عثمان كانت الاستمرار الطبيعي للفتوح الواسعة في أيام عمر وأبي بكر

الانقسام بعد قتل عثمان

كان مقتل عثمان مفترق الطرق في الدولة العربية فقد جرب نوع من الحكم يشبه الجمهورية ولكنه لم يكن نتيجة نمو طبيعي بطيء كفييل بالقيام بحاجة الدولة الواسعة التي صارت للعرب ولهذا حدثت الاضطرابات الكثيرة التي انتهت بالمأساة الكبرى وهي الثورة ضد الخليفة

ولم ينته الأمر بقتله بل وقع اضطراب عظيم في دولة العرب وكان الاضطراب في داخل النفوس كما كانت مظاهرة عامة في كل الأقاليم وكانت المسألة التي يراد الاستقرار عليها هي : مانوع الحكومة التي يمكن ان تصلح لدولة العرب

لم يوجد عند العرب كما قدمنا نظام حكم شعبي بالمعنى المعروف قديماً في اتينا او في رومة . ومثل هذا النظام لا يمكن ان يبنى في سنين قلائل ،

بل هو وليد قرون يساير الدولة جيلا بعد جيل وتستقر عليه الأمور تدريجاً فلم يكن امام الدولة العربية في تلك الأُزمنة نظام يحفظ ملكها ويعيد إليها سلاماً سريعاً إلا نظام ملك قوى وهذا ما سينجلي عنه الاضطراب بعد قليل وكانت هناك أحزاب تتنازع وكل منها يرى أنه أحق بالحكم ويرى مصلحة الدولة في أن يأخذ أزمته في يده ليحكمها على طريقته وهذه الأحزاب هي :
(١) حزب العامة أو حزب شعوب الاقاليم وهم من جنود مصر والعراق الذين اشتركوا في الثورة .

وقد اختار هذا الحزب علياً للرئاسة وكان يعطف عليهم طائفة كبرى من أكابر الصحابة

(٢) حزب طلحة والزبير أو حزب الاعيان وهؤلاء كانوا يرون أن الشوار أجزموا بقتل الخليفة وأن علياً أخطأ بأن لبى دعاء العامة والشوار ورضى بأن يكون خليفة

(٣) حزب أمية وهم أسرة الخليفة الشهيد وهؤلاء يريدون الانتقام وكان زعيمهم معاوية يضمّر تحت المطالبة بالثار رغبة قوية ليسترجع مجد أسرته (بنى أمية) التي نزع الاسلام منها الرئاسة .

وكان المتوقع أن يحدث النضال بين هذه الأحزاب

النضال الاول

صار على خليفة باختيار العامة وقد بايعه الأعيان مثل طلحة والزبير ولكنهم بايعوه خوفاً من ان يؤذيهم الشعب اذا هم امتنعوا عن بيعته وقد أبى بعضهم أن يبايع ولكنه وعد وعداً صادقاً ألا يتدخل في الأمر ضده فكان هذا احتيالا منهم للخروج من الخلاف

ولكن ما كاد على يبدأ حكمه حتى رأى حزب طلحة والزبير يستعد لمقاومته في العراق وقد ساعدتهم السيدة عائشة أم المؤمنين بنفوذها الأدبي

فكان لانضمامها أثر كبير في زيادة عدد المقاومين لعلی ولسكن رئيس الأمويين (معاوية) بقى على الحياد في أثناء هذا سياسة منه فقد كان عازماً على أن ينشق على أى الطائفتين تنصر . وقد حدثت حرب قصيرة بين الطائفتين قتل فيها زعيم الحزب (طلحة والزبير) واسرت السيدة عائشة . ولسكن عليها أكرمها كما ينتظر من مثله والتأم أول انشقاق بعد تلك الموقعة . وهي المعروفة بموقعة الجمل نسبة الى الجمل الذى كانت عائشة راكبة عليه . فى هودج كأنه علم للجيش .

النضال بين على ومعاوية

بعد انتصار على فى موقعة الجمل سنة ٦٥٦ لم يكن بد من ظهور معاوية بمظهر المخالف اذ لم يبق له أما ذلك وأما مبايعة على والدخول فى طاعته . فاضطر الى ان يكشف القناع فى عدا مصر يحفانقسم العالم الاسلامى الى حزبين الأول مع على ويشمل أهل العراق وأهل الحجاز وبعض أهل مصر والثانى مع معاوية ويشمل أهل الشام خاصة وبعض أهل مصر وكان كل من الحزبين يمتاز بصفات فكان على رجلاً معروفاً بتقواه وسابقته فى الاسلام وزهده فى الدنيا وتواضعه وبساطته مع تشدده فى أمور الدين والدولة فما كان يسمح بأى حال من الأحوال ان يلين أو يداجى أو يؤلف مادام يرى فى ذلك شبهة مخالفة للدين وكان تشدده محموداً عند العامة ولكنه أدى الى غضب كثيرين من أصحابه وأهل بيته الأقربين وكان جنود على فيهم طائفة كبيرة من السابقين فى الاسلام وفى ذلك ما فيه من الفائدة الأدبية لحزبه أما معاوية فكان رجل دولة وسياسة ماهرآ فى تأليف القلوب ذا شخصية قوية قوة لا يكثر مثلها فى رجال الدول حليماً يكاد حلمه يكون فوق طاقة الانسان ويجمع الى هذه الصفات دهاء وبعد نظر وعدم تردد فى الوصول الى غرضه بأية وسيلة ولو كانت وسيلة تأبأها الأخلاق والدين . وكان جند معاوية معوداً الخضوع له راغباً فى خدمته لما ينال منه من الخير الكثير وكان

كل من حوله يجد منه يدا تبذل وتسامحا كبيرا واحتراما .

فكان على رجل الآخرة ولكن معاوية كان رجل الدنيا .

أحكم معاوية تدبير خططه مع الكتمان في حين كان على يعلن مايعزم عليه لأصحابه ويستشيرهم . وكان أصحاب معاوية خاضعين له خضوع الجنود للقائد اما أصحاب على فكانوا يأبون الا أن ينزل على ارادتهم ولم يخل الأمر من كلمات تهديد تلقى اليه من حين لا آخر من بعض أتباعه حتى انه ضاق بهم صدرا في آخر الأمر

وبعد مراسلات طويلة حدث الاصطدام الحربي في صيفين وهي مدينة على الحدود بين العراق والشام وذلك سنة ٦٥٧ واستمر الاصطدام نحو أربعة أشهر حدث في خلالها عدة مواقع وكان النصر يتم لعلى لولا خدعة معاوية المعروفة وهي رفع المصاحف على الرماح وطلب ابطال الحرب وتحكيم القرآن في الخلاف بين الحزبين

وحدث على أثر ذلك خلاف شديد بين أتباع على وما كان معاوية يرمى الى أكثر من هذا ومن ان يكسب وقتا يصلح فيه من شأنه ويمنع استمرار الاصطدام الذي رأى انه لاشك منهزم فيه وقد اضطر على أخيراً لاتباع الاكثرين من أتباعه الذين وافقوا على التحكيم وأمر بإبطال الحرب وقد غلب على أمره في اختيار المحكم الذي ينوب عنه فاختار أصحابه أبا موسى الأشعري وهو رجل بسيط العقل ولم يكن من أكثر الناس حبا لعلى واختار معاوية عمرو بن العاص بطل الفتح المصري واتفق الحزبان ان يجتمع المحكمان في قرية بين العراق والشام ويكون حكمها فاصلا .

تمت الخدعة ولم يكن معاوية يقصد مطلقا ان يجعل الأمر تحت رحمة كلمة المحكمين ولكنه وثق من دهاء عمرو وبعد أشهر اجتمع الناس لسماع المحكم فأعلن أبو موسى انه عزل عليا ومعاوية حسب الاتفاق الذي تم بينه وبين عمرو وان المسلمين يختارون من يرضونه بدلها وأما عمرو فانه قام بعد ذلك

وأ نكر وجود اتفاق كهذا وأعلن انه يثبت معاوية فعرّف الناس أخيراً انها خدعة
وان التحكيم لم يكن من معاوية الا مهزلة يتستر بها للوصول الى أغراضه
لحقيقية .

وقد اضر على بذلك التحكيم بمقدار ما استفاد معاوية به وكان أول ضرر
أن بعض أتباعه خرجوا عليه لتردده وسماحه بالتحكيم ويسمّون بالخوارج
حتى انه اضطر لمحاربتهم في موقعة (حروراء) وعندما انتصر عليهم لم تلتئم
صفوفه لاضطراب أصحابه وتضارب آرائهم . ولكنه مع ذلك أراد أن يجمع
قوة جديدة لكي يحارب بها عدوه الماكر وقبل أن يتم له ذلك اغتاله
عبد الرحمن بن ملجم أحد الخوارج اذ اتفق مع اثنين آخرين من اخوانه
الخوارج على ان يقتلوا الثلاثة الذين هم سبب تمزيق العالم الاسلامي وهم
علي ومعاوية وعمر وبن العاص ولكن لم ينجح إلا عبد الرحمن قاتل علي
لسهولة الوصول الى ذلك الخليفة الزاهد المتواضع . وكان قتله سنة ٦٦٠

معاوية بن أبي سفيان

لم يبق أمام معاوية بعد قتل علي أحد يخشى بأسه فقد كان الحسن بن
علي رجلاً لنا وكان الحسين صغيراً . وقد حاول أصحاب علي أن يحملوا
الحسن على استمرار النضال ولكنه أخيراً تنازل لمعاوية ولا ندرى على سبيل
التحقيق ماهي الشروط التي قبل بها أن يتنازل عن الخلافة وكان ذلك
التنازل سنة ٦٦١ وهو ما يسمى عام الجماعة ومنذ ذلك الوقت صار معاوية
خليفة المسلمين بغير منازع

وبعد استقرار الامر لم يكن معاوية غير جدير أن يكون ملك دولة
عظيمة فان خلقه وحلمه ودهاءه تؤهله لأن يعد من أكبر الملوك الذين
حكموا العالم الاسلامي .

غير أننا لا بد أن نلاحظ أن الدولة الاسلامية دخلت منذ ذلك الوقت
في عصر جديد ويحسن بنا أن نبين مميزات ذلك العهد الجديد

الخلافة في دور جديد

لقد رأينا محاولات متكررة عند تولية كل خليفة ترمى الى ابتكار طريقة الانتخاب وكان كل خليفة يتبع في حكمه سبيلا يتأثر بشخصيته كل التأثير فكان المنتظر أن هذه المحاولات لابد تسفر في آخر الامر عن نظام صالح للحكم ولو كانت الدولة العربية دولة صغيرة ونمت نموا تدريجيا لا يمكن الوصول الى ذلك ولو بعد عهد طويل من التجارب ولكن نمو الدولة كان أسرع ما عرف عن نمو الدول في التاريخ فكان امام الدولة واجب عظيم وحمل ثقيل وهو المحافظة على تلك الدولة فلم يكن هناك مجال واسع للتجربة وابتكار النظم وتعديلها لأن الاضطراب الذي ينشأ عن ذلك قد يكون فيه خطر شديد على الدولة فكان لابد من أن تصل الدولة سريعا الى نظام ثابت يحفظ فيها الاطمئنان . والحق ان النضال بين على ومعاوية كان من بعض الوجوه نضالا بين الجمهورية الديمقراطية الناشئة التي تريد أن تسير سيرها المضطرب الى أن تستقر أخيرا على أساس ثابت لائق للعرب وبين الحكم العسكري الشبيه بحكم الدولة الرومانية الامبراطورية المتأخرة أو حكم الدولة الفارسية المنقرضة ولا شك أن نظام الحكم الذي سار العرب في تكوينه هذه الخطوات الاولى أيام الخلفاء الراشدين كان النظام الطيب الذي يليق بأمة حرة كالعرب ولكن النظام العسكري الذي أوجده معاوية كان له فائدة واحدة وهي انه حفظ الدولة الاسلامية من الاضطراب الذي كان يهددها من قاعدتها ..

اذن معاوية أوجد خلافة جديدة قائمة على القوة ولا تستمد من الشعب قوتها بل من جيش مأجور وهكذا بدأت الدولة الاسلامية تكون كالدول القديمة مكونة من طبقتين طبقة حكام يملكون القوة وطبقة شعب منعزل عن الحكم خاضع لهم مع الكره

غير أن معاوية بشخصيته خفف من حدة هذا التغيير الجوهرى . فان
لبنه وحاميه وتواضعه مع الرؤساء والعامة وحكمته وبعد نظره جعل الناس
لا يشعرون بالتغيير الكبير الذى طرأ فى الحقيقة على نظام دولتهم
وإذ بدأ معاوية هذه الخطوة كان لابد أن يتبعها بأخرى من تمهيد العرش
لبنته فجعل يأخذ البيعة لابنه يزيد من رؤساء القبائل والاعيان ووصل الى
غرضه بطريقته التى لا تتردد فى الوسائل الى غايتها .

الاحزاب السياسية فى أيام معاوية

لم يخل الجول دولة معاوية كما كان يجب بل كانت هناك سحب ولو أنهم لم تكن
سحب تهدد بخطر عاجل ، غير أن بعد نظر ذلك الرجل جعله يتبين
وجودها ويوجه نظر ابنه وولى عهده اليها وكان أكبر الاحزاب المناوئة
للحكومة هى :

(١) حزب على وقد صارت قيادته فى آخر أيام معاوية الى الحسين بعد
موت الحسن وهذا الحزب كان له أنصار كثيرون فى العراق والحجاز ومصر
(٢) حزب الزبيريين ورئيس هذا الحزب عبد الله بن الزبير وهو رجل
قادر شجاع وكان له أنصار كثيرون فى المدينة والبصرة

(٣) حزب الخوارج وهم بقية الحزب الذى خرج على على بعد التحكيم
وكان هناك بقية أكابر الصحابة والتابعين وهم أعيان الدولة وكانوا لا يحبون
معاوية وبيته ولكن هؤلاء كانوا لا يقدمون على إشعال نار الثورة خوفا على
دماء الناس فكان معاوية لا يعبأ بهم كمعادته إذ كان من كياسته أنه يبيع للناس
أن يفرجوا عن نفوسهم بالنقد الكلامى مهما كان قارصا ولا يؤخذ إلا من
يخرج عليه بالسيف .

الفتوح أيام معاوية

بعد أن فرغ معاوية من مداواة الانقسام الداخلى الذى مزقها منذ موت

عثمان وجه قواه الى مواصلة الفتوح ولم يكن ذلك الا استمرارا على الاندفاع مع التيار الطبيعي - تيار الفتح لأمة ناشئة فتية سارت أول الشوط ولا بد لها من الاستمرار الى نهايته وغزا معاوية في جميع النواحي فمد الفتوح الى الشرق الى ما يلي التركستان والسند والى الشمال فيما يلي بلاد أرمنيا وآسيا الصغرى وبنى أسطولا وأرسل جيشا لحصار عاصمة دولة الرومان ذاتها بقيادة سفيان بن عوف وكان في الجيش ابنه يزيد ولكن ذلك الحصار لم يستطع أن يخضع تلك المدينة ذات الاسوار الحصينة فاضطر لرفعه بعد محاولة فتحها ست مرات في كل صيف مرة وذلك بين سنة ٦٦٨ و ٦٧٤ وقد مات في ذلك الحصار أبو أيوب الانصارى الذى نزل سيدنا الرسول في بيته عند الهجرة .

وفي هذه الاثناء كانت الجيوش العربية توغل في شمال أفريقية بقيادة البطل العربى عقبه بن نافع الذى بنى القيروان بقرب اطلال قرطاجنة وكانت جميع الجيوش المحاربة في هذه الميادين من العرب ورؤساؤها كذلك منهم فكانت الدولة لاتزال عربية محضة ، فالدولة الأموية وان أوجدت نظاماً عسكرياً لم تذهب سيادة العرب بل كانت دولة عربية صميمة

عصور الدولة الأموية

لأنستطيع هنا أن نفصل تاريخ الدولة من جميع وجوهه ويكفى أن نلخص عصور الدولة الاموية السياسية

فان بيت معاوية لم يدم بعده طويلا بل يمكن أن يقال أنه انقرص بموت يزيد فالعصر الاول من الدولة الاموية لا يتعدى أيام يزيد (منذ سنة ٦٦٠ الى سنة ٦٨٤) وأما العصر الثانى فهو حكم بيت آخر من الأمويين غلبوا على الدولة وهو بيت مروان (ومدة حكمه من سنة ٦٨٤ — ٧٥٠)

الدولة بعد موت معاوية

بموت معاوية ذهب الشخص الذى كان واقفا بين النظام العسكرى

المجديد والشعب العربي الحر الذي نشأ في البداوة ودرج في دولة الخلافة نحو تكوين حكومة شعبية جمهورية فأرغم على الخضوع لنظام حكومة فردية عسكرية فلما ذهب تأثير معاوية الشخصي الملطف كان لا بد من أحد أمرين إما أن تعود الحكومة إلى سبيلها الجمهوري الذي يرضى به الشعب العربي وأما أن يوطأ ذلك الشعب ويخضع بالسيف للحكومة الملكية المطلقة وسنرى أن السبيل الذي سارت فيه الدولة هو الثاني ولكن بعد اضطرابات عنيفة جداً .

وكان أول الاضطراب في مدة يزيد بن معاوية فان رؤساء الشعب مع أنهم بايعوا له في مدة حياة أبيه قد بقي منهم أفراد لم يبايعوا أو بايعوا مرغمين وهؤلاء أشعلوا نار الثورة ضده وساعدوا على فكرة الثورة أن يزيد لم يكن محبوباً عند طبقة من طبقات الشعب وكان أول من ثار الحسين بن علي ولكنه لم يفلح وقضى على ثورته في أولها وقتل الحسين نفسه قتلة قاسية في كربلاء وهو قادم في جماعة قليلة من المدينة ليرفع علم الثورة بالعراق .

وقد تحركت النفوس اشفاقاً على الحسين وغضب الاعيان بالحجاز والشعب على العموم عند ما سمع بقساوة أعمال يزيد في معاملته . وقد استفاد عبد الله بن الزبير بذلك الشعور فانه نجح نجاحاً عظيماً في ثورته بالحجاز ومات يزيد قبل أن يقدر على إخضاعه ولم يكن في بيت معاوية بعد موت يزيد رجل كبير راغب في الخلافة وبذلك كانت الفرصة سانحة لعبد الله بن الزبير لو انتهزها لصار خليفة وبدأ القواديفاتحونه في شأن الذهاب إلى الشام ليقاوم دعوة مطالب آخر بالخلافة وهو مروان بن الحكم ولكنه تردد حتى ضاعت الفرصة وقد انقسمت الجنود بالشام إلى حزبين أحدهما يريد عبد الله بن الزبير والاخر يريد مروان بن الحكم الأموي وأخيراً انتصر حزب مروان لتقاعد عبد الله بن الزبير عن الاهتمام بالحضور للشام وتم الأمر لمروان بعد موقعة (مرج راهط) وصار خليفة وهو شيخ كبير .

لكنه لم تطل مدة خلافته فمات بعد أقل من عام وصار الأمر إلى ابنه
عبد الملك بن مروان وهو المؤسس الثاني للدولة الأموية
الدولة الأموية مدة المروانيين

تولى عبد الملك بن مروان ، ونيران الثورة متأججة ، ولم يقتصر الأمر
على ثورة عبد الله بن الزبير بل أن غيره تشجعوا بنجاحه وبدأوا يجهزون
الجيوش لأغراض مختلفة ، وأهم الثوار غير الزبيريين هم :

(١) حزب الشيعة (أنصار علي) وقد بدأ يتكون ذلك الحزب منذ ذلك
الوقت برئاسة أفراد ليسوا من بيت علي ولكنهم يدعون إلى أن تكون الخلافة
لفرد من بيت علي . وكان رئيسهم اذ ذاك المختار بن أبي عبيد

(٢) حزب الخوارج وهم ، استمرار الحزب الذي خرج على علي بعد
التحكيم ، لقد صارت لهم مبادئ محدودة ، ويمكن تسميتهم بالجمهوريين ،
ومن ذلك نستطيع أن ندرك حرج موقف عبد الملك ولكن من حسن
حظه أن بعض هذه الأحزاب كان معادياً لبعض ويمكن أن يقال أن أشد
الخطر على الدولة الأموية كان من قبل حزب أولاد الزبير . وقد نجح
عبد الله حتى صارت له الخلافة في الحجاز والعراق وكثيراً أنصاره في الجهات
الأخرى . ولكن عبد الملك بن مروان كان قرماً شجاعاً وكان له أعوان أشداء
نضرب لهم مثلاً بالحجاج بن يوسف الثقفي ذلك السفاح الجريء فما زال
حتى خلاص الدولة من الثوار بعد حروب شغلت معظم مدة حكمه الطويل
(٦٨٥ — ٧٠٥)

سياسة الدولة المروانية ونتائجها

لم تثبت قواعد حكم المروانيين إلا بالسيف وذلك بعد نضال طويل
سفكت فيه دماء كثيرة من أركى دماء العرب ولم يخل ذلك من أثر في اذهاب
بعض تلك الروح القوية التي دفعت العرب إلى تكوين دولتهم العجيبة

فكان لشدة المروانيين اثران الاول منها سيء وهو اضعاف روح العرب.
والثاني محمود وهو تمهيد السبيل الى تكوين دولة مطمئنة

ولكن بطبيعة الحال كان لا بد من قيام الدولة بالقوة كما تكونت بالقوة.
ومن ذلك الوقت ابتداء الحكم الذى لا يعتد بأرادة الشعب بل يأخذه بالقوة.
ونخضعه للحكم برغمه وهذه اول خطوة فى سبيل ذلك التاريخ الطويل للدولة
الاسلامية الذى يمتاز بشدة وطأة الحكومة واستبدادها وعدم الاعتداد
بقيمة الافراد وحریاتهم .

واذا كانت هذه نتيجة سيئة فليس هناك الا عذر واحد يقام لها وهو
أن المروانيين ما كانوا يستطيعون أن يخضعوا العرب لاسرتهم وحكمهم
الا بالقوة والعنف ، وكانت الدولة لولا ذلك مهددة بعصر طويل من
لاضطراب بين الاحزاب حتى تتمخض الحوادث عن نظام جديد آخر ولم
يكن ذلك النظام المجهول بمحقق الصلاح

لكن الشعوب الاسلامية لم تكن لتخضع لنظام تلك الدولة بغير أن
تتحرك . فلما عجزت عن الثورة علنا دبرت الخطط لقلب الدولة فى الخفاء ،
وهناك عاملان ساعداً أكبر مساعدة على انجاح الدعوة الثورية فى الخفاء
(١) كره الشعب الاسلامى للنظام المروانى القائم على السيف وانصراف
حبه الى الأسرة التى رأوها فى صدر الاضطهاد وهى العائلة الهاشمية .
(أسرة الرسول) وكانت الأسباب التى تقرب هذه الأسرة الى قلوب
الناس كثيرة ومختلفة وليس أقلها أنهم أهل بيت الرسول

(٢) رغبة الشعوب الاسلامية الغير العربية كالفرس مثلاً فى أن تجد فرصة
لاسترجاع مكانتها الأولى قبل أن يسلبها العرب سلطانها والعودة الى التصرف
فى أحكام نفسها فساعدت تلك الشعوب الحركة الثورية فى الخفاء طمعاً فى
أن يؤول الأمر الى دولة جديدة تتخذ منها رجالها وتعيد إليها نفوذها .

وكانت نتيجة هذا أن بدأت دعوة سرية فى بلاد الفرس بنوع خاص .

وكانت تدعو في أول الأمر الى أن تكون الخلافة (للامام) من بيت الرسول
ثم آلت الدعوة أخيرا الى بني العباس الذين أخذوا زعامة الهاشميين في أوائل
القرن الثامن

فتوح الدولة مدة المروانيين

بعد أن استتب الأمر للمروانيين بدأوا يصرفون جهود الشعب العربي
مرة أخرى الى الفتح اذ كان لابد لذلك الشعب الناشئ من الحركة بصورة
من الصور وكانت الفتوح في مدة معاوية قد بلغت اكناف التركستان
والسند في الشرق وأرمينية وآسيا الصغرى وجزائر البحر في الشمال حتى
حوصرت القسطنطينية وبلغ الفتح في شمال أفريقيا الى المحيط الاطلنطي .
وكان امتداد الفتوح زمن المروانيين في كل هذه الوجهات . ويمكن أن
نلخص عصور الفتح المرواني في عصرين

(١) عصر الوليد وسليمان ابني عبد الملك

(٢) عصر هشام بن عبد الملك

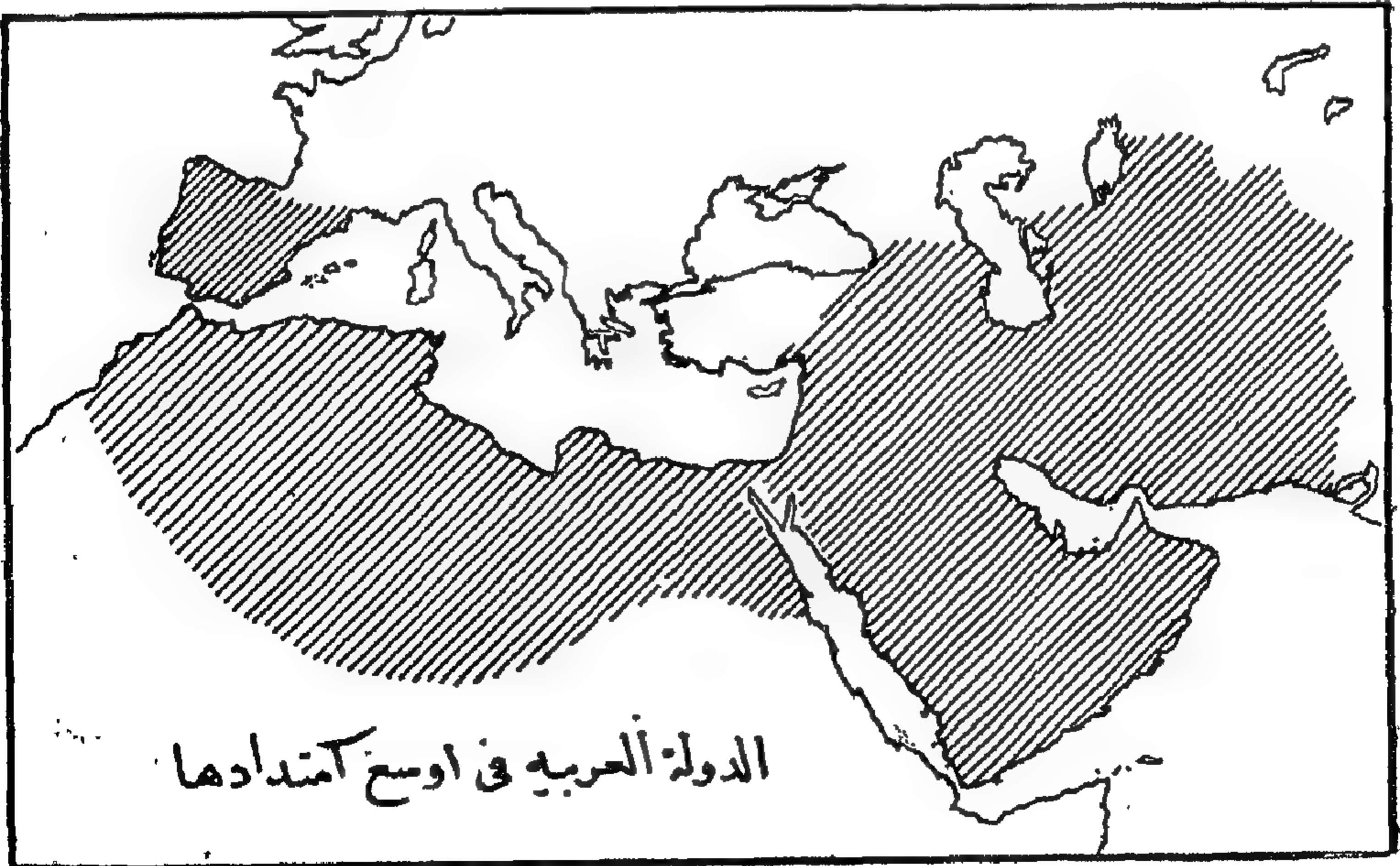
(١) عصر الوليد وسليمان

لما صارت الخلافة الى الوليد بعد ابيه عبد الملك بن مروان لم يكن في
الدولة مشاغل داخلية تذكر ، ولهذا كانت وثبة الجيوش العربية قوية في
جميع الانحاء فقواد الشرق مثل قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم والمهلب
ابن أبي صفرة جعلوا يوغلون في انحاء الهند والتركستان الى ما وراء نهري
جیحون وسيحون وموسى بن نصير مع مولاه المشهور طارق بن زياد
أوغلا في الغرب وعبرا المضيق الذي صار الى الآن معروفا باسم طارق
وهناك هزمت الجيوش العربية جنود القوط الغربيين وقضوا على دولتهم
بعد الانتصار في موقعة (شريش) سنة ٧١١ في حين أن الاساطيل والجيوش
كانت توغل في أرض الروم حتى وضعت الحصار على قسطنطينية للمرة

الثانية في تاريخ الاسلام وذلك سنة ٧١٦
ولم ينبج قسطنطينية الا استعمال النار الاغريقية التي كانت لا تقاوم ، وكان
سرهما مغيبا عن العرب اذ ذاك . ومع ذلك فقد استمر الحصار على شدة حتى
اضطر القائد أخو الخليفة وهو البطل مسلمه بن عبد الملك أن يرفع الحصار
بعد أن استمر أكثر من عام . ولعل سياسة المسالمة التي اتبعها الخليفة عمر
ابن عبد العزيز عند توليته سنة ٧١٧ هـ التي أسرعت برفع الحصار عن
تلك العاصمة الكبرى

(٢) عصر هشام بن عبد الملك

وقف تيار الفتح منذ تولية الخليفة العادل المسلم عمر بن عبد العزيز
فقد كان منصرفا الى الإصلاح الداخلي ولو طال له الأجل لكان أحدث
كثيراً من التغيير الجوهرى في نظام الدولة . واستمرت الحروب هادئة
في مدة يزيد بن عبد الملك الذي كان منصرفا الى اللهو فلم تتجدد الفتوح
الواسعة الا أيام هشام بن عبد الملك وهو آخر عظيم من خلفاء بني أمية وقد
طال حكمه (نحو عشرين عاماً بين سنة ٧٢٤ — ٧٤٤)



(خريطة ٤)

وكان أكبر ميدان للفتوح في أيامه الميدان الغربي مما يلي الاندلس: بعد انتصار طارق بن زياد سنة ٧١١ على جيوش دولة القوط عند شريش انقسمت الجيوش العربية الى أقسام ثلاثة فقسم منها هبط الاندلس الجنوبية ذات السهول الفسيحة وقسم سار الى قرطبة في الشمال الغربي من المضيق وقسم أوغل في الجبال الشمالية وفتح العاصمة الكبرى طليطلة . واستمر الفتح بعد ذلك حتى ملك العرب أسبانيا جميعاً الا بعض القبائل التي في الجبال العالية الشمالية ، والشمالية الغربية ، فان العرب قنعوا منهم بالخضوع .

ولم يكن من الطبيعي أن يقف تيار الفتح بعد الانتهاء من اسبانيا وما كانت جبال البرانس العالية لتقف في سبيل قوم كالعرب لم يزالوا في عنفوانهم فدخلوا الى بلاد الفرنج وفتحوا كل الجزء الجنوبي منها وبلغوا إقليم نهر اللوار حتى وقف لهم القائد الفرنجي الكبير شارل مارتل عند مدينة تور وهناك كانت الموقعة الفاصلة الكبرى (تور) سنة ٧٣٢ ، وانهزم فيها العرب فكانت سنة ٧٣٢ قصارى ما بلغه فتح المسلمين في غرب أوروبا غير أنهم احتفظوا مع ذلك بالانزمام بالجزء الجنوبي من بلاد الفرنج مدة طويلة الى أن تقلص ظلهم عنها تدريجاً بعد أن خبت فورتهم بحكم السنة الطبيعية

آخر الدولة الاموية

مات هشام سنة ٧٤٤ ولم تمض بعده ست سنوات حتى سقطت الدولة الاموية بعد أن تعاقب من خلفائها أربعة بين منصرف للهو وضعيف عن الحكم وقد ثارت الفتن بين الاحزاب المتنازعة على الملك من الامويين أنفسهم ولهذا وجدت الدعوة السرية مجالا فسيحا للانتشار ولا سيما في خراسان حيث ظهرت الجيوش بنادي بأن تكون الخلافة في بيت العباس من بني هاشم وهذه الجيوش كما نتوقع من الشعب الفارسي الذي كان يتطلع الى اعادة مجده بثورة على الدولة العربية المحضة وهي دولة الامويين المكروهة

وحيثما كانت الجيوش العباسية تصطدم بجيوش مروان الثاني آخر الامويين كان الشعب يضرع الفرح ولا يتحرك لنصرة دولة أساءت أساءات عدة ولم تغفر لها حسناتها الكثيرة عندهم .

نظرة في الدولة الاموية

قامت الدولة الاموية على القوة برغم الشعب العربي الذي كان يفضل أحد أمرين إما أن يختار الخلفاء برغبته الحرة وإما - اذا كان لابد من تولية أحد بغير الاختيار - أن يكون الخليفة من بيت بنى هاشم آل سيدنا الرسول وكانت الدولة الاموية تلاقى ما كان يعترضها من العقبات بقوة السيف بقسوة شديدة فزادت تلك القسوة من نفور الناس منها ولا سيما وقد كانت موجهة الى أفراد من آل بيت الرسول مثل الحسين بن علي وزيد بن علي ابن الحسين الذين أصبحوا يعتبرون ضحايا أبرياء لا اعتداء الامويين الغاصبين وليسوا بشوار على الدولة يستحقون العقاب ولهذا كان مركز الخليفة الاموي في منتهى الدقة والحرص فالمكروه دائما تنسى حسناته وتعد سيئاته ويبالغ فيها . ولكن مع ذلك قد أمكن الامويين أن يبقوا في الخلافة نحو قرن وذلك لأن أسرهم الاموية على وجه الاجمال كانت أسرة ممتازة بالنابهن الاقوياء وقلمما يوجد في أسرة واحدة حكمت مثل هذه المدة القصيرة عدد كبير من الحكام الاقوياء كالذي وجد في هذه الدولة : معاوية وعبد الملك والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد كل هؤلاء كانوا أمثلة ظاهرة للقوة والشجاعة وكثير منهم امتاز بحسن السياسة وبعد النظر والاصلاح وقد كانت دولتهم عربية محضة وكانوا على رأسها يوجهون الشعب العربي الى الانحاء المختلفة فساد العالم تحت قيادتهم وتوجيههم وكان وحده هو سيد الدولة الاسلامية وقائدها وجنديها

فاذا كانت الدولة الاموية أفقدت الاسلام نظام الحكم الحر الجمهوري فانها وحدت صفوفه وجعلت دولته أعظم دول العالم وأساسها العرب

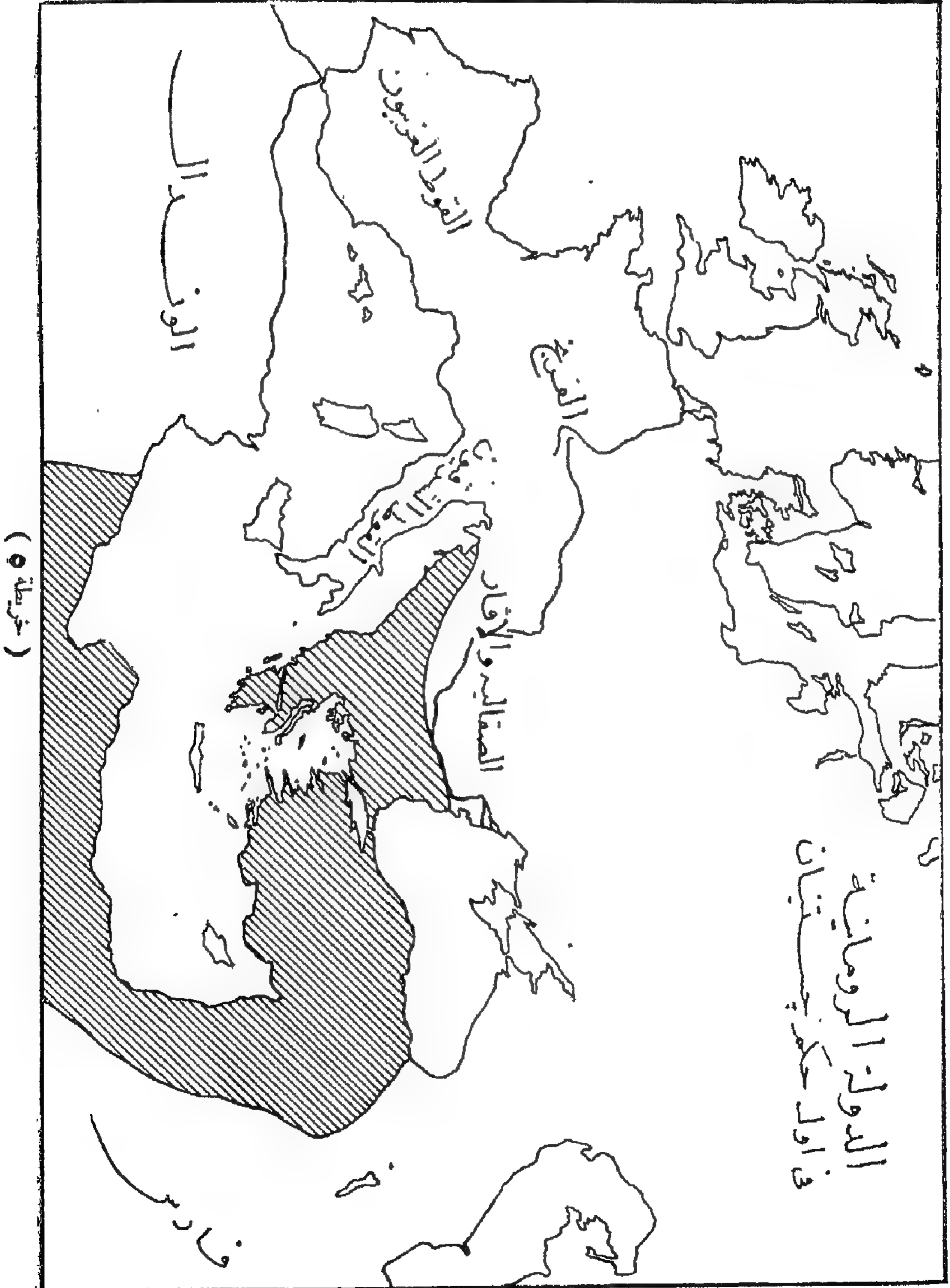
أنفسهم ، ولكن منذ بدأ الخلفاء يضعفون كان سقوط الدولة فجائياً لأن مركزها الحرج الذى تقدم بيانه كان لا يسمح بوجود ضعيف على الدولة بل يحتاج الى رأس قوى يدبر الامور ويقابل الاخطار قبل أن تتجسم .

مابلغته المدنية الاسلامية مدة الامويين

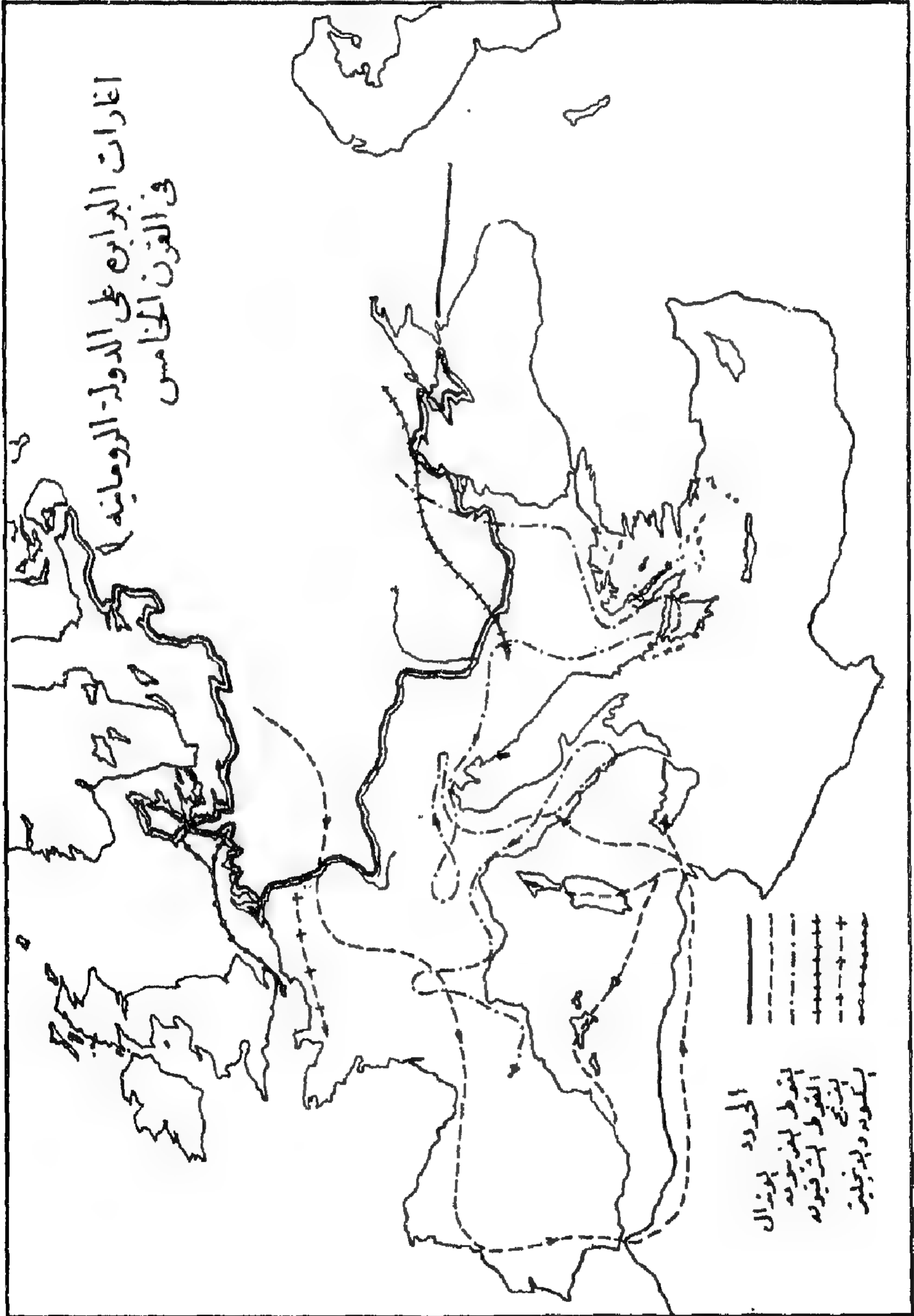
كان العرب فى مدة الخلفاء الراشدين (عصر الجمهورية) خارجين من البداوة فى صحرائهم لاشغل لهم إلا الحرب وقد فتحوا البلاد الفسيحة التى بجوارهم وكان لابد لهم من أن يتأثروا بالشعوب التى غلبوها .
حقاً قد انتصر العرب فى الحرب ولكنهم متى استقروا فى البلاد بعد ذلك يكون لابد لهم من التماس وسائل الحياة المدنية . وعند ذلك تكون الشعوب المغلوبة هي صاحبة التفوق وقد رأينا أن عمر حاول أن يبقى العرب بعيدين عن الاعمال غير الحربية ولكن أنى يستطيع ذلك وسنة الحياة أن الشعب البدوى لابد أن يستقر بعد أن يبلغ مدى فتوحه وهكذا بدأ الشعب العربى يستقر منذ أواخر أيام العصر الجمهورى ويأخذ بأسباب الاعمال العادية من فلاحه وتجارة وصناعة ولكن العرب كانوا فى كل ذلك لا يجارون الشعوب الاصلية فى البلاد وبهذا كان عدد المشتغلين منهم بالتجارة والصناعة فى أول الامر قليلا

ولما جاء العهد الاموى كان العرب قد اعتادوا شيئاً كثيراً من نعيم الامم التى تعيش فى الدول القديمة (الفارسية والرومانية) ولو أنهم احتفظوا بالطباع العربية والعادات العربية يباهون بذلك ويفخرون بأصلهم البدوى لاسيما وقد كان الامر للعرب وحدهم فى الدولة الاموية وقد أثرت الحياة المنعمة التى بدأ العرب يحيونها فى اذواقهم وميولهم العملية ، فنشأ منهم جماعة من الفنانين والكتاب ، وزها الشعر ، وبدأت حركة صغيرة نحو الاشتغال بالعلوم والبحث . فنسمع أن عبد الملك بن مروان استطاع أن يحول لغة الحكومة فى الاقاليم إلى العربية بعد أن كانت اللغات المحلية كما نسمع بنشأة فن

الموسيقى العربية وفن البناء في أواخر حكم الامويين على أننا لا يمكن أن نقول أن الشعب العربي صاحب هذه المدينة الوليدة بل يجب أن نسميها المدينة الإسلامية لأن العرب وإن اشتركوا في بنائها لم يكونوا بطبيعة الحال هم أصحاب السبق فيها . وغاية الأمر أن ذكاء العرب الفطري وحماستهم القوية



عند أول دخولهم ميدان المدينة وقوتهم الحيوية الكامنة فيهم قوة شعب ناشيء لم تزل موفورة وثابة — كل ذلك أعطى المدينة الإسلامية وجهة جديدة ميزتها عن المدن القديمة ، وهي التي زهت فيما بعد في عهد الدولة العباسية في الشرق وفي مدة الأمويين بالأندلس في الغرب ويطلق



(خريطة ٦)

على مجموعها اسم (المدنية العربية) أو خير من ذلك (المدنية الاسلامية)
حال أوربا الى أواسط القرن الثامن

وثب الاسلام وثبته العظيمة التي ذكرناها فيما سبق فغير وجه العالم
تغيراً يمكن أن نقول بشأنه أنه حور العالم ووجهه في اتجاه غير اتجاهه الاول
فمن جهة قد صارت السيادة الحربية للدولة الاسلامية منذ أوائل القرن الثامن
وذلك بعد أن انقرضت دولة الفرس القديمة وتضعضت دولة الرومان وقضى
على دولة القوط الغربية ومن جهة أخرى قد صارت المدنية الى المسلمين
الذين بدأوا يوجهونها وجهة خاصة بهم كما سبق القول

ولكن أوربا كانت لا تزال بها دول يعتد بها وهذه الدول سيكون لها
فيما بعد شأن جديد ولهذا يجدر أن نذكر عنها كلمة موجزة :

بقي في أوربا ثلاث دول رئيسية وهي دولة الروم الشرقية بعد أن
جردها المسلمون من أكثر بلادها ودولة المبردين في ايطاليا ودولة الفرنج .
(١) دول الرومان : ان أهم ما في تاريخ هذه الدولة منذ أول القرن

السابع هو تاريخ علاقاتها بالدول الاسلامية فقد جردها الاسلام من الشام
ثم من مصر ثم من شمال افريقيا وأنشأت الدولة الاموية أسطولاً في البحر
أخذ كثيراً من شواطئه وجزائره وغزا عاصمة الدولة نفسها كما رأينا مرتين
وكان المسلمون بين حين وآخر يغزون على آسيا الصغرى فيشلمون
حدود تلك الدولة في نقط متعددة .

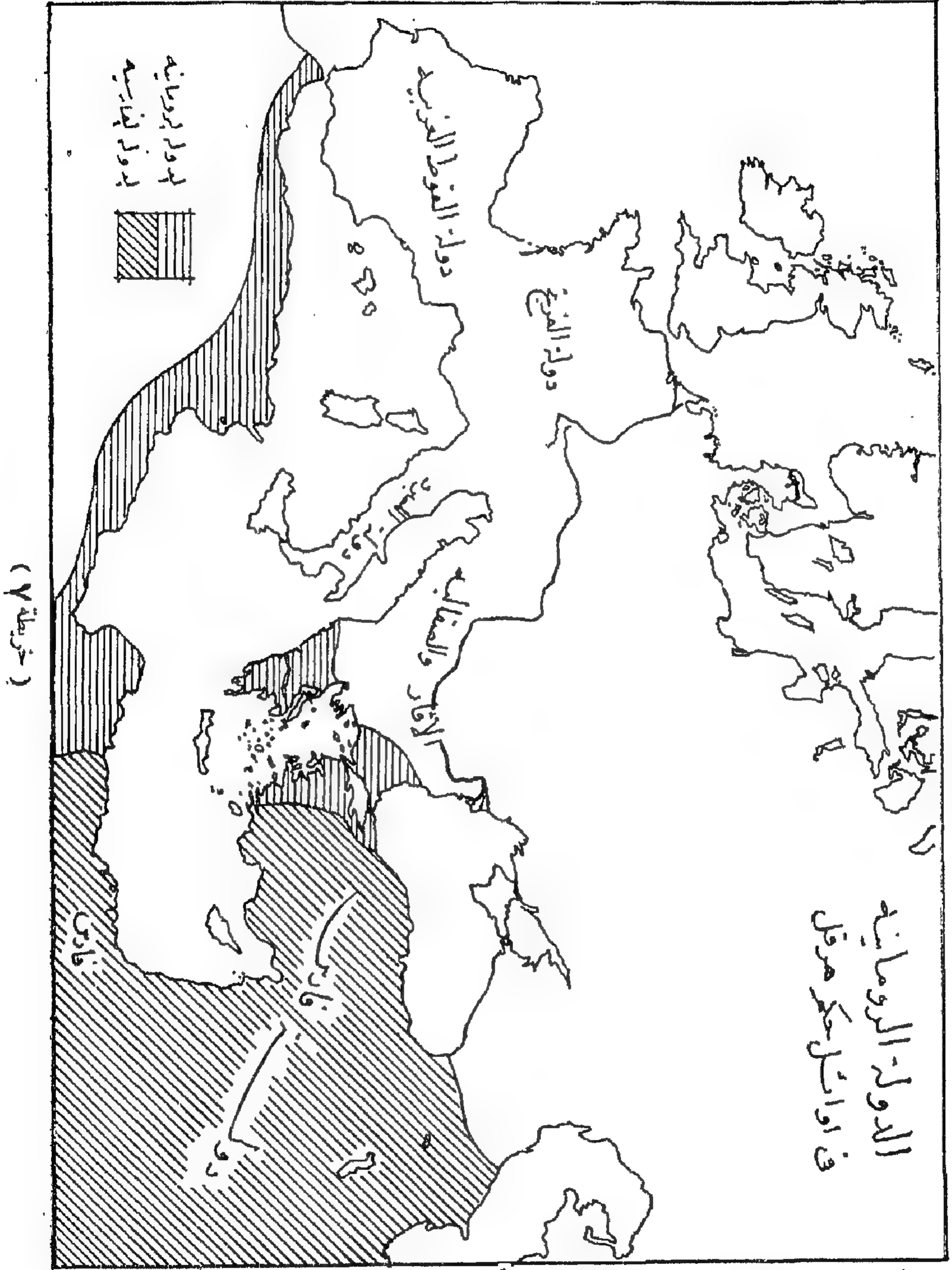
وقد كانت حكومة الدولة الرومانية الى أواسط القرن الثامن تحاول
أن تصلح من شأنها بعد أن اتضح لها ضعفها في النضال مع العرب
ولعل من أظهر ما حاوله الاباطرة في ذلك السيل محاولة (ليو) وهو
الامبراطور الذي رد هجوم العرب الثاني عن قسطنطينية أن يقوم بحركة
اصلاح دينية تسمى في التاريخ باسم (حركة تكسير التماثيل) وذلك أن

الرومانيين تأثروا بنقد الاسلام لهم في تقديس التماثيل في عباداتهم فاحب
ليو أن يزيل هذه من أماكن العبادات حتى لا يتهم الرومان بعبادة الاوثان
ولكن حركته هذه لم تنجح الانجاحاً مؤقتاً وكان لها آثار غير مباشرة كبرى
فان البابا في رومة لم يوافق عليها وغضب على ليو من أجلها وأدى ذلك الى
توسيع شقة الخلاف بين انحاء العالم المسيحي وشطره قسمين وبدأ الخلاف
الكبير الذى بين الكنيستين الشرقية والغربية وسيأتى ما ل ذلك فيما يلى.
(٢) دولة المبردين فى ايطاليا : فتح المبرديون ايطاليا وحلوا محل

الرومانيين فيها بعد أن زالت دولة القوط الشرقية . وكانت دولتهم بايطاليا
غير موحدة كما مراد أن المبردين فتحوا تلك البلاد وهم مقسمون بعد موت
زعيمهم البوين . ولهذا بقيت بقايا من الاملاك الرومانية تتخلل الاراضى التابعة
المبردين وتاريخ ايطاليا فى القرنين السابع والثامن عبارة عن سلسلة محاولات
يقصد بها الوصول الى مداواة تلك الحال فانه بعد فترة عشر سنوات من
موت البوين لم تكن فيها حكومة مركزية اختار الامراء المبرديون ملكا
من بينهم واستمروا بعد ذلك على : (١) محاولة تكوين حكومة مركزية وكانت
تلك الحكومة تجتهد أن تخضع لسلطتها جميع الامراء المتفرقين الذين يشعرون
بحقهم فى الاستقلال (٢) ومن جهة أخرى كانت تلك الحكومة تحاول أن تقلل
من ظل الحكم الرومانى فكانت بين حين وآخر تنزع جزءا من بقايا الاملاك
الرومانية (٣) وكذلك حاولت الحكومة المركزية أن تكون نظاماً شاملاً
خاضعاً لقانون واحد

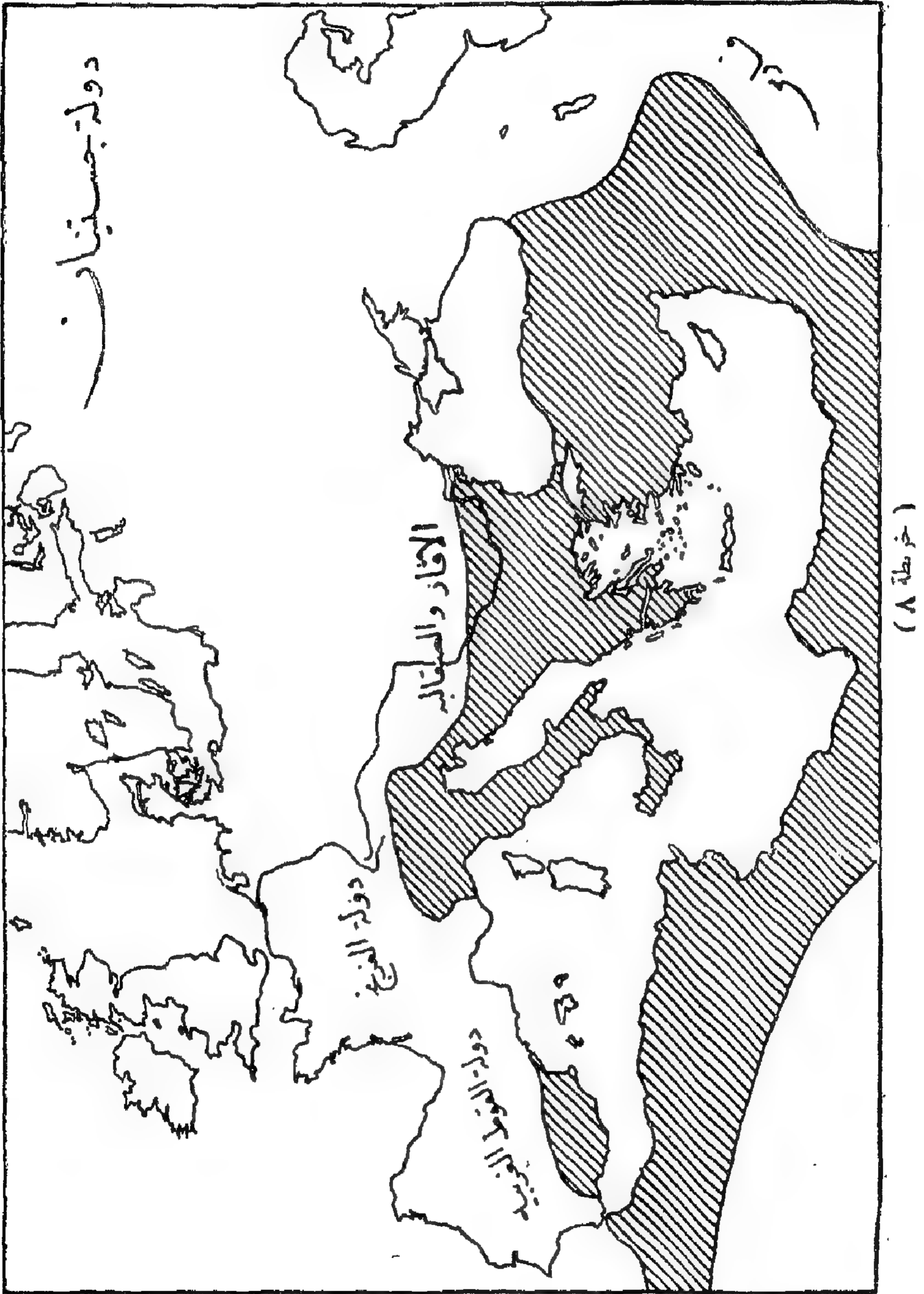
وكان فى ايطاليا شخص له مكانة سامية وهو البابا وقد مر ذكر الطريقة
التي زاد بها نفوذه ولا سيما أيام الملك اجيلولف فى أواخر القرن السادس على يد
البابا (جريجوار الاول) فكان البابا الى جانب الحكومة المبردية فى أثناء
القرنين السابع والثامن ينازعها السلطان ويجدر بنا أن نذكر أكبر ملوك

المبردين في النصف الاول من القرن الثامن وهو (ليوتبراند) فانه مثل
من الامثلة التي تتمثل فيها هذه المحاولات من تلك الوجهات الثلاث



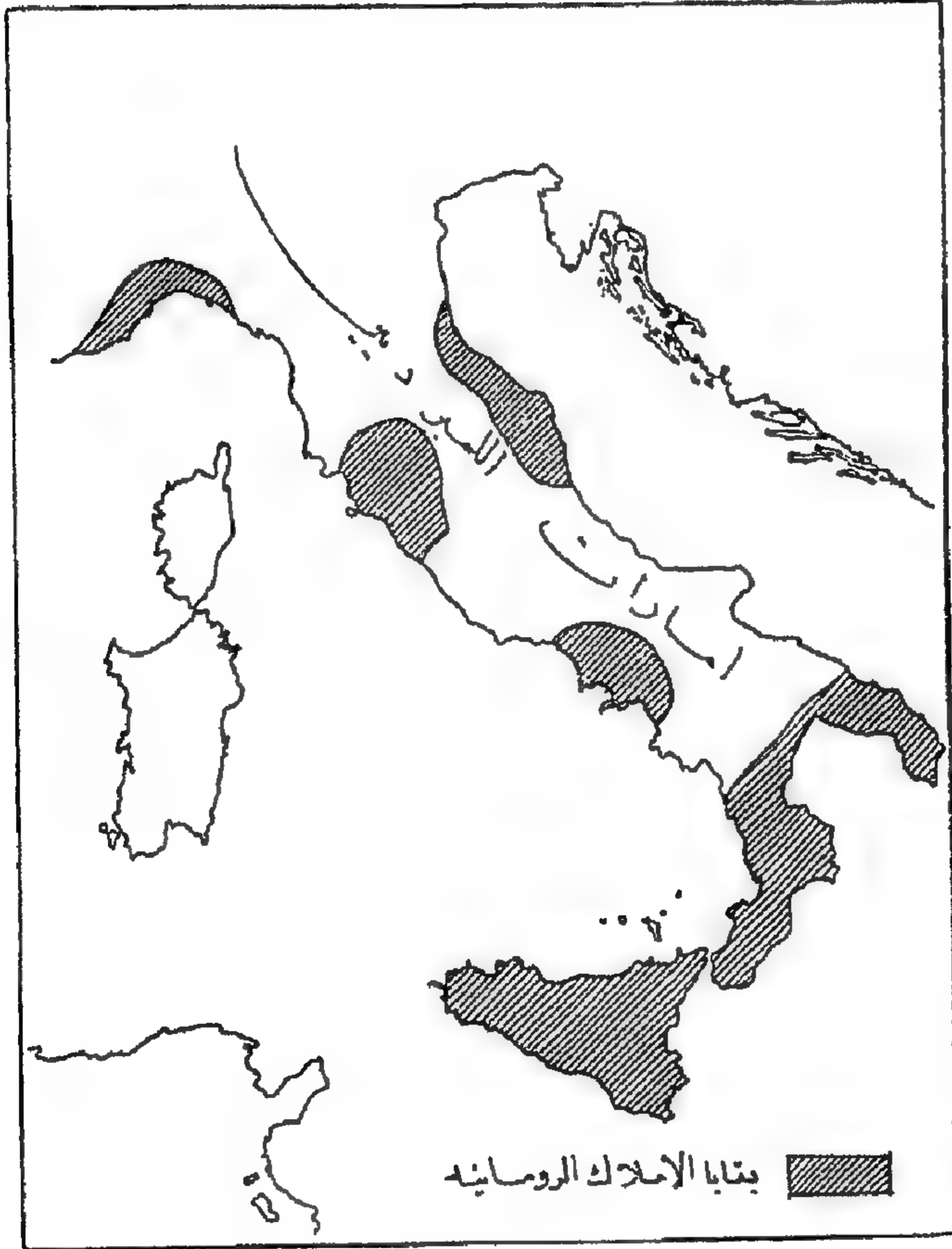
وقد اصطدم ليوتبراند بالبابا فأدى ذلك الى نتيجة غير مباشرة كانت
ذات أثر بعيد المدى فيما بعد وذلك أن البابا بدأ يستنجد ضده بملوك من

الخارج وكان أمامه في العالم المسيحي ملكان الأول امبراطور الدولة الشرقية
والثاني ملك الفرنج فأما الامبراطور الشرقي فقد تقدم ذكر ما كان يدعو



اليه في ذلك الوقت من ابعاد التماثيل عن دور العبادة وتكسيدها وما نشأ
من وراء ذلك من الخلاف مع البابا فلم يكن أمام البابا الا الاستعانة بملك

الفرننج وكان الملك الفرنجي اذ ذاك في يد وزيره المعروف (شارل مارتل) الذي كان هو الحاكم فعلا على بلاد الفرننج فاستعان به البابا وبذلك سن سنة جديدة وهي سنة طلب النجدة من الفرننج ضد الملك اللمبردى وسنرى لذلك نتيجة هامة فيما بعد . اذ من ذلك سيمهد السبيل لفتح الفرننج ايطاليا وازالة دولة اللمبردين واعادة الدولة الرومانية الغربية كما سيأتى .



(خريطة ٩)

ولنذكر هنا أن (شارل مارتل) كان اذ ذاك صديقاً للملك اللمبردى . ليوتبراند لانه كان حليفة ضد المسلمين وطالما أعانه في حربه ضدهم في جنوب فرنسا — ولهذا لم يتدخل (شارل) بأكثر من التوسط في الصلح بين البابا والملك اللمبردى .

(٣) دولة الفرننج : كون الملك كلودوفيج (كلوفس) هذه الدولة كما تقدم وتركها عند موته سنة ٥٢١ ممتدة من أكناف نهر الرين شرقاً الى جبال

البرانس جنوباً ولكن تلك الدولة تقسمت بين أبنائه بعد موته بحسب سنة الفرنجة

وقد ورث أبناء (كلوفس) ما كان في طبع أبيهم من صفات بعضها طيب وبعضها سيء فكانوا في خلقهم خليطاً من القوة والشجاعة والقسوة والغدر .



(خريطة ١٠)

ومهما يكن من الامر فان دولة الفرنج زادت اتساعاً في أيامهم بالرغم من تقسمها . فامتدت من الشرق الى شرق نهر الرين وجعلت الاسلحة الفرنجية تغزو بلاد جرمانيا المجاورة لذلك النهر من الشمال الى الجنوب ولم يقف التقدم عند هذا الحد بل أن الفرنج حاولوا التداخل في إيطاليا في أواسط القرن السادس لولا أن ردهم عنها نارسييس الذي كان قد نجح في اجلاء القوط الشرقيين كما مر . وكذلك ضم الفرنج برغنديا الى دولتهم فأصبحت بذلك كتلة قوية واحدة .

وقد توحدت تلك الدولة العظيمة في يد كلوتار الأول بعد أن مات جميع الأخوته أبناء (كلوفس) غير أنه عند ما مات سنة ٥٦١ رجعت الدولة الى التقسم حسب سنة الفرنج ومن ذلك الوقت نال مع بذرة التضعضع الذي انتاب ملوك دولة الفرنج فان أبناء كلوتار ما لبثوا أن دبّت بينهم العداوة وجندوا شعبهم بعضه ضد بعض وثارّت حروب طاحنة بينهم استمرت نحو أربعين سنة وكان لها أثر عظيم في تلك الدولة من وجوه عدة :

(١) مات كثير من أمراء البيت الميروفنجي (البيت المالك) وهذا مهد السبيل الى حكم الصغار من هذا البيت ومن ذلك الوقت اضمحل شأن الملوك .

(٢) زاد نفوذ الامراء الفرنج في أثناء هذا النضال ولا سيما عند ما ذهبت الاجيال القوية من أفراد البيت المالك ولم يبق الا الصغار الضعاف وكان من أكبر الامراء الذين نبغوا في هذا الوقت الامراء الذين كانوا رؤساء حشم القصر ويطلق عليهم لقب (حجاب السراى)

(٣) انقسم الفرنج الى حزبين أثناء الحرب فانقسمت فرنسا الى قسمين أصبح كل منهما منافساً للآخر وهما القسم الشرقى (ويطلق عليه اسم استراسيا) والقسم الغربى (ويطلق عليه اسم نويستريا)

ويمكن أن يقال أن فرنسا بعد انتهاء تلك الحروب سنة ٦١٣ دخلت في عهد جديد يعرف بعهد (الملوك العاطلين) اذ أن الامراء سلبوا الدولة سلطانها على الاقاليم واستولى حجاب القصر على الحكومة المركزية وأصبح الملك الميروفنجي في يدهم لا أمر له .

وقد زاد نمو أسرة حجاب القصر حتى صارت الحجابة وراثية فيها من أوائل القرن السابع وكان من هذه الاسرة الرجل العظيم (پيبن درستال) الذي اجتمع في يده حجابة القصر في كلا قسمي فرنسا ويمكن إعتباره

في الواقع كما على تلك الدولة نحو ثلاثين سنة فلما مات سنة ٧١٤ خلفه على حجابة القصر ابنه (شارل مارتل) المعروف بوقفته المشهورة أمام العرب شارل مارتل

لم تكن الامور ممهدة أمام شارل عند موت أبيه فان فرنسا كانت في ذلك الوقت معرضة الى أخطار عظيمة تهدد كيان الدولة بالانهيار ففي داخلها كان الاحزاب يتنازعون على السلطة وهم حزب البيت المالك (المير وفنجي) وحزب أخى (شارل مارتل) لان شارل لم يكن الابن الشرعى لابييه ولهذا كان ينافسه أخوه الاصغر الشرعى على حجابة القصر وفي أثناء هذا التنافس كان الامراء الفرنج يسمعون جهدهم ليكونوا سادة أنفسهم لا يقيدهم خضوع لحكم مركزى . أما من جهة الخارج فقد كان أكبر خطر ذلك التيار الجارف الذى لم تقو دولة الروم ولا دولة القوط الغربية على صده وهو الفتح العربى وكان العرب عند ذلك قد بلغوا أواسط فرنسا وكادوا يجعلون حدودهم نهر اللوار بعد الاستيلاء على حوض نهر الرون الحصب وجميع جنوب فرنسا .

غير أن شارل مارتل كان رجل الساعة في فرنسا فانه قضى على جميع الأحزاب المناوئة له في الداخل سنة ٧١٩ واضطرها أن تقف الى جانبه في حرب العرب ثم ألّب جيرانه على دفع ذلك الخطر الداهم على حياة دول الغرب فساعدته ليوتپراندى المبردى مساعدة كبرى وانتصر شارل على العرب في (موقعة تور) سنة ٧٣٢ وهى الموقعة التى تعتبرها دول أوربا فاصلة في تاريخها إذ لولا وقفة شارل ورجوع العرب بعدها عن التوغل في قلب أوربا لكان للتاريخ وجه آخر ولكان للاسلام في أوربا سلطان كبير . وقد أطلق الفرنج على (شارل) لقب مارتل منذ نصره في تلك الموقعة ومعنى ذلك اللقب (المطرقة) تمجيذاً لشدة وطأته :

ولم تكن فتوح شارل مقصورة على الجنوب ، بل أنه عبر الرين شرقاً وجعل يغزو مجاهل جرمانيا ، وبذلك وجه الفرنج في سياستهم الحربية نحو الشرق ، وهي وجهة سنرى فيما بعد أنها تبلغ قصاراتها في مدة حفيده وسميه شارل الكبير . واتبع في فتوحه الشرقية خطة جديدة وهي انه جعل همه نشر المسيحية في القبائل التي يخضعها بسيفه ، فكانت بعثات رجال الدين مع جنوده ينشرون الدعوة الدينية بين قوم لم يسمعوها من قبل بالمسيح . وهذه أيضاً خطة سنرى خلفه العظيم شارل الأكبر يسير عليها ويبلغ بها غايتها .

اتخاذ الحجاب لقب الملك

كان شارل مارتل ملك الفرنج فعلاً ، ولم تبق الى جانبه قوة تذكر لحزب مناوى . ولكنه مع ذلك ظل على لقب الحجابة ولم يغيره فلما مات سنة ٧٤١ كان الموقف عجيباً فان ابنه (پيبن القصير) الذي ورث الحجابة بعده رأى جميع السلطة له ومع ذلك وجد الى جانبه الملك (الميروقنجى) له الولاية الاسمية الجوفاء فأحب أن يضع حداً لهذا الموقف الشاذ ووجد الفرصة سانحة أمامه فان البابا كان محتاجاً الى مساعدته كما سنبين فيما يلى وكان ثمن المساعدة المرجوة أن يصدر البابا فتوى بأن (پيبن) صاحب السلطة الفعلية أجدر من الملك العاقل بلقب الملك فاتخذ پيبن لقب الملك سنة ٧٥٢ وأدى ثمن تلك المساعدة بعد قليل فقد مر بنا أن البابا استعان على (ليوتيراند) المبردى بشارل مارتل ولكن هذا اكتفى بأن يصلح بين رئيس الدين وصديقه ملك ايطاليا — غير أن الخلاف تجدد بعد ذلك بين البابا الجديد وبين الملك الذى بعد ليوتيراند وعاد البابا فطلب معونة (پيبن) ملك الفرنج المدين له بالفتوى التى مهدت له سبيل الملك فلم يتردد پيبن بل أعان البابا ودخل بمجيوشه ونصره بالقوة على منافسه الملك المبردى وجعله ينزل.

للكنيسة عن جميع الارض الواقعة في منطقة تمتد من راقنا شرقا الى رومة غرباً ، ومن ذلك الوقت زاد نفوذ البابا الديوى فأصبح حاكماً على جزء عظيم من أرض ايطاليا

وقد كان الملك پيپن في سياسته سائراً على غرار أبيه وبوفاته سنة ٧٦٨ يبدأ عهد جديد في تاريخ أوروبا على يد ابنه شارل الكبير (شارلمان)

الدولة العباسية ومعاصروها

بينما كانت أوروبا في هذا التطور تحاول أن تدافع أمام سيل العرب الجارف من جهة وتحاول أن تكون دولها الجديدة من جهة أخرى كان هناك تطور خطير في الدولة الاسلامية فان حكومة الامويين التي كانت منذ بدأت مكروهة من الشعب أخذت قبل منتصف القرن الثامن تضعف وتزداد عليها الصدمات العنيفة . وكانت أقوى صدمة عليها خروج أنصار العباسيين (نسل العباس عم النبي عليه الصلاة والسلام) ومحاربتهم لها . وقد تقدم أن الشعب الفارسي كان يطمح الى أن يسترجع عزه الماضي بوسيلة من الوسائل وقد وجد في الانضمام الى لواء الدعاة العباسيين فرصته فلبى مئات الآلاف من أهل خراسان دعوة أبي مسلم الخراساني كبير دعاة العباسيين وبدأت الثورة في خراسان البعيدة عن مركز الحكومة الاموية

ولم يستطع والي قمعها ولم تكن الحكومة المركزية متفرغة لمقابلة تلك الثورة لانصرافها الى المنازعات الداخلية مع المتطالعين للخلافة من الامويين انفسهم وهكذا سارت الثورة سريعاً وكان انتصارها الاول داعياً الى الثقة بالعباسيين وقوتهم وانصرف الشعب عن الامويين المكروهين عندما اتضح له أنهم عاجزون عن مقاومة الدعوة الجديدة ولم يكن الشعب الاسلامي ليقف الى جانب الامويين ليقاوم ثورة تدعو الى جعل الخلافة في بيت عم

الرسول . وكانت الموقعة الفاصلة أخيراً عند نهر الزاب شرق الموصل حيث هزم مروان الثاني وفر وما زال متنقلاً في الاقطار حتى قتل أخيراً بالفيوم في مصر سنة ٧٥٠ . ويمكن أن يقال أن الأمويين خسروا الدولة بانهمزام جيشهم في موقعة الزاب ، إذ لم يجد العباسيون مقاومة تذكر ، ودانت لخلافتهم الاقطار الاسلامية كلها ، وكان أول خلفائهم عبد الله بن العباس المعروف بالسفاح .

وقد أتى القواد العباسيون بأعمال كثيرة حملهم عليها الانتقام من الأمويين فقتلوا من أفراد تلك الأسرة كل نابه حتى لم يبق الا النادر أو الخامل . وكان ممن نجا منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي فر ونجح أخيراً في الاستيلاء على الاندلس وأقام فيها دولة مستقلة عن العباسيين منذ سنة ٧٥٥ وهي دولة الأمويين بالاندلس

ولم يقف انتقامهم عند قتل الأحياء بل أنهم نبشوا قبور الخلفاء الأمويين وأهانوا بقاياهم بأعمال لا يبررها العقل فجلدوها وأحرقوها وقتل السفاح من الناس عدداً كبيراً يقال أنه بلغ ثلثمائة ألف من غير المحاربين ولكن اضطراب العصر لم يجعل أحداً من الشعب يستنكر ذلك العمل ولعل عصر استقلال الرأي كان قد مضى منذ أن أذهبت سياسة الحجاج الروح العربية الحرة . ولكن بعد ذهاب سورة الانتقام بدأ العباسيون يقيمون دولتهم ويستقرون في حكمهم وخبا لهيب الكره والانتقام .

نظام الحكومة العباسية

لم يغير العباسيون نظام الحكم الذي كانت الدولة الاسلامية سائرة عليه في أيام الأمويين فلم يتغير في الدولة الاشياء واحد وهو أن الخلافة صارت في بيتهم بعد أن كانت في بيت منافسيهم ولكن مع ذلك قد كان هناك اختلاف كبير بين حالي الأمة الاسلامية في الدولتين لاختلاف العصور

واختلاف القائمين بأمر الحكم ونلخص هنا وجوه ذلك الاختلاف

(١) كانت الدولة الاموية دولة عربية قائمة في كل انحاء مجهوداتها على الشعب العربي وذلك الشعب وان روض وأخضع كان لا يزال نزاعاً الى روجه القديم ولكن الدولة العباسية قامت على مجهود الشعب الفارسي وهو شعب قديم المدنية معهود الخضوع لحكومته المستقرة منذ القدم فكان هناك ميل الى زيادة البعد بين الحاكم والمحكوم وصار خلفاء العباسيين وطبقة الحكم في دولتهم منعزلين عن الشعب عالين فوقه علواً كبيراً

(٢) كانت الدولة العباسية ذات قداسة لانتسابها لبيت السيد الرسول وهذا زاد من الميل الى علو خلفائها وانعزالهم عن العامة .

(٣) كانت الدولة العباسية محبوبة لشرف نسبها وكانت وراء محبة الناس لها تأتت بأعمال لوأنت بها دولة أخرى لعلا الضجيج من ظلمها ولكنها كانت في مأمن من شرفها يغتفر الشعب لها ما لا يمكن أن يغتفره للحكام من بيت آخر .

(٤) كان شرف الخليفة داعياً الى اعلائه فوق مرتبة الحكم الفعلي ولهذا كان الميل دائماً الى ايجاد طبقة من الحكم يباشرون الاعمال العادية مستمدين سلطانهم من الخلافة العليا . ومن ثم نمت سلطة الوزراء وسواهم من الحكم المباشرين لامور الدولة

(٥) تقدم الشعب الاسلامي في سبيل الاستقرار والمدنية في مدة العباسيين وبدأ ينصرف الى وجوه المدنية من الانحاء المختلفة وقد اجتمع هذا الانصراف مع الظروف الأخرى فكانت النتيجة انعزال الشعب عن الاشتغال بالامور العامة والسياسية تدريجاً . وهذا أدى الى وجود صفة يمتاز بها العالم الاسلامي منذ ذلك الوقت وهو وجود طبقتين متفرقتين منفصلتين طبقة رجال الدولة وطبقة الشعب العام .

وكانت الطبقة العليا من رجال الدولة مكونة من الساسة ومن الجنود وما دام الشعب منصرفاً عن أمور الدولة كان لا بد من التماس رجال السياسة والجنود من الخارج وهذا ما أدى إلى اتخاذ الجنود الأجانب كالاتراك والديالمية الخ وهذه صفة غالبية على تاريخ الدولة العباسية حتى لقد يمكن تقسيمها إلى أدوار كل دور منها يمتاز بسيادة شعب معين من الشعوب

أدوار الدولة العباسية

يمكن تقسيم تاريخ العباسيين إلى الأدوار الأربعة الآتية

- (١) دور سيادة الفرس ومدته من أواسط القرن الثامن إلى أواسط التاسع
- (٢) دور سيادة الجنود الاتراك ومدته من أواسط التاسع إلى أواسط العاشر
- (٣) دور سيادة الديالمية ومدته من أواسط العاشر إلى أواسط الحادي عشر
- (٤) دور سيادة السلاجقة ومدته من أواسط الحادي عشر إلى أواسط الثالث عشر وهو آخر حياة الدولة العباسية إذ سقطت بغداد في يد التتار

سنة ١٢٥٨

الدور العباسي الاول

بعد اشتداد الأمور وهدوء ثورة الحرب بدأ العباسيون كما ذكرنا يقيمون دولتهم على قواعد المدنية الإسلامية التي بدأها المسلمون في الدولة الأموية غير أن العباسيين حولوا مركز الخلافة إلى بغداد التي بناها الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور على نهر دجلة ولعل أكبر ما دعا إلى اتخاذ ذلك المقر الجديد أن العباسيين ما كانوا ليأمنوا أن يجعلوا مقر حكمهم دمشق وهي التي كانت الأسرة الأموية فيها ذات عز وانصار وان اتخذ بغداد في وسط الشعب الفارسي لدليل على أن ذلك الشعب هو الذي كان العباسيون يركنون إلى ولائه .



(شكل ٤ — باب في أسوار بغداد)

وقد توالى على الخلافة في ذلك العصر جماعة من أقوى الحكام شخصية
فبعد عبد الله السفاح جاء أبو جعفر المنصور ثم المهدي فالهادي فالرشيد
فابن الرشيد الأمين والمأمون وكان المعتصم آخر تلك السلسلة المتينة واليه
يرجع السبب في ادخال سياسة جديدة في الدولة سياسة اتخاذ الجنود
الأتراك بدل الركون الى الفرس كما سنرى . ولم يكن في عصور الدولة
الاسلامية عصر أشد نشاطاً في بناء المدنية من ذلك العصر فان قوى الدولة
وخير عناصر الشعب الاسلامي اشتركت معاً في الانشاء من جميع نواحيه ،
ولا يفوتنا ذكر النهضة العلمية العجيبة التي اشترك فيها بعض الخلفاء العباسيين
أنفسهم فان أبا جعفر كان ممن شجع التأليف والترجمة وكان الرشيد من علماء

الخلفاء ، وكان المأمون من أكبر الخلفاء بحثاً وميلاً للعلم ، واکراماً لأهله ولم يكن العلم وحده مميز تلك النهضة بل ارتقت الفنون بأنواعها درجات واسعة فال موسيقى بلغت مبلغاً جعلها علماً له قيمة سامية وازدهر فن البناء والنقش العربى وصارت بغداد جميلة تباهى بما حوته من مبان فخمة وقصور بدیعة يسكنها شعب مزدحم نام من جميع نواحيه المادية والفكرية وقد نمت الثروة الزراعية والتجارية والصناعية وشجع على زيادتها ما كان فى الدولة من قوة تحفظ عليها أمنها وتقوم على اصلاح سبل الحياة فيها من اصلاحات هندسية لتحسين الرى وتحسين طرق الاتصال وسواها وكانت الحياة المنعمة فى بغداد أكبر ما يشجع المصنوعات الثمينة كالحرير الموشى والسلاح المزركش وصناعات العطور وما إليها من مستلزمات حياة النعيم ولم تنس حكومة ذلك العصر أن تنشئ المدارس والمستشفيات ولو أن تلك المنشآت لم يكن لها فى نظرها المكان الذى لها فى العصر الحاضر على أن الدولة لم تخل من وجود مسائل معضلة فى ذلك العصر كانت بين حين وآخر تشغلها عن التفرغ الى الاعمال السلمية . وهذه المسائل بعضها خارجى وبعضها داخلى

المسائل الخارجية

(١) وجدت الدولة العباسية بطبيعة الحال على رأس العالم الاسلامى فى مواجهة الدولة المسيحية الكبرى وهى البيزنطية التى كانت منذ نهضة الاسلام هدفا لهجمات الدول الاسلامية . فكان من المحتوم أن يستمر النضال معها لتجاوز التخوم وضرورة الاحتكاك المستمر بين دولتين ذاتي عقليتين مختلفتين ومدنيتين منفصلتين فثارت الحروب على الحدود عند آسيا الصغرى بغير انقطاع تقريباً ، وقد مات الرشيد فى إحداها ، ولا ينسى التاريخ اغارة المعتصم على آسيا الصغرى ، ووصوله الى عمورية انتقاماً لامرأة مسلمة بلغه أنها

استجارت باسمه من اعتداء الرومانيين عليها . ولكن تلك الحروب وان خرجت الدولة الاسلامية فيها غالبية في كل مرة ليست مثل الحروب التي كان يشنها المحاربون العرب مدة معاوية أو سليمان بن عبد الملك فان أغارات الأمويين كانت كالسيل الجارف ولم تكن حروب حدود كحروب الرشيد والمعتصم .

(٢) لم تكن الدولة الرومانية هي الجار الوحيد الذي يناضل مع دولة الخلافة العباسية فانه إلى شرقها كانت شعوب الترك تسترعى انتباه الدولة بين حين وآخر كما أن هناك دولة اسلامية منافسة في الغرب وهي دولة الاندلس وكانت دائماً تنتهز الفرص لأذى العباسيين والانقضاض على أرضهم وقد كان هذا الخطر ماثلاً أمام العباسيين مثولاً مزعجاً حتى أن بعضهم كالرشيد العظيم اتخذ صديقاً من ملوك الفرنج (شلمان) ليكون مساعداً له على تلك الدولة ليشغلها عن دولته . وقد كان أمراء الاندلس من جهتهم يلتمسون أذى العباسيين ولو بطريق غير مباشر بمصادقة الدولة الرومانية الشرقية وتشجيعها على حربهم .

المسائل الداخلية .

ولكن في داخل الدولة الاسلامية كانت هناك مسائل كبرى تسترعى اهتمام الخلافة العباسية ولو أنها لم تكن في أول الأمر مسائل تستعصى معالجتها .

(١) منافسة الشيعة

كان العباسيون في أيام الأمويين فرعاً من البيت النبوي وكانت الدعوة السرية في مبدأ الأمر تدعو إلى أن يكون الخليفة من بيت الرسول (أي من نسل علي لأن نسل الرسول لم يحفظ إلا من طريقه) ولكن العباسيين ظهرُوا في آخر الأمر في الصدر ونمت الدعوة باسمهم وصاروا هم الخلفاء

فكان هذا سببا في حقد أبناء عمهم العلويين وكانت كراهة العلويين تظهر من حين الى حين في شكل ثورة صغيرة أو مؤامرة تضطرب لها الدولة مثل ثورة النفس الزكية وهو محمد بن عبد الله المحض من نسل الحسن بن علي وكانت بالمدينة ثم ثورة أخيه ابراهيم بن عبد الله بالبصرة وغيرهم

(٢) انفصال الاطراف

لم يكن من الطبيعي في دولة من الدول أن يمتد سلطانها الى زمن غير محدود على أراض متباعدة وأقاليم متباينة وشعوب مختلفة وهكذا كان أمر الدولة العباسية ، فان امتدادها من حدود الصين والهند الى المحيط الاطلسي لم يكن طبيعيا ولم يكن ليستمر الا ما بقيت قوة المركز عظيمة قادرة على حفظ عقدها من الانفراط ، ولكن كان الميل دائما الى حدوث ذلك الانفراط . وقد بدأ فعلا تحققه منذ أيام الرشيد عند ما سمح لأسرة ابراهيم بن الاغلب ان تحكم شمال أفريقية مستقلا على أن يدفع مقدارا من المال كل عام . ثم تبع ذلك انفصال جزء من التركستان في أيام المأمون ومن ذلك الوقت أخذت اطراف الدولة في الانحلال عنها ولو أن ذلك كان ببطء غير محسوس . وقد كانت مصر بين الدول التي سارت في سبيل ذلك الانفصال منذ أواسط القرن التاسع كما سيأتي

(٣) زيادة نفوذ الفرس

قامت دولة العباسيين على مجهود الفرس كما مر واتخذت مقرها بين ظهرانيهم وكان كبار رجال الدولة والجيش منهم بطبيعة الحال . وقد سبق ذكر أن الفرس كانوا شعبا قديما المدنية يحاولون أن يسترجعوا عزها وقد ساعدوا العباسيين وكانت مكافأته أن الدولة الجديدة كانت فارسية في كل شيء الا الاسم .

غير أن الخلفاء العباسيين كانوا شديدي الغيرة أن يروا آثارا من آثار انصراف الامر الى سواهم وهذا يفسر ايقاع أبي جعفر المنصور بأبي مسلم الخراساني

وقتلوه وهو صاحب الفضل في تكوين دولته وهذا نفسه يفسر ايقاع الرشيد بالبرامكة وزرائه الفرس العظام وهم الذين كان لهم الفضل الاكبر في ازدهار الدولة مدة حكمه (١) فانه لم يقو على الابقاء عليهم عند ما رأى تسرب السلطة اليهم وقد زاد سلطان الفرس عقب انتصار المأمون على أخيه الأمين (٢) في الحرب الداخلية التي ثارت بينهما حتى صار كل الامر في يدهم فلم يستطع المعتصم الا أن يدخل عنصراً جديداً ليقاوم به نفوذ الفرس المتزايد وهو شعب الترك فاستكثر من ادخالهم في الجيش وتم الانقلاب ومن ذلك الحين صارت قوة الدولة مرتكزة على جيش جلب أفرادهم من الخارج منعزلين عن كتلة الشعب انعزالاً تاماً حتى صارت لهم عاصمة وحدهم وهي (سرمن رأى) في شمال بغداد .

(٤) زيادة الحركة الفكرية

قد تؤدي الحركة الفكرية المطلقة الى قيام أحزاب سياسية متطرفة الرأي في ناحية من نواحي الفكر . وقد تؤدي الى التعمق في البحث في السياسة

(١) كان يحيى بن خالد بن برمك مؤدب الرشيد وكان الرشيد يحبه كأبيه وجعله وزيره وكان أبناء يحيى أكبر رجال الدولة في عصره (وهما جعفر والفضل) وقد قاموا بأمور الدولة خير قيام حتى بدأ الرشيد يسيء الظن بهم ويوحس خيفة من زيادة نفوذهم بهم من الفرس وقد وقع في نفسه أنهم ميالون الى الحزب العلوي فأوقع بهم وقعته المشهورة فقتل جعفر ومات أبوه وأخوه في السجن وهناك قصص مختلفة عن سبب الايقاع بهم ولكنها أقرب الى أن تكون وليدة الخيال .

(٢) كان المأمون ابن زوجة فارسية للرشيد وكان الأمين ابن زبيدة العربية وقد تردد الرشيد فيمن يوليئه العهد منهما لان المأمون كان زكياً يحبه أبوه لما يتوسمه فيه وكان الأمين أكرم أصلاً وأحب الى رجال الدولة فعهد الرشيد اليهما أن يكون الأمين الخليفة بعد أبيه وأن يكون المأمون حاكماً على الشرق (فارس وما يليها) ويكون قائداً للجيش . ولكن الأمين نفس على أخيه ما أعطاه أبوه من الحكم فلم يلبث أن نقض عهد أبيه . وبدأ بحرب أخيه وكانت النتيجة انخذه وانتصار المأمون عليه وكان أكثر رجال المأمون من الفرس الذين كان المأمون يسميهم أخواله .

أو في الدين أو في الاخلاق فيؤدي ذلك التعمق الى نتائج تكون غير متلائمة مع بقاء حال الدولة كما هي . وهذا ما حدث من آثار الرقي الفكري الذي بدأ في الدولة العباسية وكان بعض الخلفاء يخشى ذلك الى حد كبير فيقاوم تلك الحركات الفكرية مقاومة شديدة ونذكر أمثلة من ذلك مقاومة المهدي لما كان يسمى بالزندقة ومقاومة بعض الخلفاء المتأخرين لاصحاب مذهب المعزلة الخ .

الدور العباسي الثاني

(من منتصف القرن التاسع الى منتصف العاشر)

يبتدىء من بعد حكم الواثق الذي جاء بعد المعتصم ويمتاز ذلك العصر بسيادة الجنود الأتراك وغلبتهم على الأُمراء فانهم منذ شعروا أن الدولة قائمة على سيوفهم جعلوا أنفسهم سادتها وبسطوا أيديهم بالبطش في جميع الانحاء حتى تعدت الى الخلفاء أنفسهم فصاروا لا حول لهم ولا قوة ثم كثرت المؤمرات من بعضهم على بعض وقتل في تلك المؤامرات بعض الخلفاء مثل (المتوكل على الله) وارتكبت فظاعة لا مثيل لها في عقاب من يخالف ميول الجنود وكثيرا ما سملت عيون الخليفة أو عذب ولا شك أن مثل هذا العصر ينعكس فيه صدى الحوادث السياسية على أمور البلاد كلها في الداخل والخارج ويكون أثرها في كل ذلك سيئاً . وقد بدأت فيه الدولة العباسية في سبيل الاضمحلال والنسقوط حربياً أمام جيرانها ومدنياً في داخلها . وبدأت في تلك الاثناء حركة الانفصال عن المركز تتخذ شكلاً هائلاً

فقامت في شمال افريقيا دول مستقلة أكبرها دولة الفاطميين وتقاص ظل الدولة العباسية تماماً عن تلك الجهات . واستقلت مصر استقلالاً لم تعد بعده الى الدولة العباسية

وقامت في البلاد الشرقية دول متعددة يحكمها أمراء من كبار الترك والفرس وأكبر هذه الدول دولة بني بويه . وصارت الخلافة لا تحكم الا على رقعة صغيرة نسبياً وهي العراق وما يليه .

وبدأت كفة الحروب الخارجية ترجح الى جانب جيران الدولة وأكبر هؤلاء الدولة الرومانية الشرقية التي استرجعت كثيراً من بلادها التي فقدتها في آسيا الصغرى والجزيرة وانتهى امر الدولة العباسية اخيراً بأن يتسلط عليها أمير من الأمراء الذين نمت قوتهم في بلاد فارس وهو معز الدولة بن بويه

ومن ذلك الوقت دخلت الخلافة في الدور الثالث الذي يمتاز بأنها صارت محكومة بأمر فاتهم أتي غازياً غالباً وصار الخليفة الى جانبه في مكان الذي تحت الحماية . ولو أن صفة الخليفة الدينية وشرف نسبه العباسي كانا عاملين على المحافظة على سلطانه الاسمي وقنع ملوك بني بويه بالحل الثاني في الظاهر مع الاستيلاء على كل أمور الدولة فعلاً .

الدور العباسي الثالث

(من أواسط القرن العاشر الى أواسط الحادي عشر)

ويسمى ذلك الدور بعصر الديلم لان بني بويه يسمون الديلمة اما لانهم من شعب الديلم الفارسي المجاور لبحر قزوين واما لان منشأ دولتهم كان في تلك البلاد .

وليس لهذا العصر صفة يمتاز بها عن سابقه من جهة اضطراب حال الدولة في الداخل وضعفها أمام جارتها الدولة الرومانية من جهة والدول الإسلامية المستقلة من جهة أخرى فقد تقدم تيار الانتصار الروماني الى أن قربت الجيوش الرومانية من بغداد نفسها

ويمكن أن يقال أن في هذا الدور قد تم انقلاب عظيم وهو ظهور منافسة الشيعة وتغلبهم. فان البويهيين أنفسهم كانوا من الشيعة العلوية وهم أصحاب السلطة في الشرق في حين أن دولة الفاطميين التي نشأت في أوائل القرن العاشر في شمال افريقيا بلغت أكبر عزتها في هذا الدور فلكت كل شمال افريقيا الى مصر وبسطت سلطانها على الشام بل أن اسم الخليفة الفاطمي ذكر مرة على منابر بغداد ذاهبا . وهكذا تمكن الفاطميون العلويون أخيراً من أن يثأروا لانفسهم ويظهروا بمظهر المنافس الخفيف أمام أبناء عمهم العباسيين الذين ضعف سلطانهم الى ذلك الحد في القرن الحادى عشر .

الدور العباسى الرابع

(من أواسط القرن الحادى عشر الى أواسط الثالث عشر سنة ١٢٥٨) .

هذا ما يمكن تسميته بعصر السلاجقة نسبة الى تسلط أمراء الاتراك الذين ينسبون الى جد اسمه سلجوق . وقد كان منشؤهم في بلاد فارس حيث نمت دولتهم في أيام تسلط الديلمة وما زالوا حتى صارت أمارتهم أقوى أمارات الشرق فاستنجد بهم الخليفة أثناء فتنة من الفتن الكثيرة التي كانت تثور بالعاصمة بين حين وآخر وكان أمير السلاجقة اذ ذاك (طغرل بك) وهو أول أمير حكم في بغداد من السلاجقة

وعصر السلاجقة هو الثانى لوجود دولة فاتحة تحكم بغداد ولكن هناك فرقاً كبيراً بين علاقة السلاجقة بالخلافة وعلاقة سلفهم البويهيين بها فان السلاجقة كانوا سنيين وليسوا من الشيعة وكانت علاقتهم بالخلافة علاقة في مجموعها طيبة وقد قنعوا بالسلطة الفعلية وتركوا للخليفة كل مظاهر الابهة والعظمة وعملوا معه على وفاق وكانوا جنوداً شجعاناً يؤيدهم جيش من بنى جنسهم الاتراك فاسترجعوا القوة الحربية للخلافة العباسية وظهرت على

يديهم جيوش المسلمين على جيوش الدولة الرومانية وعادت الى الخلافة قوتها الحربية وتجددت سلطتها على أكثر البلاد التي فقدتها في الدورين الماضيين حتى صارت مرة أخرى سيدة جزء كبير من العالم الاسلامي القديم من حدود الهند والصين الى حدود مصر

وأخذت الشام من الدولة الفاطمية التي كانت تهدد بالاستيلاء على جميع أرض الدولة العباسية من قبل ثم فتحت جيوش السلاجقة كثيرا من آسيا الصغرى حتى صارت قرب بحر مرمرة وجعلت قسطنطينية مرة أخرى تخشى غزو المسلمين لها .

حدث هذا الانتعاش الحربي على يد سلاطين السلاجقة الاوائل وهم طغرل بك والبال ارسلان وملك شاه الذين حكموا ما بين سنة ١٠٥٥ - سنة ١٠٩٢ ولكن ما لبثت الدولة العباسية بعد حكم هؤلاء الثلاثة أن تفككت واعتزلتها حوادث ذات بال وتكونت بعد ذلك في قلبها دول جديدة سنرى ذكر تاريخها فيما يلي أن انتهى أمرها سنة ١٢٥٨ عند ما أغار عليها سيل التار الجارف وحطم ما تخلف بها من آثار المدنية الاسلامية المظيمة كما حطم ما تخلف من تلك المدنية في جميع بلاد الشرق .



(شكل هـ - مسجد بغداد)
بقايا مما أفلت من يد التخریب

نظرة في أسباب اضمحلال الدولة الإسلامية

تتشابه الأمم في أسباب قيام مجدها وأسباب اضمحلالها ، وإنا لنجد ذلك واضحا في حال الدولة الإسلامية فان أسباب قيام مجد الدولة الرومانية كما أن أسباب اضمحلالها تشبه في أكثر الوجوه أسباب اضمحلال تلك الدولة . غير أن اختلاف الشعوب والاقاليم يسبب وجود بعض عوامل خاصة في اضمحلال الدولة الإسلامية ، وإنا ذا كرون اكبر هذه الأسباب

تغير روح الشعب :

ان الروح التي اثارها الاسلام في العرب هي التي دفعتهم الى الفتوح وكانوا قوما بدويين لم تضعفهم المدنية ولم تذهب بقوتهم مفاصد الترف ولكن تلك الروح لم تلبث بعد اتساع الدولة أن تغيرت وفقد الشعب الاسلامي تدريجا قوة النضال والقدرة على الكفاح . وقد ساعد على الوصول الى هذه النتيجة سريعا أن الحكومات شجعت على أضعاف الروح المعنوية رغبة منها في القضاء على الثورات الداخلية . وكان هذا منذ أيام الحجاج . ثم زاد الامر عند ما استولى العباسيون فانهم أعرضوا عن العرب واتخذوا جنودهم من الفرس ثم أعرضوا عن هؤلاء واستعملوا الترك في جيوشهم وهكذا أبعد الشعب الاسلامي تدريجا عن أمور السياسة والجندية ففقد العامة على توالى الزمن الانصراف الى تلك الميادين واكتفوا بالأعمال السلمية تاركين السياسة والجندية للجنود الاجنبية

الجنود المرتزقة :

منذ استعمل الخلفاء الجيوش المرتزقة صارت الدولة الإسلامية

في يد قوادهم يتنازعون على السلطة ويستنزفون الخزائن العامة غير مبالين بشيء إلا أغراضهم الخاصة .

نظام الاقطاع :

وهذا يختلف في الشرق عنه في الغرب فان منشأه في الشرق كان أن يكل الخليفة الى أمير من الامراء جمع الضرائب نظير مقدار من المال يتعهد أن يفي به لخزانة الدولة وهذا كان مبدأ استبداد الامراء وتغلبهم وكانوا يسيئون الى الشعب بثقل الضرائب التي يجبرونها منه وأدى ذلك الى اضعاف الثروة وتقليل الانتاج .

استبداد الامراء :

مما يسترعى النظر أن الحكومات الاسلامية ولا سيما في العهد الأخير لم تتبع الخطة الجمهورية التي سار فيها الاسلام في مبدأ الامر بل أن الامراء المسلمين الذين حكموا الاقاليم المختلفة منذ الدور العباسي الثاني يمتازون بشدة عسفهم وانعزالهم التام عن الشعب وكانوا ينظرون الى الشعب كأنه فريسة وان وظيفته امداد الامراء بالمال ليساعد على مجدهم الشخصي وبذخهم وترفيههم..

فساد الاخلاق العامة

ان الفظائع التي كان الحكام يرتكبونها والتي بالغ فيها الجنود منذ الدور الثاني العباسي كان لها أثر عظيم في الاخلاق العامة فانها كانت أمثلة سيئة ولهذا نسمع بكثير من حوادث الاضطهاد والمصادرة والتعذيب التي لانسمع بمثلها الا قليلا في الامم التي على مثل مدنية الدولة الاسلامية .

وقد زاد الطين بلة أن الشعب العام تأثر بهذه الأمثلة في آخر الامر وانحط لهذا مستوى الخلق عنده

الاضطراب والاحزاب

لم يكن الاضطراب في الدولة الاسلامية مقصوراً على حوادث الجنود

وثوراتها بل نسمع بأحزاب متشاحنة كانت سبباً في قلاقل مستمرة زادت
من اختلال الأمن وضعف الدولة كالثورات بين الشيعة وأهل السنة ،
وثورات اتباع المذهب الحنبلي الخ الخ
الضعف الاقتصادي :

لا غرابة إذا كانت هذه حال البلاد الإسلامية سياسياً واجتماعياً أن
تضمحل موارد الثروة ، وقد أثر ضعف موارد الثروة على الخزانة العامة
فصارت عاجزة عن بذل الأموال اللازمة للقيام بأمور الحكم ، وهكذا
وصلت الدولة الإسلامية تدريجاً الى حال لا تستطيع معه مقاومة هجمات
جيرانها البدو الأقوياء فسقطت أمام أغارة التتار المدمرة في القرن الثالث عشر
كما سقطت الدولة الرومانية أمام غارات الجرمان من قبل في القرن الخامس
ملاحظة : هذه الأسباب كلها تنطبق على الدولة الإسلامية الكبرى
التي كان مركزها بغداد وليس يقصد بها البلاد الأخرى المستقلة من العالم
الإسلامي مثل مصر أو الأندلس .

الدول الاسلامية الصغرى

(الى أواخر القرن الحادى عشر)

تقدم بيان نمو الدولة الاسلامية منذ نهضتها فى القرن السابع وقد رأينا انها استمرت دولة واحدة متماسكة ما دام قلبها قويا أى ما دامت حكومتها المركزية حكومة قوية قادرة على الدفاع عن حدودها من الخارج ومن الداخل . وقد بقيت الدولة الاسلامية على ذلك الحال طول مدة الخلافة الاولى ومدة الامويين . ولكن ما جاءت الدولة العباسية حتى بدأت أول خطوة فى سبيل تقسم الدولة الاسلامية وذلك باستيلاء عبد الرحمن الداخل الاموى على الاندلس واستقلاله هو وأسرته من بعده بالحكم فيها وأصبحت الاندلس منذ ذلك الحين دولة اسلامية قائمة بذاتها

وتلت هذه الخطوة خطوات أخرى فأن الدولة العباسية لم تكن كدولة العرب الناشئة أيام الامويين بل انها استقرت وأخذت بأسباب المدنية وشغلتها شئون كثيرة عن الحروب ولهذا ظهر عجزها عن الاحتفاظ بكل أراضيها منذ أيام هرون الرشيد نفسه فان شمال افريقيا استقل استقلالاً فعلياً وان بقى اسماً تابعاً للخلافة العباسية وكان هذا على يد ابراهيم بن الاغلب . وحدث بعد ذلك ان استقلت الاطراف الشرقية للدولة الاسلامية فى أيام المأمون وهكذا أخذت الاطراف البعيدة تسقط من الدولة تدريجاً ولو ان هذا التساقط كان دائماً تحت ستار الخضوع الاسمى للخلافة .

ولكن ما جاءت أواسط القرن التاسع حتى بدأت انحاء الدولة تستقل بشكل مفرع وذلك منذ تسلط الجنود الاتراك على الخلافة واساءوا استعمال سلطتهم وأثاروا بها الاضطرابات المستمرة - فان الاطراف البعيدة شعرت عند ذلك بضعف المركز عن اظهار سلطته عليها وجعل حكامها يستبدون

بها وأخذ دعاة الشيعة يكوّنون فيها الدول مثل الدولة الفاطمية التي نشأت في شمال أفريقيا منذ أوائل القرن العاشر . وكان الرؤساء الاتراك أنفسهم يعملون على الاستقلال ببعض أنحاء الدولة كما حدث بمصر فان أول استقلالها كان على يد احمد بن طولون وهو أحد الاتراك الذين انتهزوا فرصة ضعف الدولة العباسية واضطراب أمورها فنزع مصر منها وأسس بها دولة مستقلة .

وقد نمت هذه الدول التي استقلت عن الدولة العباسية تدريجاً حتى كان لبعضها شأن عظيم في تاريخ العالم ولهذا نخصها بالذكر لنبين أهم مميزاتها وسنقتصر على ذكر الدولتين الكبيرتين اللتين كان لهما أكبر أثر في التاريخ وهما دولتا الاندلس ومصر فانهما زادتاً وعظم أمرهما حتى صارتا تضارعان الدولة الإسلامية الأصلية (العباسية) في المجد وفي المدنية واذا ذكرت بغداد بصفتها عاصمة إسلامية كبرى فليس يقل عنها اسم مصر (التي صارت فيما بعد القاهرة) واسم قرطبة عاصمة الاندلس الكبرى . بل ان القاهرة بقيت عظمة محتفظة بالمدنية الإسلامية بعد ان سقطت بغداد وحطم التار مجدها القديم كما ان الاندلس بقيت بعد سقوط بغداد مثلاً للمدنية المغربية العظيمة

دولة الاندلس

(من الفتح في أوائل القرن الثامن الى أواخر القرن الحادى عشر)

دخل العرب الاندلس في مدة خلافة الوليد بن عبد الملك كما مر وكانت جيوشهم مكونة من العرب ومن البربر سكان شمال أفريقيا وقد دفعت الحماسة الدينية جموعهم وهي الحماسة التي كانت في قلوب المسلمين في ذلك العصر فلم يقف في سبيلهم جيوش القوط بل هزمت عند أول لقاء

في موقعه شريش سنة ٧١١^(١) ثم توالى الفتوح بعد ذلك حتى فتحت العاصمة طليطلة واستمر تيار الفتح حتى صار كل شبه الجزيرة تقريباً خاضعاً لسلطان العرب إلا الأقاليم الجبلية التي في الشمال والشمال الغربي فقد كانت قديماً معقلاً حصيناً للأجناس المغلوبة ، وقد تحصن بها بقايا القوط كما تحصن بها من قبل بقايا السويقي وقنع المسلمون منهم بالخضوع وقد امتدت دولة العرب بعد ذلك شمالاً كما رأينا حتى بلغت قصارى امتدادها أيام خلافة هشام بن عبد الملك ، وعند ذلك صدمت صدمة قوية في موقعة تور سنة ٧٣٢ كما مر . ومن ذلك الوقت بدأت دولتهم في شمال جبال البرانس تتقلص تدريجاً حتى استقر الأمر أخيراً باكتفاء العرب بشبه جزيرة أسبانيا إلى حدود الجبال الشمالية (البرانس) ولا يمكن أن نقول أن العرب بدأوا في تكوين دولة مستقرة في تلك الأيام فإن الحرب لم تدع مجالاً لبناء تلك الدولة ، ولهذا كان الولاة لايزيدون على كونهم قواداً للجيش وكان أكبر واجباتهم في نظر الحكومة المركزية أن يمدوا الفتوح ويستمروا على الغزو ، فلما أن هزم العرب في موقعة تور ، وتبين للخلافة الأموية أن سير الحروب والايغال في الشمال لم يصبح من الأمور الهينة وأن دولة الفرنج أصعب عودة من دولة القوط بدأت فكرة الاستقرار تنمو وأخذ هشام يفكر

(١) يمكن أن يدرك القارئ أسباب ذلك الانهزام السريع من مراجعة تاريخ دولة القوط فقد كانت دولة تكثر بها المنازعات بين الأمراء على الملك وكان الحكم أقلية مكرهة من الأهليين لأنهم لم يتم احتلالهم بدماء أهل الأندلس بل ظلوا أجانب إلى آخر الأمر وكان الأمراء القوط يحرصون أنفسهم بكل ثروة البلاد ونعيمها فكان حكمهم ثقيلاً الوطأة على العامة

هذا إلى أن اليهود الذين كانوا بالأندلس إذ ذاك كانوا خاضعين لاضطهاد شديد جعلهم يساعدون على نصر العرب وقد كان اليهود عند ذلك من أكثر عناصر دولة القوط إنتاجاً ومهارة

فى الاستفادة باسبانيا من الوجوه السامية ، غير أن المدة لم تطل بعد ذلك
بالدولة الأموية بل نجحت الثورة العباسية ضدها وما حكمت الدولة العباسية
حتى بدأ عصر جديد فى أسبانيا وذلك باستيلاء عبد الرحمن الداخل عليها وهو
الأموى الذى لجأ إلى الأندلس هرباً من اضطهاد العباسيين سنة ٧٥٥

العهد الأموى :

أطلق الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور لقب (صقر قریش) على منافسه
عبد الرحمن الداخل اجلالا له وتقديرا لعظمته فانه دخل الأندلس هاربا
بلا حول له ولا قوة معه فما مضى على حكمه بالأندلس سنوات معدودة حتى
كانت قد صارت دولة قوية ناجحة تخشى بأسها الدولة العباسية الكبرى .
وعبد الرحمن الداخل هذا هو أول سلسلة من الحكام الأمويين الذين
تعاقبوا على الأندلس نحو قرنين ونصف من أواسط القرن الثامن إلى أوائل
القرن الحادى عشر

وقد طال حكم عبد الرحمن الاول فانه حكم البلاد منذ استقر له الامر
سنة ٧٥٦ الى سنة ٧٨٨ فلمامات ترك البلاد مستقرة ناجحة من جميع الوجوه
حتى كانت الدولة العباسية تخشاها ولا تحاول التدخل فى أمورها يدل على ذلك
ما قاله أبو جعفر المنصور « نحمد الله الذى جعل البحر بيننا وبينه » وكذلك كانت
دولة الفرنج لا تجرأ عليها حتى فى أيام شارل الكبير نفسه . وصارت جبال
البرانس هى الفاصلة بين الدولتين ولم ينجح شارلمان فى محاولة اختراق
تلك الحدود بل هزم واضطر للارتداد عنها . وأما فى الداخل فقد بدأ
عبد الرحمن يجعل لدولته عاصمة زاهرة وهى قرطبة التى صارت فيما بعد
من أكبر عواصم الدول الإسلامية وكان عبد الرحمن ذا همة عالية وله قدرة
كبيرة على الإلمام بتفاصيل الإدارة فأقام نظاما جديدا للحكومة اسبانيا
شبهها بما كان فى الحكومة الإسلامية فى الشرق مع الاعتداد بظروف

اسبانيا وطبيعتها . واجتهد أن يتجنب غلطات دولة القوط المنقرضة وذلك بتشجيع العرب على استعمار البلاد والعمل الانتاجي بها فبدأ ذلك الشعب الفتي يعمل في الوجوه السامية بنفس القدرة التي كان يبذلها في حروبه وبدأ يظهر من المسلمين العمال ورجال العلم والمنتجون المختلفون وكثير امتزاجهم بالأهلين حتى نشأ على توالى الزمن شعب جديد من امتزاج العرب والبربر وأهل اسبانيا .

غير أن دولته لم تكن سالمة من وجوه الضعف وأهمها الآتية :

(١) كانت هناك بقية من القوط وسواهم من الشعوب المسيحية ملتجئة الى الجبال الشمالية وهؤلاء سيكونون فيما بعد نواة الدولة المسيحية الاسبانية التي ستطرد العرب من اسبانيا بعد إقامتهم بها أكثر من سبعة قرون ونصف .
(٢) كانت طبيعة الأندلس تساعد دائماً على التفرق عند أول ظهور ضعف بالحكومة المركزية .

(٣) حل العرب بأخصب جهات الأندلس وأحسنها مناخاً وبقى المسيحيون في الأقاليم الوعرة ذات الجو القاسى فكان هذا عاملاً على تغيير مركز العرب أمام المسيحيين على مرور الزمن فأن وداعة حياتهم جعلت المسيحيين الشماليين الحشنيين بعد مدة يتغلبون عليهم . وقد حاول المسلمون بالأندلس فيما بعد أن يسدوا نقصهم باستدعاء مساعدة المسلمين الحشنيين في شمال إفريقيا ولكن تلك المحاولات كانت لا تفيد الا مؤقتاً ثم تغلب الطبيعة ويعود النصر الى جانب أهل الجبال الشمالية من المسيحيين .

عصر عبد الرحمن الأوسط

حكم بعد عبد الرحمن الأول اثنان لم يكونا في مثل قوته وهمته ولهذا هدد البناء الذي أقامه بالانهيار وقامت الثورات الداخلية وتحركت دولة الفرنج حتى نزعت من الأندلس برشلونه . ثم حكم عبد الرحمن الثاني وكان

من أكبر أفراد الأسرة الأموية . حكم بين سنة ٨٢٢—٨٥٢ وامتاز عصره بـرجوع الاستقرار الداخلى والخارجى . وفى مدته بدأت تظهر أول ثمار المدنية التى أقامتها الأسرة الأموية بالأندلس وبدأ ظهور العلماء وأهل الفنون المختلفة فى الأندلس وساعدت الطبيعة على ظهور نبوغ العرب هناك . فان جمال المنظر وحسن المناخ وطيب الحياة جعلت للأدب الأندلسى جمالا يفوق جمال الأدب المشرقى وكان عبد الرحمن الثانى من أكبر الملوك إبهة فى بلاطه وجعل مقامه فى قرطبة آية من آيات الفخامة حتى كان سفراء الدول المسيحية يذهلون مما يشاهدون فيه من آثار الغنى والنبوغ الفنى . وقد حاول عبد الرحمن الأوسط بهذا ان يقاوم ضغط الفرنج على حدوده بمصادقة دولة الروم الشرقية المنافسة للفرنج

وقد وقعت فى أيامه اغارات النرمان على شواطئ الأندلس الغربية والجنوبية ولكن قوة الدولة لم تجعل لهذه الاغارات أثرا كبيرا بل ردت بسهولة وتعرف هذه الاغارات عند العرب باغارات (المجوس)

عبد الرحمن الثالث (الناصر)

اضطربت أمور اسبانيا بعد عبد الرحمن الثانى وظهرت فيها عوامل الضعف التى بينهاها من قبل . وكان يلوح ان تلك الدولة لن تلبث طويلا حتى يتقوض أساسها إلى ان ولى الحكم عبد الرحمن الثالث او الناصر الذى حكم بعد فوضى طويلة سنة ٩١٢ . وقد طال حكمه إلى سنة ٩٦١ ، وكان لاشك أكبر ملوك اسبانيا وفى أيامه بلغت عظمتها اوسع مداها

وقد كان معاصرا لعصر استبداد الجنود الأتراك فى الدولة العباسية وأدرك فى آخر حكمه عهد الديالة ، وكذلك كان فى أيامه ظهور الدولة الفاطمية فى شمال أفريقيا . وأما فى أوربا فقد كان معاصرا لأول ظهور العهد الاقطاعى ودوله

اتخاذ لقب الخلافة

قد اتفق في عهد الناصر أن ظهر ضعف الخلافة العباسية في الشرق . وقامت لها منافسة في شمال أفريقيا وهي الدولة الفاطمية التي اتخذ رؤساؤها لقب الخلافة وصاروا يناوئون العباسيين بكل ما استطاعوا ، وكان الناصر إذ ذاك في أسبانيا يرى دولته جديدة بأن تكون في المحل الأول بين الدول الإسلامية فاتخذ هو الآخر لقب الخلافة وصار في العالم الإسلامي ثلاث خلافات (العباسية في بغداد والفاطمية بأفريقيا والأُموية بالأندلس) وقد كان الناصر جديرا بكل عظمة فانه منذ ولي الحكم أعاد إلى الأندلس أمنها الداخلي الذي اضطرب بعد عبد الرحمن الأوسط ، وكانت له مشاغل عدة أهمها :

(١) ضغط الفرنج من شمال جبال البرانس ولا سيما بعد أن أخذوا برشلونه .

(٢) بدء ظهور الأمارات المسيحية في الأقاليم الجبلية الشمالية حتى لقد صارت تلك الأمارات الشاغل الأكبر للدولة الإسلامية بالأندلس .

(٣) ميل الأمراء المسلمين إلى التفرق ومساعدة طبيعة الأندلس على ذلك التفرق فكان الناصر دائما متنبها إلى ذلك الميل ليقاومه بكل وسيلة خوفا على وحدة الدولة .

(٤) منافسة الدول الإسلامية الأخرى ولا سيما دولة الفاطميين في شمال أفريقيا وكان معاصره الخليفة الفاطمي العظيم المعز لدين الله .

ولكن الناصر مع كل هذه المشاغل نجح كل النجاح في حفظ دولته وتنمية كل مواردها ، وفي أيامه أُنِعَ غرس عبد الرحمن الأول وعبد الرحمن الثاني وصارت قرطبة عاصمة الأندلس تنافس بغداد وتفوقها في جمال التنسيق ورفق الصناعة والفنون وازدهار الآداب . وكانت مبانى الناصر مما يضرب

بها الأمثال في الجمال والعظمة ولا سيما ضاحية الزهراء التي بناها بجوار قرطبة على أن هذه العظمة كان يظهر من خلالها وجود الضعف المختلفة التي كانت في أسانس الدولة ولم تكن دولة الأندلس لتبقى موحدة عظيمة إلا ما دام الحاكم مثل الناصر في قوته ولهذا يمكن أن نعتبر عصر عبد الرحمن الناصر قصارى مجد الأندلس وبدأ بعده عصر الهبوط . وكان من أكبر ما يدل على أن عصر الهبوط سيعقب عصر الناصر أن ذلك الخليفة العظيم اضطر أن يتخذ جنوداً مرتزقة من الأجانِب ليستعين بهم على دفع أخطار الاغارات ولا سيما اغارات مسيحيي الشمال .

وكانت اغارات المسيحيين في الشمال هي أكبر مشاغل الدولة بعد أيام الناصر وتضاءلت إلى جانبها الأخطار الخارجية من دول الفرنجة والفاطميين فان دولة الفرنجة منذ أواخر القرن العاشر كانت في شغل من أمرها وتنازع أمرائها الاقطاعيين كما أن الفاطميين بعدوا عن الأندلس منذ فتحوا مصر واستوطنوا بها . وبعد موت الناصر ظل الأمر مندفعاً بقوة حكمه مدة خلفه الحكم الثاني ولكن بعد ذلك بدأت الأخطار تظهر واضحة من قبل الشمال حتى أن وزير الدولة (محمد بن أبي عامر المنصور) اضطر أن يأخذ الأمر في يده من الخليفة الطفل الذي خلف الحكم الثاني وهو (هشام الثاني) وقضى كل حياته في حروب مستمرة مع تلك الأمارات المسيحية وفي هذا ما يدل على الخطر الكبير الذي أصبح يهدد الأندلس من تلك الناحية

وبعد موت المنصور استمر ابنه عبد الملك على سياسته وكان في الأندلس حزبان حزب مشايخ لبيته وحزب آخر مشايخ لبيت الخلافة وقد أدى هذا إلى خلاف داخلي عرض الدولة للأخطار التي كانت دائماً ماثلة تهددها فبعد موت عبد الملك سنة ١٠٢٩ انتهز الأمراء الفرصة واستقل كل منهم في واديه

أو اقليمه وأكبر هؤلاء أمراء أسرة (بنى عباد) فى اشبيلية وأسرة ذى النون فى طليطلة وأسرة بنى هود فى السواحل الشرقية . ويعرف هؤلاء بملوك الطوائف وبذلك انفرط عقد الدولة وصارت قطعاً شبيهة بالأمارات الاقطاعية التى كانت بأوروبا فى ذلك العصر . وقد كان من الطبيعى أن يشتد عزم المسيحيين فى النضال مع المسلمين بعد هذا الانقسام وهذا ما حدث فعلاً حتى أن بعض الأمراء المسلمين رأى أن يستعين على صد المسيحيين بالمسلمين الذين فى شمال افريقية وكانت قد قامت دولة هناك بعد انتقال الدولة الفاطمية إلى مصر وهى دولة المرابطين

على أننا يجب ألا ننسى أن نمو الأدب والفن والعلم والصناعة لم يتأثر بذلك الانقسام بل لقد استمر وزاد مع ضعف الدولة الحربية وانقسامها السياسى وكان ملوك الطوائف من أكبر العاملين على ذلك النمو حتى لقد يمكن أن يقال أن أزهى عصور الأدب والفنون والعلوم والمدنية بالأندلس كان ذلك العصر الذى تقسمت فيه الدولة وضعفت قوتها الحربية .

دولة المرابطين أو الملمثين

بعد انتقال الفاطميين إلى مصر بقى شمال افريقيا تابعا لدولتهم مدة نحو قرن إلى أن ضعفت رقابتهم على تلك الأرجاء البعيدة فبدأت تتكون هناك دول جديدة أساسها قبائل البربر والعرب الضاربة هناك وكانت أولى هذه الدول دولة المرابطين وسميت بذلك الاسم لأن منشأها فرقة دينية جعلت أهم مبادئها الجهاد أو (المرابطة) ولعل فى ذلك الاسم صلة بالآية القرآنية « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل »

وقد شجع الخلفاء العباسيون هذه الدولة الناشئة لتكون منافسا يضعف من شأن دولة الفواطم فى شمال افريقيا كما يقاوم نفوذ الأندلس هناك . وكان الفواطم منذ أواسط القرن الحادى عشر قد بدأوا فى الاضمحلال .

السياسى ومنذ ذلك الحين أخذ ظل دولتهم يتقلص تدريجاً عن الأطراف من الشرق والغرب فى حين أن الدولة العباسية كانت على عكس ذلك منذ أواسط القرن الحادى عشر فقد أعيد إليها مجدها الحربى على يد المتسلطين عليها إذ ذاك وهم السلاجقة . فقيام دولة المرابطين كان معاصراً لدولة السلاجقة ونهضة الخلافة العباسية فى الشرق واضمحلال دولة الفواطم والدولة الأندلسية وبينما كان السلاجقة يعيدون مجد الدولة العباسية ويغزون بلاد دولة الروم الشرقية ويهددون قسطنطينية دعيت دولة المرابطين لمساعدة بعض ملوك الطوائف (بنى عباد) ضد المسيحيين الذين كانوا يهددون الأندلس الإسلامية منذ تفرقت وتقسمت . وكان أمير المؤمنين فى دولة المرابطين إذ ذاك يوسف بن تاشفين أكبر ملوك هذه الدولة فعبر إلى الأندلس تلبية للدعاء وهزم المسيحيين الذين كانوا على أبواب اشبيلية فى موقعة الزلاقة سنة ١٠٨٦ .

غير أن المرابطين لم يعودوا بعد ذلك إلى صحارى شمال افريقيا بل أزالوا ملك بنى عباد وملكوا الأندلس الجنوبية وجعلوها مقر حكمهم جاعلين شمال افريقيا طراً تابعاً .

وقد كان حكم المرابطين بالأندلس بدء اضمحلال تلك المدنية الزاهرة التى قامت هناك على طول ثلاثة قرون منذ أواسط القرن الثامن فان مجيء جيوشهم فاتحة إلى الأندلس كان صدمة عنيفة للتقدم المدنى الذى كان لا يزال مستمراً إلى أيام ملوك الطوائف .

مصر

(منذ الفتح فى أواسط القرن السابع الى أواخر القرن الحادى عشر)

فتح العرب مصر (سنة ٦٤٠ — سنة ٦٤١) وحلوا بها مقيمين وجعل عليهم عمرو بن العاص والياً فاتجه فى سياسته نحو تكوين دولة شبه مستقلة

في قلب الدولة الاسلامية الكبرى وكان يقصد أن يجعلها قطرا ناجحا ويصلح ما كان فاسدا في أيام الرومانيين وقد كان أكثر أهل البلاد بطبيعة الحال من المصريين الأصليين المسيحيين وحل العرب بينهم جيشا حاميا وحكما ولم يتدخلوا في بدء الأمر في الزراعة والتجارة وسوى ذلك من وجوه التماس الرزق وقد أدرك عمرو أن المصريين أدرى بالحكم وأساليبه في بلادهم وأنهم على مدنية أرقى من مدنية العرب إذ ذاك فلم يحاول أن يغير شيئا الا في وجوه الإصلاح المادى .

غير أن سياسة عمرو لم تلق نجاحا لمعارضة سيدنا عثمان ثم جاءت فترة الاضطراب بين الامام على ومعاوية فلم يكن لمصر فيها عند ذلك سياسة مدنية حتى استقر الأمر أخيرا على خلافة معاوية وحده وكانت مصر نصيب عمرو بن العاص مكافأة له على المساعدات الكثيرة التى أداها لمعاوية أثناء النضال وعند ذلك استطاع عمرو أن يبنى سياسته على أساس دائم وقد استمر الحكم فى بيته مدة إذ تولى بعد موته ابنه غير أن الأمر عاد الى سياسة أخرى وهى أن تكون مصر جزءا لا يتخلف عن سائر الجهات فى شدة اتباعه للحكومة المركزية ومنذ ذلك الوقت قلت مكانتها السياسية فلم تكن أكبر من أى قطر آخر من اقطار الدولة طول مدة الامويين ومدة العباسيين الأولى .

وكان فى تلك الاثناء يحدث فى مصر تطور عظيم فان العرب تزحوا اليها واستقروا بها وأخذوا يشتغلون بالفلاحة والتجارة والصناعات بعد أن عدلت الحكومات الاسلامية عن منع العرب من الاشتغال بذلك ومن جهة أخرى كانت هناك مرغبات كثيرة فى دخول المصريين الأصليين فى الاسلام ومن أكبر هذه المرغبات أن تكون لهم الحقوق المدنية والسياسية التى كانت للمسلمين ومن هذا وذلك بدأ أهل مضر يكوّنون خليطا متعادلا

من المسلمين والمسيحيين ثم بدأ عدد المسلمين يزيد تدريجياً حتى كان يمكن أن يقال أن مصر صارت قطراً إسلامياً في حكم عبد الله بن طاهر الحاكم من قبل المأمون العباسي

وكانت المعاشرة المستمرة والمصلحة المشتركة أكبر عامل على تقريب ما بين العناصر المقيمة بمصر حتى صار هناك شعب جديد يمكن أن نطلق عليه اسم الشعب المصري الجديد منذ أواسط القرن التاسع

وقد كان من الطبيعي لمصر دائماً أن تكون دولة مستقلة لوقوعها منعزلة عن جميع الجهات المجاورة بفواصل طبيعية من الصحراء والبحار. ولولا قوة الحكومات المركزية الإسلامية لما كانت مصر تبقى خاضعة لها وقد زاد الميل إلى الاستقلال منذ تولد الشعب المصري الجديد من اختلاط العناصر القديمة واتفق منذ أواسط القرن التاسع أن اضطربت أمور الحكومة العباسية المركزية منذ استولى الجنود الاتراك على أمورها واساءوا استعمال سلطتهم كما ذكرنا من قبل فلاحت الفرصة للاستقلال ولكن ذلك الاستقلال تحقق على أيدي حكام من الاتراك الذين توالوا على مصر منذ أواسط القرن التاسع من بعد حكم الوالي عنبسة آخر عربي حكم مصر . وكان أول عهد مصر بحركة الانفصال عند ما تولى عليها أحمد بن طولون

الدولة الطولونية (٨٦٨ — ٩٠٥)

نشأ أحمد بن طولون في (سرمن راي) في جيش الاتراك وقد ساعده الحظ إذ تولى (بيكباك) الأмир التركي على مصر فأرسله بدله ليحكم ذلك القطر ومن حسن حظه أنه بعد وفاة بيكباك ولى على مصر (برجوج). وهو أحمد بن طولون فزادت قدمه رسوخاً في البلاد وقوى نفوذه فيها حتى

أنه عند ما تغير الحاكم الاسمى على مصر لم يلق صعوبة في مقاومة الحكومة المركزية (العباسية) والوقوف في وجهها مخالفا معلننا استقلاله منها .

ويمكن النظر الى اعمال ابن طولون من جهتين الاولى جهة الداخل .
والثانية جهة الخارج .

أما في الداخل فقد ادخل كثيرا من وجوه الاصلاح ولا سيما توحيد الادارة وقد كانت ادارة مصر في أشد الحاجة الى اصلاحه لتعدد الرؤساء ورغبة كل منهم أن يكون له أكبر الأمر . ثم جعل ايراد مصر لها ومنع ارسال الخراج الى الخلافة فحدث عند ذلك خلاف بينه وبين الموفق أخى الخليفة وكان عند ذلك صاحب السلطنة في بغداد ولكن ابن طولون خرج منه سالما وأصبح مستقلا بالمعنى الحقيقي منذ ذلك الحين عن الدولة العباسية سنة ٨٧٢ .
وقد ادخل من وجوه الاصلاح الأخرى شيئا كثيرا مثل اصلاح مقياس النيل وتشجيع ملكية الفلاحين للأراضي وتقليل الضرائب الباهظة التي كانت تجبى قبله .

وزيادة على هذه الاصلاحات المادية قام باصلاحات أخرى مثل تجميل العاصمة فبنى لنفسه ضاحية جديدة لأنه رأى العاصمة السابقة (العسكر) غير كافية له ولجنوده وسمى الضاحية الجديدة القطائع (وموضعها الآن قلعة الكباش بالسيدة زينب) وبنى لنفسه مسجدا لا يزال الى الآن باقيا .
وهو من الخطوات الاولى في سبيل تكوين فن مستقل في البناء (١) .

(١) لم تؤخذ أعمدة جامع ابن طولون من المباني القديمة بل بنيت بالآجر كما أن القباب ذات العقد المدب كانت الأولى من نوعها تقريبا في مصر . وتمتاز مأذنه ذلك المسجد بشكلها الحلزوني من الخارج الذي يشبه بناء في (سرمن راى)



(شكل ٦) مسجد ابن طولون

- وأما في الخارج فإن ابن طولون منذ استقل بدأ يفكر في أن سلامته تتوقف على إبعاد حدوده بقدر المستطاع ولهذا بدأ يغير على الشام لجعلها بينه وبين منافسه الكبير (الموفق) وقد بدأ حروبه منذ سنة ٨٧٨ ولم يلق صعوبة تذكر حتى بلغ انطاكية واكناف آسيا الصغرى في أقل من عام واحد . وقد كانت فتوحه هذه مدعاة للاحتكاك المستمر مع جيوش الدولة

العباسية من جهة والدولة الرومانية من جهة أخرى فكان ابن طولون دائماً في شغل من تلك الحروب وقد مات في أحداها سنة ٨٨٤ قبل أن يكمل سن الحسين .

وخلفه ابنه خمارويه وهو فتى منعم منصرف الى الترف فبدأت الدولة تهتز للسقوط ولكنها لم تسقط فعلا في مدة حياته فانه مع ترفه أمكنه بعد حين أن يقود جيوشه للمحافظة على بلاده في الشام ولعل تحسين علاقته مع الخليفة المعتضد الذي ولي الخلافة عندئذ هو الذي ساعد على بقاء دولته له وقد كان من آثار ذلك التحسين زواج الخليفة من ابنة خمارويه (قطر الندي) وقد كان ذلك الزواج فرصة لكي يظهر خمارويه ترفه وغناه فيما أعدها من جهاز وهدايا (١) وقد كان طريق سيرها من مصر لبغداد ممهدا وبه عند كل مييت منزل بنى لاستقبالها .

وقد كان خمارويه في سياسته الداخلية عاكفا على توفير وسائل النعيم لنفسه فلم يجدد اصلاحا ولم يقم باعمال عامة بل كانت كل أعماله مقصورة على دائرة حياته الخاصة بين بناء قصور وحدائق بها أنواع الوحوش واتخذ لنفسه بحيرة من الزئبق لكي ينام عليها يحرسه أسد من آساده . ولكن ذلك لم يغن عنه من الموت فقتله بعض مماليكه في دمشق سنة ٨٩٦ .

وبموت خمارويه يمكن أن يقال ان دولة الطولونيين قد انتهت . فان ابنه (أبو العساكر جيش) لم يحكم إلا أشهراً ثم عزله قواد الجيش وتبعه أخوه الأصغر (أبو موسى هرون) ولكنه قتل سنة ٩٠٤ . قتله عماء وتولى أحدهم (شيبان) مكانه ولكن الجيش ثار عليه واستدعى جيوش الخليفة فدخلت مصر سنة ٩٠٥ وأزالت آثار تلك الدولة الصغيرة التي لم تحكم إلا سبعة وثلاثين سنة . وفي أثناء هذه الفوضى كانت كل ممتلكات مصر في الخارج

(١) يقال أن نفقات ذلك الجهاز بلغت مليون دينار

قد سقطت عنها وزال أثر الطولونيين كأن لم يكن — ولكن مهما يكن من الامر فقد كانت هذه المحاولة الاولى فى سبيل تحقيق استقلال مصر وهى توجيه لذلك القطر الى الوجهة التى كان من الطبيعى أن يسير نحوها .

وقد بقيت جيوش الخلافة العباسية فى مصر نحو ثلاثين سنة وصار الخلفاء يرسلون الولاة من قبلهم الى مصر وهم من رؤساء الاتراك فيسيئون الحكم وما كانوا ليحسنوا وهم فى عصر استبد به الجنود الاتراك بالخلافة نفسها وأفسدوا فى حكمها واستمر الامر كذلك الى ان أرسل محمد ابن طنجج الاخشيد واليا وهو من الاتراك ولكنه كان من أفذاذهم . وهو صاحب المحاولة الثانية فى تحقيق استقلال مصر

الدولة الاخشيدية (٩٣٥ — ٩٦٩)

اتفق فى مدة الفترة بعد انتهاء الدولة الطولونية وفى اثناء وجود جيوش الخلافة العباسية بمصر ان قامت فى شمال افريقية دولة جديدة وهى دولة الفاطميين وقد حاولت تلك الدولة الجديدة منذ تأسيسها ان تفتح مصر وقد استولوا فعلا على الاسكندرية والقيوم مدة طويلة حتى تمكن الجيش أخيرا من الدفاع عن مصر وقد كان محمد ابن طنجج فى بعض هذه المدة حاكما على الشام وقلده الخليفة ولاية مصر زيادة على ولاية الشام فصار منذ سنة ٩٣٣ حاكما على القطرين ثم انتقل الى مصر منذ سنة ٩٣٥ . ومنذ انتقل الى مصر بدأ يكون دولته الجديدة . ولم يكن من الطبيعى ان رجلا قادرا مثل محمد ابن طنجج يبقى متصلا بالدولة العباسية التى كانت عند ذلك فى أحط حالات الاضطراب فقد بلغ من أثر استبداد الجنود الاتراك بالخلافة ان استقلت أطراف بلادها وتنازع الامراء فى كل جهة على أقاليمها المختلفة ينزعونها ويقيمون فيها دولا مستقلة وكان بجوار دولة الاخشيد جماعة من

الامراء يحاول كل منهم الاستقلال وتوسيع رقعة بلاده وأكبر هؤلاء هم الحمدانيون (وهم أسرة عربية في شمال الشام عند حلب) وابن رائق (في بلاد الجزيرة الغربية) وكان هؤلاء ينفسون على الاخشيديين ولاية الشام ومصر وجرتهم هذه المنافسة الى حروب طويلة معه وقد كان الاخشيدي مبهدا كذلك من جهة الغرب بالفاطميين الذين رسخت قدمهم في هذه الاثناء وصارت خلافتهم ذات شأن في العالم الاسلامي ولولا ثورات داخلية في بلادهم لكانت اغاراتهم المتواصلة تقضى على دولة الاخشيدي بمصر في أول أمرها .

ومع أن الاخشيدي كان يحاطا بهذه الاعداء تمكن من المحافظة على دولته بجيش كبير منظم على أنه لم يستطع أن يملك كل الدولة التي ملكها احمد ابن طولون فانه اضطر الى التنازل على شمال الشام للحمدانيين ودفع لهم جزية سنوية عن جنوب الشام الذي كان في يده . وقد تنازل كذلك عن كثير لابن رائق . والحق أن الاخشيدي كان رجلا مسالما في علاقاته الدولية فكان يؤثر أن يقف الحروب ولو بالتنازل عن بعض اطماعه . وكان عذره في ذلك واضحا وهو كثرة الاعداء المحيطين به ولم يتفرغ الاخشيدي الى كثير من الأعمال الداخلية ولهذا لم يعرف لدولته من الأعمال مثلما عرف لدولة الطولونيين . ولم يتخذ الاخشيدي لنفسه ضاحية كما اتخذ احمد بن طولون اللهم الا بعض القصور الخاصة

ومما يستدعي الاهتمام أن المصريين في مدة الاخشيدي كانوا قد أصبحوا شعباً مشتركاً في مظاهر الحياة ويدل على ذلك ما ذكره المؤرخ (المسعودي) عن يوم عيد الغطاس اذ قال « ان المصريين خرجوا ذلك اليوم بين مسيحيين ومسلمين إلى النيل يركبون القوارب ويسيرون على شواطئ النهر وهم جميعاً في سرور بالعيد في نخل زاهية وزينة من على وجواهر يقصفون ويغنون ويلهون الخ » وقد مات محمد بن طنج في سن كبيرة فوق الستين سنة ٩٤٦ هـ

بعد حكم إحدى عشرة سنة ودفن في بيت المقدس .

وبعد موته آل الحكم اسميا إلى ابنه الأكبر وهو (أبو القاسم أنوجور) ثم إلى أخيه وهو أبو الحسن على ولكن الحقيقة أنهما لم يحكما بل حكم باسمهما الشخصي (أبو المسك كافور) وهو عبد حبشي لابن طعيج آلت إليه الوصاية على ابن الاخشيد القاصر فتولى الحكم بنفسه تاركا لابن الاخشيد مرتبة ضخما يتمتع به في حياة ترف بعيدا عن الحكم . فلما مات أبو القاسم أنوجور سنة ٩٦١ استمر كافور على الحكم باسم أبي الحسن على مع أنه كان راشدا ولما مات هذا بعد قليل سنة ٩٦٥ صار أبو المسك كافور واليا على مصر من قبل الخليفة الذي اعترف بولايته وقد كانت سياسة كافور شبيهة بسياسة سيده الاخشيد إلا أنه لم يكن محاربا وقد استطاع على كل حال ان يحتفظ بالدولة الصغيرة التي خلفها الاخشيد خارج حدود مصر امام منافسيه ولا سيما الحمدانيين . وقد اشتهر كافور في عالم الادب لان شاعرا من اكبر شعراء العربية مدحه لولا رجاء أن يحصل منه على ولاية اقليم من الاقاليم المصرية فلما لم ينل بغيته ذمه بقصائد يدعية في باب الهجاء . وذلك الشاعر هو المتنبى

وقد كان كافور في حياته الخاصة يحب البذخ والابهة ومع ذلك فقد كانت خزائن البلاد عامرة وهذا يدل على أن الاستقرار والامن في هذه المدة قد أحدثا أثرهما في انماء ثروة البلاد .

وقد مات كافور سنة ٩٦٨ واختير بعده طفل من ابناء الاخشيد ولكن تنافس رجال الدولة عند ذلك أدى الى ثورات داخلية لم تفت عين الخليفة الفاطمي الرقبة فان المعز لدين الله الخليفة الفاطمي انتهر هذه القرصة لكي يتم ما عجز عنه اسلافه من فتح هذا القطر الغني فلما لاخت له القرصة لم يتركها تقلت بل أرسل لجيوشه الى الشرق ولم يمض عام حتى كانت الجيوش الفاطمية في داخل مصر (سنة ٩٦٩)

وقد كانت مدة المحاولات الأولى نحو الاستقلال منذ أيام ابن طولون الى ان استولى الفواطم على مصر نحو قرن وعام (١٠١ سنة) ومن ذلك فترة ثلاثين سنة تتوسط بين عصر الطولونيين والاششيديين واذا كانت هاتان الدولتان محاولتين أوليتين نحو الاستقلال فقد بلغ الاستقلال تمام نضوجه فى أيام الدولة العظيمة التى حلت بعد ذلك فى مصر وهى الدولة الفاطمية وفى أيام الدول الكبرى التى جاءت بعدها .

الدولة الفاطمية — (العصر الاول ٩٦٩ — ١٠٩٤)

أخذ العباسيون الصدارة فى الدعوة ضد الأمويين وصارت الخلافة لهم سنة ٧٥٠ وقد كانت الدعوة أولا فى بيت الرسول وأقرب الناس الى الرسول أبناؤه ولم يكن للرسول نسل الا الذين ينتسبون الى على ابن عمه وفاطمة ابنته ومن ذلك نشأ تنافس شديد بين بيت العباس وبيت على وكان العباسيون يخشون تلك المنافسة خشية جعلتهم يوقعون بكل من يظهر عليه الميل الى تفضيل العلويين . فخشى هؤلاء من الظهور وجعلوا يحاولون الوصول الى غرضهم سرا ومن ثم نشأت الدعوة العلوية السرية التى كانت فى أول امرها دعوة سياسية محضة ثم داخلتها أغراض وحاول الدعاة العلويون أن يزيدوا من التأثير على العامة ليميلوهم الى دعايتهم فأدخلوا فى ثنايا دعوتهم السياسية بعض العقائد الغريبة فمما على توالى الزمن حزب علوى قائم على دعوة سياسية دينية فى آن واحد ويسمى بحزب الشيعة وقد اختار دعاة الشيعة العلويون الأظراف البعيدة لبث دعوتهم وكانت افريقيا بطبيعة الحال من أفضل الميادين لتلك الدعوة . وهناك قامت دولة علوية فى القرن التاسع وهى الدولة الادريسية التى ينتسب رؤساؤها الى الحسن بن على ثم بدأت دعوة علوية جديدة فى اوائل القرن العاشر انشأت دولة وهى الدولة

الفاطمية وسميت بذلك انتساباً إلى السيدة فاطمة بنت سيدنا الرسول
وأصل دعاة تلك الدولة من شعبة من الشعب العلوية الكثيرة واسمها
الاسماعيلية نسبة إلى اسماعيل الامام السابع من الأئمة العلويين المتناسلين
من الحسين بن علي - فأن الأحزاب العلوية تتجاهل الدول التي قامت
في الاسلام ولا تعتد بعد الرسول إلا بأن علياً هو الحاكم الشرعي الذي
كان يجب أن يحكم ويعدونه الامام وبعد وفاته لا يعتدون إلا بابائهم متجاهلين
كل الحكام الذين توالوا على الدولة الاسلامية . وقد كانت للفرق الشيعية
العلوية عقائد عجيبة من بينها عقيدة (المهدي) وقد استغلوا الحوادث تمهيداً
لهذه الفكرة ومن ذلك ان الامام اسماعيل اختفى ولعله قتل فقال الشيعة انه
اختفى من العالم لكي يظهر فيما بعد إذا حان وقته ليظهر الارض ويملاؤها
عدلاً بعد أن تكون قد ملئت جوراً وقد استغلت فكرة (المهدي) مراراً
وكان ممن استغلها الدعاة العلويون الفاطميون في شمال افريقيا . وكان أكبر
هؤلاء الدعاة أبو عبد الله الشيعي الذي ذهب إلى هناك في زى تاجر في أواخر
القرن التاسع ونزل في قبيلة كتامة من قبائل البربر وما زال يؤثر فيهم بمهارة
حتى صار له منهم ومن سواهم نحو مائتي الف تابع قادر على الحرب ومن
ذلك الوقت بدأ أبو عبد الله يؤسس دولة على أساس دعوته . وكان في شمال
أفريقيا إذ ذاك دولتان دولة الادارسة في مراکش ودولة بني الأغلب
في مكان تونس الحالية . فبدأ بالقضاء على دولة بني الأغلب سنة ٩٠٨ وعقب
ذلك أعلن أن الامام هو عبيد الله المهدي الفاطمي وبدأت من ذلك العهد
دولة الفاطميين .

على أن كثيرين من المؤرخين يطعنون في أبي عبد الله الشيعي وفي اغراضه
من الدعوة كما أنهم يطعنون في صحة نسب عبيد الله المهدي إلى علي وفاطمة
ومهما يكن من الأمر فان الدعوة نجحت نجاحاً عظيماً وما أتت سنة ٩١٠

حتى كان اسم عبيد الله المهدي يذكر على منابر القيروان ويطلق عليه لقب
الخليفة أمير المؤمنين .

ومنذ قامت هذه الدولة جعلت تمتد شرقا وغربا حتى بلغت حدود
مصر كما قدمنا ولم يقتصر غزوها على بلاد شمال أفريقيا بل أخذت تجهز
أسطولا لغزو بلاد البحر الأبيض المتوسط ولا سيما المسيحيين .

ويتفق قيام هذه الدولة مع الاضطراب الذي أعقب دولة الطولونيين
بمصر كما قدمنا كما أنه يتفق وأيام الاضطراب الكبير في بغداد الذي كان
في عصر استبداد جنود الأتراك أولا ثم عصر تسلط الديلمية (بنو بويه) ثانيا
وقد أصبح في العالم عند ذلك خلافت ثلاث كما مر أحداها العباسية ببغداد
والثانية هذه الخلافة الناشئة والثالثة خلافة عبد الرحمن الناصر (الثالث)
الأُموي الذي كان إذ ذاك يحكم بلاد الأندلس .

وقد طال حكم عبيد الله المهدي (٩١٠ — ٩٣٤) وتمكن في مملكته
من تأسيس حكومة قوية ومن العجيب أنه قتل أكبر دعاة كما قتل
العباسيون أكبر دعاةهم (أبا مسلم الخراساني) خوفا من نفوذه المتزايد
ولم يكن في العصر الأول من دولة الفواطم أثر كبير لقيام مبنية عظيمة بل
كان كل هم الدولة منصرفا إلى التأسيس والتوسع الحربي وذلك يشغل مدة
الخليفة الثاني القائم بأمر الله وقد حدثت في أيامه ثورة هددت وجود الدولة
وكانت موجهة ضد الدعوة الشيعية ومذهبها ولم ينجب ثارها إلا في أيام الخليفة
الثالث (المنصور) . فلم يبدأ استقرار الأمر إلا في مدة الخليفة الرابع
(المعزدين الله) العظيم الذي حكم ما بين (سنة ٩٥٣ — ٩٧٥) وكان معاصرا
لدولة الناصر ومن خلفه بالأندلس وشهد اضطراب مصر بعد موت
الأخشيد ثم كافور الاخشيد وشهد قيام دولة البويهيين في بغداد ففي
مدته كانت الأحزاب الشيعية هي السائدة على العالم الاسلامي من المحيط

الاطلسى الى بغداد ذاتها ولم يكن المعز مثل من سبقه مشغولا بتأسيس الدولة أو الدفاع عن حياتها بل وجد دولة مستقرة وكان عظيمًا في خلقه عالما أدبيا يكتب الشعر والنثر الجيدين ويعرف كثيرا من اللغات المتداولة في وقته وكان خطيبا مؤثرا كما كان سياسيا ماهرا يعرف متى يشد ومتى يلين في المعاملة وكان أكبر أعمال حياته فتح مصر وقد لاحت له الفرصة منذ سنة ٩٦٨ فآخذ يستعد بجميع المال والرجال وحفر الآبار في طريق مصر وأخيرا أرسل حملته العظيمة بقيادة جوهر الصقلي (وأصله مملوك من جزيرة صقلية) وكانت عدتها نحو مائة ألف رجل وبدأت سيرها من القيروان في أوائل سنة ٩٦٩ . ولم تلق تلك الحملة مقاومة تذكر لاضطراب أمور مصر وخلوها من حاكم يقدر على الوقوف في وجه ذلك الجيش وكان جوهر رجلا ماهرا في القيادة والسياسة فسهل عليه ذلك عمله في الفتح وما أتى شهر أغسطس من نفس العام حتى كانت جنوده تمر في القسطاط عاصمة مصر ولم يكذب يحدث اصطدام في كل ذلك بين الجيش الغازي وبين الحكومة في مصر .

ولم يضع جوهر وقتا بل أخذ يقر الأمور ويعيد الأمن والاستقرار الى البلاد وبدأ منذ دخوله مصر يختط عاصمة جديدة وهى مدينة القاهرة المعزية وبنى بها قصرا لاستقبال سيده الذى عزم على ترك افريقية وجعل مصر مقرا له وبنى بها الجامع الأزهر الذى يمكن اعتباره رمزا لهذه الدولة وأكبر آثارها الباقية للآن .



(شكل ٧) الجامع الأزهر

ولم يبق جواهر بعد فتح مصر ساكننا زمنا طويلا بل استمر في الفتح
تقى بلاد الشام لينزع عن الدولة العباسية أكبر ما يستطيع من بلادها ولكنه
صدم صدمة عنيفة وتآلب عليه كثير من أعدائه أمراء بني بوية وأمراء بني حمدان
وسواهم من حكام بلاد الشام والعراق . وهزموه حتى كادوا يهددونه
في مصر ذاتها . وقد كان لهذه الهزيمة اثر في اسراع المعز بالمجيء الى مصر
فبلغها سنة ٩٧٣ . ومما يؤثر عنه انه اظهر لاعيان المصريين وعلمائها انه صار
سيد البلاد بحق الفتح وذلك انهم اجتمعوا لكي يثبت لهم المعز نسبه فجرد
سيفه وقال « هذا نسبي » ثم نشر ذهبه بينهم وقال « وهذا دليلي »

مركز الفاطميين بمصر

لم يغير الفاطميون شيئاً يستحق الذكر في مصر ولم يزعموا المصريين بارغامهم على شيء في عباداتهم أو عقائدهم والحقيقة أن الشيء الوحيد الذي كان الفاطميون يصرون على الظهور به هو تقديس آل بيت علي ولم يكن هذا مما يغضب مسلمي مصر وكل المسلمين يكرمون علياً وبيته .

وقد أقام الخلفاء الفاطميون في مصر مستقلين كل الاستقلال عن الدولة العباسية طبعاً بل كانوا منافسين لها وكانت كفة الفاطميين هي الراجحة عند ذلك لأن الدولة العباسية كانت عند ذلك تحت سلطان البويهيين وكانت في أسوأ حالات الاضطراب والضعف كما تقدم فصارت مصر تحت حكم خلفاء الفواطم أكبر دولة إسلامية ولا سيما بعد أن مات عبد الرحمن الناصر وشعرت دولة الأندلس بشدة ضغط المسيحيين الأسبانيين وسواهم من جيرانها . وقد استمرت مصر عظمى تحت حكم الفواطم نحو قرن بلغت فيه ذروة المجد وصارت دولة الإسلام الكبرى . ولكن ذلك الحال تغير بعد ذلك منذ تساطت السلاجقة على بغداد ومنذ ذهب الجيل الأول من خلفاء الفاطميين العظام .

حكم المعز بمصر

لم يطل حكمه بمصر أكثر من سنتين إذ مات سنة ٩٧٥ ولكنه في هذه المدة القصيرة أتم أعمالاً عظيمة بين حربية وسامية فأما الحربية فإن جيوشه استطاعت بعد الهزيمة التي لحقت بجوهر أن تسترجع جنوب الشام وبلغت عظمته مكة والمدينة حتى كان من أثرها الأدبي أن دعى له هناك .

وأما أعماله السامية التي امتاز حكمه بها فقد كانت في كل ميادين العمل من إصلاح لأموار الزراعة والصناعة والتجارة حتى لقد صارت مصر في أيامه من أكبر مراكز الإنتاج الصناعي بين حرير الإسكندرية وصوف أسبوط وتيل تنيس هذا عدا صناعات العاج والخزف وسوى ذلك مما اشتهرت

به مصر منذ ذلك الحين وقد شجع الآداب والفنون تشجيعاً عظيماً ويشهد على ذلك ما خلف عن عصره من آثار الشعراء وما خلف من مبانيها ولم يلق فن التصوير في عصر من العصور الإسلامية ما لقيه في عصر المعز من التشجيع فيمكن أن يقال إن المعز ابتداءً في مصر دولة حقيقية لها حكومتها المستقلة ومدنيتها النامية وقد استمرت عظمة المدنية المصرية بعد أن ضعفت قوة الدولة الفاطمية الحربية فلما استولت على مصر جيوش صلاح الدين فيما بعد وجدت بلاداً تبهرها بعظمة مدنياتها وإن كانت قد فقدت القوة الحربية منذ زمن طويل .

دول أوربا في القرنين الثامن والتاسع

بينما كان العالم الإسلامي يتطور من دولة الخلافة الأموية إلى دولة الخلافة العباسية ويصحب تطوره هذا تغير في جميع وجوه حياته الاجتماعية كانت أوربا كذلك تتطور ولكن في طريق آخر ، وقد تتبعنا فيما مضى سير دولها التي أنشأها الهمج منذ القرن الخامس ورأينا أن تلك الدول لم يبق منها في القرن الثامن إلا دولتان كبيرتان وهما دولتا الفرنج واللمبرد . وكانت دولة الروم الشرقية لا تزال في شرق أوربا تواجه الدولة الإسلامية وتدافع عن وجودها محتفظة بشيء كثير مما خلف من المدنية الرومانية الإغريقية القديمة . وانا هنا واصفون ذلك التغير الكبير الذي طرأ على أوربا في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع على يد شرلمان بن پيبن ابن شارل مارتل الفرنجي .

دولة شرلمان

كانت دولة الفرنج هي الدولة الهمجية^(١) الوحيدة التي لم تتعرض لكراهة

(١) نقصد بالدولة الهمجية الدولة التي أنشأها شعب من الهمج الذين اقتسموا أرض الدولة الرومانية الغربية القديمة .

الشعب الأصلي وذلك لا تتخاذ ملوكها المذهب الكاثوليكي وليس الا ترى .
وقد كان أباطرة الشرق منذ نشأتها ينظرون اليها نظرة ميل وصداقة بعكس
نظرتهم للدول الهمجية الأخرى . وكان رئيس الديانة المسيحية (البابا)
يتنظر الى تلك الدولة أيضا انها حامية المذهب الكاثوليكي من اعتداء
المذاهب المسيحية الأخرى ورأينا انه امتنعان بها ضد اللمبردين ولم يستعن
بالدولة الرومانية الشرقية اذ كان الشقاق بين الكنيسة الشرقية والكنيسة
الغربية قد زاد واستفحل منذ حركة (تكسير التماثيل) فليس عجيبا اذن ان
تتجدد الظروف التي تجعل البابا يعيد طلب المساعدة من ملك الفرنج ضد
الملوك اللمبردين الذين كانوا في نظره ونظر شعب ايطاليا ملوكا اجانب لهم
مذهب ديني مخالف وعوائد متكررة ومدنية دون مدنياتهم القديمة . وهكذا
استدعى شرلمان الذي خلف أباه بين على عرش دولة الفرنج الى غزو ايطاليا
انتصارا للبابا . وكان هذا فاححة عهد جديد وهو عهد احياء الدولة الرومانية
الغربية كما سيأتي :

على ان شرلمان لم يكن همه مقصورا على ذلك الميدان الضيق في ايطاليا
فقد اتجه منذ تولى الملك الى السير على خطة أبيه وجده في الفتح والحكم
فكانت جيوشه في الجنوب توغل وراء الحدود وتفتح فتوحا جديدة في
ارض المسلمين بالأندلس غير انه لم يوفق في ذلك توفيقا كبيرا لقوة
الأندلس اذ ذاك في حكم عبد الرحمن الأوسط (الثاني) وكانت جيوشه
الشمالية توغل فيما وراء الزين ، وقد اتسعت دائرة الغزو هناك بين شعوب
الجرمان وأكبرهم السكسونيون فقضى على استقلالهم بعد حرب طويلة
متقطعة استمرت نحو ثلاثين سنة وكانت نهايتها سنة ٨٠٥ وكان يتبع خطة
أسلافه في نشر المسيحية بين تلك الشعوب أثناء فتح بلادها وكان له بذلك
الفضل في إدخالها في حوزة المسيحية لأول مرة وأعدادها لتكوين جزءا من

العالم المتمدين في المستقبل . وقد بلغ في حربه في تلك الميادين حداً بعيداً حتى اصطدم بدولة الآسكار في سهول المجر بشرق أوروبا .

احياء الدولة الرومانية الغربية

نجح شرلمان عند غزو ايطاليا انتصارا للبابا وقبض على آخر ملك من ملوك اللمبيردين وهو (ديسيديريوس) سنة ٧٧٤ وبذلك قضى على تلك الدولة وصار هو ملك الفرنج واللمبردمعا ، ولما ان اتسع ملكه وصار سلطانه ممتدا من شمال اسبانيا الى شرق أوروبا أصبح أكبر ملوك المسيحية وتطلع اليه البابا ليعز المذهب الكاثوليكي بأن يتخذ لقب (الامبراطور) ويعيد بذلك مجد غرب أوروبا الذي هوى منذ القرن الخامس ، وما كان البابا ليقنع بوجود زعامة المسيحية في يد الامبراطور الشرقي الذي يخالفه في المذهب ، والذي قد نما الخلاف معه حتى اوشك أن يكون عداء ظاهرا في اثناء القرن الثامن ، وقد ساعدت الظروف على اتخاذ هذه الخطوة لأن امبراطورية الشرق كانت في يد امرأة عند ذلك وهي (ايريني) وكانت من أسوأ النساء خلقا ونفساً فكانت كل الظروف تشير الى استعسان جعل شرلمان الملك العظيم امبراطورا وتم هذا فعلا في آخر عام سنة ٨٠٠ اذ ألبسه البابا تاج الامبراطورية ومن ذلك الوقت صارت أوروبا الغربية جميعها دولة واحدة قوية ، ولكن يجب أن نذكر ان تلك الدولة لم تكن في الحقيقة دولة رومانية الا بالاسم فانها كانت دولة رئاستها في يد الفرنج وأصلهم من الهمج كما انها لم تكن تشمل كل بلاد الدولة الرومانية القديمة ولم تكن شعوبها غير أجناس مختلفة من الجرمان ما عدا ايطاليا التي كانت محتفظة بشيء من تراث الرومان

ادارة شرلمان وحالة عصره الفكرية

كان شرلمان في خلقه فرنجياً بسيط العادات وظل كذلك الى آخر حياته .

مع عظم مكانته اذ بلغ المحل الأول بين ملوك العالم ، وكان ولا شك أكبر ملك في أوروبا — وكان محباً للرياضة ولا سيما الصيد والسباحة ولم يكن متكلفاً في معاملته لرجال دولته بل كان يتبسط معهم في حديثه ومجالسته . ولكنه لم يكن على شيء كثير من العلم ولم يكن ذلك بمستغرب في ذلك العصر الذي سادت فيه الجهالة على أوروبا منذ القرن الخامس حتى لم يبق قبس من العلم أو الأدب إلا في بعض الأديرة والكنائس ولكنه مع ذلك كان يدرك قيمة العلم فعمل على إنشاء المدارس العامة وجعل يلتحق بها المعلمين من جميع أنحاء العالم المسيحي وجعل في كل دير أو كنيسة قسماً (خارجياً) لتعليم العامة ولكن كانت تلك المدارس لا تعلم إلا بعض أمور دينية . وكان يقرب رجال العلم في بلاطه وكانت مجالسه معهم شبيهة بأن تكون نادياً أدبياً . ولكن يجب أن نذكر دائماً أن الحالة الفكرية في أوروبا اذ ذاك لم تكن عالية يدل على ذلك أن هرون الرشيد عندما أهدى الى شارلمان ساعة من صنع العرب ظنها رجال الحاشية من الفرنج آلة سحرية تسكنها الشياطين .

ولكن شارلمان كان إدارياً قادراً بطبيعته فإنه أشرف على أمور دولته الواسعة بهمة جعلت كل انحاءها تشعر بوجوده وكان أكبرهم أن يجعل دولته دولة مركزية قوية متماسكة الاطراف . فكان يرسل من رجاله رسلاً يجوبون الاقطار ويرسلون اليه تقاريرهم عنها ويراقبون حكام الاقاليم في السير على قوانين الدولة والقرارات التي كان يصدرها وجعل أبناءه الثلاثة مساعدين له في إدارة تلك الاقطار الواسعة ولكنه تحاشى أن يشعرهم بأن لا أحدهم قسماً خاصاً بل أن جميع الدولة وحدة لا تتجزأ أو مركزها في عاصمتها (آخن) وهي مدينة (أكس لا شابل)

والحق أنه ترك عند موته سنة ٨١٤ دولة من الدول الفذة التي لم يظهر كثير مثلاً في التاريخ . وخلفه ابنه (لويس) المعروف بالتقي والذي نستطيع أن نسميه بالضعيف فلم يلبث أن شعر بثقل جملة وعجزه عن القيام به .

الدولة الرومانية الغربية بعد شارلمان

كان من المحتوم على دولة شارلمان أن تتفكك لأنها كسائر أمثالها من الدول التي تتكون من عناصر مختلفة لا يمكن تماسكها إلا مادامت الحكومة المركزية قادرة على حفظها بالقوة وقد خلف شارلمان ابنه لويس الذي بقي بعد موت سائر أبناء ذلك الملك العظيم وكان لويس على عكس خلق أبيه ومن أدل الأمور على عجزه أن كل عصره مضطرب بالفتن والثورات ولم يكن الشوار إلا أولاده أنفسهم وسبب ثوراتهم عدم رضاهم عن أبيهم في تقسيمه الدولة بينهم تقسيماً اعتقدوا أنه غير عادل وأنه يحابي فيه أخاهم الأصغر . قلنم سريعاً على عهده مكتفين بأن نذكر أنه مات ولم يزل في نضال مع أولاده . وكان لهذا النضال المستمر تأثير كبير في الدولة من وجوه مختلفة أهمها .

(١) تقسمت الدولة أحزاباً وزاد نفوذ الأمراء الذين كانوا بطبيعة الحال أكبر العوامل في الحرب الداخلية . وهذا يهدد السبيل إلى عهد حكم الأمراء وهو ما يسمى بالعهد الإقطاعي .

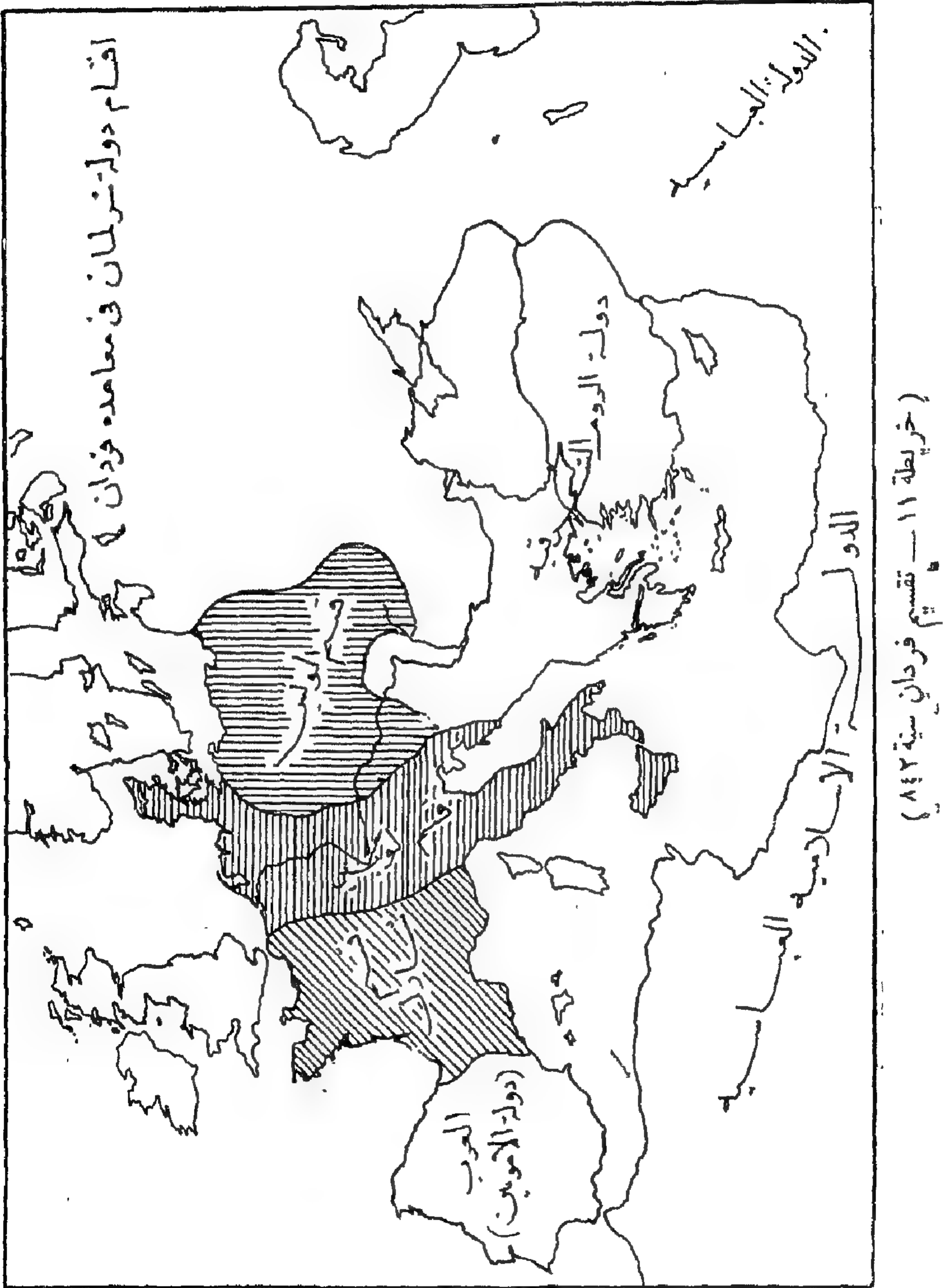
(٢) ظهر ضعف الحكومة المركزية وطمعت فيها الشعوب الهمجية المجاورة وأهمها المجر والبرمانديون . كما طمع فيها العرب في الأندلس وشمال إفريقيا .

(٣) كانت الحرب الداخلية ظرفاً ملائماً للأقاليم المختلفة أن تميل للانفصال وهذا ما حدث بعد موت لويس كما سيأتي

تقسيم الدولة بعد موت لويس

لم تتفق رضى الحرب الداخلية بعد موت لويس بل استمرت على يد أبنائه لوتير ولويس وشارل إلى أن انتهى النضال بينهم على صلاح بعد مجزرة هائلة قتل فيها آلاف من الفرنج حتى قيل أن تلك المجزرة مهدت السبيل

إلى سلب السيادة الحربية من الفرنج وكانت تلك الموقعة الهائلة عند (فونتنای) في برغنديا سنة ٨٤١ وقد عقد الصلح بعد ذلك في مدينة (قرثان) سنة ٨٤٣



(خريطة ١١ — تقسيم فرداني سنة ٨٤٢)

وفيه تقسمت الدولة إلى أقسام ثلاثة القسم الشرقي ويشمل جرمانيا على

الاكثر والقسم الغربى ويشمل بلاد الفرنج على الاكثر وأما الاوسط فكان رقعة مستطيلة من الارض تمتد من بحر الشمال الى إيطاليا وتشمل حوض الرين وجزءا من برغنديا وكل إيطاليا .

فكان القسم الشرقى وحدة طبيعية أصبحت أساسا لجرمانيا الحالية وكان القسم الغربى وحدة كذلك وأصبح أساس فرنسا الحالية .

وأما القسم الاوسط فكان خليطا مركبا من وحدات مختلفة ولن ينمو نموا بسيطا كالتقسيمين الآخرين بل يسير تاريخه سيرا مضطربا كما سياتى .
تجدد هجوم الهمج (الترمانيين والمجر) وآثاره

قبل أن يموت شرلمان العظيم نفسه شوهدت آثار اغارات عند السواحل الشمالية من قوم من البرابرة يطلق عليهم اسم الترمانيين أو (أهل الشمال) (١) . ولكن قوة الدولة عند ذلك لم تجعل لظهورهم أثرا ظاهرا غير أن هجومهم العنيف تجدد فى أيام لويس وبعده . واتخذ شكلا مفرقا نظر الضعف الدولة الذى بدأ منذ الحرب الداخلية التى ثارت منذ أيام لويس . ولم يكون هجوم الترمانيين مقصورا على مكان دون مكان بل كانوا يهددون جميع البلاد الساحلية ولا سيما السواحل التى بها مصاب الأنهار العظيمة لأنهم كانوا يغيرون فى سفن مسطحة القاع خفيفة فيهبطون من مصاب الأنهار الى المدن الكبرى الواقعة عليها فى الداخل ويسلبون ما استطاعوا ان يسلبوا ثم يعودون سراعا قبل ان يستطيع أحد الوقوف فى وجوههم ، فآغاراتهم كانت للسلب والنهب وليست للغلبة والحلول ، فكانوا يغيرون على شمال المانيا ويدخلون مصاب الرين ويغيرون على فرنسا من مصبات أنهارها الشمالية والغربية ويحملون على

(١) هم قوم من الجرمان كانوا يشكشون اسكندهاوه وشواطئ بلاد الدانمارك وكان البحر ميدانهم الفسيح لهم جرافة عجبية على خوضه وكانوا وثنيين فاذا ما نزلوا ببلاد مسيحية أو اسلامية بالغوا فى أذى أهلها حتى أصبح اسمهم مرادفا للقسوة والفظاعة .

ارض بريطانيا من الشرق والجنوب ولم تنج الأنداس الإسلامية من اغاراتهم على غربها وجنوبها وكان العرب يسمونهم (بالمجوس) ودخلوا اقليم البحر الأبيض واغاروا على ايطاليا وجزائرها .

وبينما كان الترمانيون دائبين على اغاراتهم هذه كان فرسان المجر يدخلون الى الدولة الرومانية الغربية من حدودها الشرقية فيخربون ويسلبون ويعودون على خيولهم سراعا قبل ان تستطيع الحكومة المركزية ان تتحرك بجيوشها للدفاع .

واستمرت اغارات المجر والترمان منذ أواسط القرن التاسع تفتك في أنحاء العالم الغربي غير انها لم تخل من آثار دائمة في أوربا أهمها ما يأتي :
(١) . بدأ أمراء أوربا يرون أن تلك الاغارات لا يستطيع ردها بالحكومات المركزية وجيوشها التي لا تتحرك الا ببطء وجعل أمير كل جهة يفكر في اتخاذ وسائل الدفاع السريعة عن جهته وبدأ بناء الحصون المعيدة في أنحاء الدولة الرومانية الغربية كما اتبع الأمراء سنة اعداد جماعات مسلحة من الفرسان ليكونوا على استعداد سريع حتى اذا أغار هؤلاء المدمرون اغارتهم السريعة الخربة كان مع أمير الجهة كتيبة من فرسان شجعان يسرعون الى الدفاع في حين ان غير المحاربين يسرعون الى الحصن الواسع الذي بناه الا مير ليلجأ واليه بأولادهم وأموالهم حتى يرد الفرسان عنهم خطر الاغارة ويصدوا البرابرة الخيفين ، وكان لذلك أثر كبير في نمو الاقطاع كما سيأتي :

(٢) . نبغ جماعة من الأمراء في الدفاع ضد هؤلاء المغيرين مثل البرنس (روبر القوي) الذي ظهر في الدفاع عن باريس وهؤلاء الأمراء لعبوا دوراً هاماً في تاريخ بلادهم اذ صارت لهم مكانة كبرى جعلت الناس ينظرون اليهم والى نسلهم نظرة اجلال وتعظيم وقد صار من نسلهم من

أصبحوا مملوكاً مثل أسرة (كاپيه) التى نبغت من سلالة (روبير) المذكور .

(٣) حل بعض الترمان فى بعض الجهات وصرح لهم بالبقاء فيها ومثل ذلك حلوههم فى شمال فرنسا سنة ٩١١ على أثر اتفاق رئيسهم (رولف) مع ملك فرنسا وحلوههم فى انجلترا بعد نضال طويل مع الملك (الفريد الكبير) .

اوربا الاقطاعية

(العصر الأول منذ أواخر القرن التاسع الى أواخر القرن الحادى عشر)

تقسمت الدولة بعد معاهدة فردان الى ثلاثة أقسام كما رأينا وكان ذلك عقب حرب داخلية طويلة كان الأُمراء أكبر العاملين فيها فحدث فى وقت واحد أمران الأول ان الأُمراء صار لهم صوت مسموع فى أمور الدولة والثانى ان الحكومة المركزية ضعفت وزال الهيكل الهائل الذى أقامه شرلمان .

وكان هؤلاء الأُمراء من الفرنج أو الجرمان ينتمون الى الأسرات النابغة التى كانت فيها زعامة القبائل الجرمانية المختلفة من قبل فلما ان صار لهم ذلك النفوذ الكبير منذ أيام لويس التقي جعلوا يتوارثون الامارة كابراً عن كابر فما مضى نصف قرن على معاهدة فردان حتى كان فى جميع أنحاء اوربا الغربية سرات كثيرة تحكم فى الجهات المختلفة ويتوارثون الحكم فيها .

فلما تجددت اغارات الهمج (الترمان والمجر) فى القرن التاسع وكان العرب يهبطون من شمال أفريقيا والأندلس على الدولة المسيحية بفرسانهم برراً وسفنهم بجرأً واضطر الأُمراء الى اتخاذ الحصون لحماية الناس وكتائب الفرسان للدفاع السريع عن الاقليم قل شأن الحكومة المركزية وصار

الأمراء هم كل شيء في الدولة وأصبح في استطاعتهم أن يثبتوا وجودهم على رغم الحكومة المركزية بما لديهم من وسائل القوة ونشأ من ذلك نظام جديد له حالة اجتماعية جديدة من جميع وجوها وهو :

نظام الاقطاع

كانت دولة شلمان في مدة حياته دولة مركزية قوية وكان كل حكمائها يأتمرون بأمر الإمبراطور لا يستطيعون مخالفته وكانت القوانين والأوامر لا تصدر إلا عنه . فكانت سيادة الحكومة تامة على جميع الداخلين في حدود الدولة .

فلما ان تغير ذلك الحال في أثناء القرن التاسع كما مر صار كل أمير مستقلاً بجهة يحكمها وكان عليه واجب الدفاع عنها بفرسانه ونفسه وحماية أهلها في حصنه كما أصبحت له على مرور الزمن حقوق على الناس في إقليمه كأن يؤدوا له الأموال ويخضعوا لقضائه ويقوموا له بخدمات معينة فكان هذا النظام أشبه بتعاقد بين الحاكم والمحكوم يتعهد فيه كل منهما بعمل معين نظير عمل مقابل له من الآخر .

ولم يكن في الدولة طبقة واحدة من الأمراء بل كان هناك الأمراء الكبار ويليهم أصغر منهم إلى طبقة السادة والفرسان الصغار وكانت كل طبقة مرتبطة بما يليها برباط تعاقدى كما وصفنا فكان النظام في عصر الاقطاع أشبه شيء بالهرم وقمته الملك الأعلى وقاعدته السادة والفرسان ثم الشعب

رسوم الاقطاع

كانت نظرية الاقطاع ان الأمير يستمد سلطته على اقطاعه من الملك أو من الأمير الذي فوقه مرتبة فالأمر يستمد اقطاعه من تقليد مولاة وليس من انه وراث لها عن الحاكم السابق وقد نشأت على توالى الزمن عادات وقواعد معينة اتخذت لها أساسا راسيا وأصبحت عرفا لا يستطيع الحيد عنه ومن أكبر مظاهر هذا العرف ما كان يتبع من الرسوم في المعاملات

بين الملك والأمرء أو بين الأمرء بعضهم وبعض ولا سيما عند تولية أمير جديد فكان الأمير عند أول استيلائه على اقطاعه يحتفل بيمين الولاء لسيدته الذي فوقه الذي له الحق القانوني في اعطائه الإقطاع وذلك السيد أما أن يكون أميراً كبيراً وأما أن يكون الملك ذاته وكان يمين الولاء عبارة عن قسم يتعهد فيه الأمير بأن يقدم لسيدته خدماته بسيفه عند الحاجة وأن يقدم له ما يلزم من مساعدات أخرى . وكان تحف بتلك الحفلة مظاهر تجعل لها جلالاً ومهابة

الأمير الاقطاعي وشعبه

كان الأمير الاقطاعي فيما عدا تعهده لمولاه بالولاء حراً في اقليمه وكان يعيش في قصره مع أهله وفرسانه عيشة عزلة تامة في انتظار ما قد يكون من الاغارات وكان القصر عبارة عن حصن فسيح يبنى في أغلب الأوقات على تل ويكفي لسكنى الفرسان وإيواء الفلاحين أنفسهم عند الاغارات . وكان للحصن في الغالب ثلاثة أسوار حول كل منها خندق تملأ بالماء عند الحاجة للدفاع وعلى الخندق قنطرة متحركة ترفع ليلاً إذا أريد عزاء الداخل عن الخارج وكان عند أبواب الأسوار أبراج لحمايتها ومثلها أبراج أخرى موزعة ليقف بها الجنود وقت الدفاع . وفي وسط القلعة أما كن لخزن الماء والا كل وبناء قوى تودع فيه الأشياء الثمينة والوثائق الهامة وكان حوله خندق خاص ولا موصل اليه الا على قنطرة متحركة كانت دائماً ترفع الا عند ارادة الدخول اليه

وأما الشعب فكان قسمين شعب الريف وشعب المدن فاما أهل المدن الذين يشتغلون بالصناعات المختلفة والتجارة فكانوا أحراراً يقيمون حيث شاءوا ولكنهم كانوا ملزمين بالخضوع للأمير ما داموا على أرضه واما أهل الريف فكانوا يعيشون على (أرض الأمير) وكان على الأمير حمايتهم في نظير خضوعهم المطلق لسلطانه وقضائه وكانوا لا يستطيعون أن ينتقلوا

الى ارض سواه من الاُمراء وكان عليهم أداء الضرائب اليه وتأدية خدمات
معينة بأنفسهم كإفلاحة أرضه وتمهيد الطرق وحفر الخنادق الخ .

دول أوروبا في العصر الإقطاعي

حكم الإخوة الثلاث أبناء لويس التقي في الأقاليم الثلاثة التي نشأت
من معاهدة فردان وحكم بعدهم نسلهم جيلا بعد جيل وهم من يسمون
(بالكارليين) أو (الكارلوفنجيين) لأنهم من نسل كارل (شارل)
ولكن هذه الفروع الثلاثة الكارلية لم تلبث أن أصبحت ظلالا لا حقيقة
له في أواخر القرن التاسع وما هل القرن العاشر حتى كان أحد هذه الفروع
مقد انقرض وهو فرع جرمانيا

جرمانيا أو القسم الشرقي

واختار الأُمراء الإقطاعيون في جرمانيا (القسم الشرقي) ملكا من
السكسون وهو (هنرى) المعروف (بالصياد) وبذلك يبدأ عهد جديد
في جرمانيا تحت حكم ملوك من الجرمان أنفسهم وكان نظام دولتهم هو النظام
الذى ساد جميع أوروبا إذ ذاك يعنى نظام الإقطاع .

القسم الأوسط

بينما كانت جرمانيا سائرة تحت حكم ملوكها الوطنيين حدث انقلاب
آخر فان ملوك جرمانيا بعد حين رأوا اضطراب أمور القسم الأوسط حتى
دعت الظروف الى تدخلهم فيها وما أثبت أواسط القرن حتى كانت جيوش
ملك جرمانيا تفتح إيطاليا وكان ذلك الملك هو (أوتو الأول) العظيم . ولما
تم له فتحها اتخذ لنفسه لقب الامبراطورية الذى كان منذ معاهدة فردان
من نصيب القسم الأوسط وذلك سنة ٩٦٢ وأصبح بعد ذلك لقب امبراطور
الدولة الرومانية الغربية خاصا بملوك جرمانيا ولكن تلك الدولة الجديدة التى
أنشأها (أوتو) تعرف فى التاريخ باسم (الدولة الرومانية المقدسة)

فرنسا القسم الغربي

بينما كانت هذه الحوادث تجرى فى القسمين الشرقى والأوسط كان القسم الغربى (فرنسا) يتحول تحولا ماثلا . فان الفرع الكارلى الذى كان يحكمها تقلص نفوذه وتسرب الى الأمراء تدريجا وآل الأمر أخيرا الى استيلاء أسرة من هؤلاء الأمراء على الملك وهى أسرة (كاييه) التى تنسب الى (روبرت القوي) الذى ذكرنا من قبل انه كان صاحب الفضل فى الدفاع عن باريس ضد الترمانيين . وكان استيلاء (الكايتيين) على عرش فرنسا سنة ٩٨٧ .

فما أتى آخر القرن العاشر حتى كانت جميع أوربا خاضعة لنظام الاقطاع وعلى رأسها أسرتان جديدتان وهما الأسرة الجرمانية السكسونية أسرة هنرى الصياد واتو الكبير والأسرة الفرنسية (أسرة كاييه)

بعض مميزات العصر الاقطاعى

الفروسية : كان من اظهر مميزات ذلك العصر ان الحرب صارت الوسيلة الوحيدة لحفظ أوربا من الاغارات المستمرة واصبح المحاربون لهم الحل الأول فى المجتمع الذى يدافعون عنه . وقد نمت على توالى الزمن قواعد يجب على المحارب ان ينبعها فى سلوكه وكلها ترمى الى جعل الشرف وأداء الواجب أول ما يسعى اليه وكان أداء الواجب يقصد به الدفاع عن الدين وعن الضعفاء من النساء والأيتام وسواهم ونصرة الحق فى أية صورة من صورته ولم يكن مباحا لكل فرد أن يكون فارسا بل كانت الفروسية امتيازاً للأمرأ وكان لدخول الشاب الى طائفة الفرسان احتفال مهيب يرأسه رجل كبير وكان يرأسه أحيانا أسقف من رجال الدين . وبعد أداء الرسوم الخاصة بالاحتفال كان الرئيس يخاطب الفارس قائلا « كن محاربا مسالما شجاعا مخلصا لله » ثم يسامحه سيفه . ويركب الفارس بعد هذا بسلاحه كاملا ويظهر براعته

فى استعمال السلاح ومهارته فى ركوب جواده بين استحسن النظاره واعجابهم .
وكان الفرسان فى اوقات كثيرة يتسابقون فى حفلات « المرامحه » لىظهر
كل منهم براعته وقوته . وكان لكل منهم علامه خاصه على درعه يعرف
بها وهى اما صورة حيوان واما رمز مخصوص



(شكل ٨) فارس

نفوذ الكنيسة وظهور البابوية

اذا كانت أوروبا فى نظامها السياسى قد صارت اقطاعية كما سبق فان
الكنيسة فى تلك العصور كانت على عكس ذلك فانها كانت مركزية تامة .
وكانت السلطة الدينية فى يد البابا فى رومة تصدر عنه كل الامور المتعلقة
بالدين

وقد كان البابا فى رومة رئيسا دينيا كبيرا منذ ايام المسيحية الاولى .
ولكن كان الى جانبه رؤساء آخرون فى القسطنطينية وفى الاسكندرية .
غير أن مدينة رومة كانت مقر كرسى بطرس الرسول وهى بهذه الصفة لها
اعتبار اسمى من كل الاىما كن الاخرى وقد زاد سلطان البابا الدينى .

منذ سقطت الامبراطورية الرومانية الغربية القديمة. فان وجود البابا وحده في رومه بغير رئاسة مبدلة أخرى بجانبه جعلت له المسكنة الأولى في غرب أوروبا وجعلت عليه عبء نشر المسيحية ورعاية اتباعها . وقد زاد نفوذ البابا زيادة مضطردة من أيام اتيو دوريك القوطى الى أيام اللمبردين كما مر وزادت قوته عندما صار حاكما دنيويا يحكم رومة منذ أواخر القرن السادس

وقد زادت الأرض التي يحكمها اتساعا عندما أعانه بين الفرنجى . فى أواسط القرن الثامن وزادت مرة أخرى عندما فتح شارلمان إيطاليا ولما صار شارلمان امبراطورا على غرب أوروبا سنة ٨٠٠ صار البابا الى جانبه رئيسا للدين . فلما اضمحلت دولة الكارولين ظل البابا رئيسا دنيويا معترفا به من الجميع . فى العالم المسيحى الغربى فلما أن دخل أتو الاول إيطاليا فاتحا وضمها لدولته (جرمانيا) وكون الدولة الرومانية المقدسة صار البابا الى جانب الامبراطور يتعاونان على حكم أوروبا الغربية على أن نفوذ البابا كان أعم وأشمل اذ كانت كل أوروبا الكاثوليكية خاضعة له وليس فقط الدولة الرومانية المقدسة . ولم تتأثر الكنيسة بالنظام الاقطاعى فكانت سلطة البابا تشمل كل أوروبا الغربية فى حين أن الحكام السياسيين من ملوك أو أمراء كانوا فى ذلك العصر الاقطاعى لا تتعدى سلطتهم حدود اقطاعاتهم وكانت الحكومات المركزية لاسلطة لها إلا سلطة اسمية على امراءها الذين صارت فى يدهم القوة الفعلية فى اقطاعاتهم .

وكانت الكنيسة تؤدى فى ذلك العصر خدمات جعلت لها سلطانا أدبيا كبيرا على الامراء والعامّة معافان الا أمراء كانوا فى شغل مستمر من الحروب وكانوا إذا لم يجدوا إغارات خارجية يدفعونها لغير بعضهم على بعض وتنشأ من ذلك مضار كبرى للناس فكانت الكنيسة تتداخل دائما لتداوى هذه الجروح الداخلية وكانت تضع للناس حدودا فى حروبهم لتقلل من ألمها

كما كانت تضع لهم أوقاتا لا يحاربون فيها وتجعلها حراما . وكانت مطاعة في أوامرها لا يكاد أحد يستطيع مخالفتها حتى الأمراء والملوك فإذا عصاها أحد استعملت ضده سلاحها وهو الطرد أو الحرمان وأخرجته من دائرة المسيحية فلا يعامله أحد ولا يدخل أما كن العباداة ولا يصلى على جثته بعد الموت الخ . وكان هذا العقاب يخيف أكبر الرؤوس والامبراطورين أنفسهم .

وإذا كان الحرمان ضد أمير قوطع أقليمه فتغلق كنائسه وتمنع شعائر الدين عن أهله حتى يضج الشعب ويرغمه على الخضوع والتوبة ولا أجل أن تتوب الكنيسة عليه كان لا بد من تأدية رسوم الندم كأن يبقى أياما على باب كنيسة ملقى على الأرض يبكي معترفا بذنبه ويلبس ملابس خشنة سوداء ويسير حافى الاقدام أو يصوم فلا يأكل الا الخبز والملح والماء الخ .
الرهبنة والأديرة .

الرهبنة معناها أن يجعل الانسان نفسه للدين وحده ويعيش بعيدا عن المجتمعات عيشة خشونة وزهد وأساسها ألا يتزوج ثم يأخذ نفسه بجميع الصفات التى تكون المثل الأعلى للدين . وأول مثل من الرهبان فى المسيحية كان على ما يظهر القديس (أنطونيوس) بالقطر المصرى فى مدة دقلديانوس إذا اعتزل حينما الى الصحراء الغربية ثم أوى بعد ذلك الى الصحراء الشرقية فى المكان الذى أقيم فيه الدير المعروف باسمه الآن على جبال البحر الأحمر جنوب السويس . وقد بنى الدير على مقربة من المغارة التى كان يأوى اليها ذاك القديس ويعيش فيها . وقد انتقلت الرهبنة بعد ذلك الى أنحاء أوربا وكان سيرها فى المبدأ بطيئا حتى سقطت الامبراطورية الرومانية الغربية وتقسمت أوربا بين الهمج وبدأت العصور الوسطى وعند ذلك بدأت تسير سيرا منتظما وأصبح لها أصول ورسوم وأول من وضع لها نظاما معلوما القديس بندكت ويتلخص نظامه فى أنه يحتم على الراهب الحياة فى الأديرة المنعزلة ليعيش

عيشة فقر وخشونة وعمل . وان يكون كل الرهبان في دير واحد متضامنين .
متساوين .

وقامت عقب ذلك أديرة كثيرة على نمط نظام بندكت حتى صار منها
كثير في كل بلاد أوربا . وكان الناس منذ رأوا فكرة الأديرة والرهبنة .
يحاولون مساعدتها بالهبات حتى تكدست الثروة فيها وعند ذلك دب
الفساد في رهبانها ونسوا فكرة الرهبنة الأولى . فقامت حركة اصلاحية
في فرنسا قام بها أحد أمراء برغنديا وذلك بتأسيس دير آخر يكون على نمط
جديد وهو دير (كلوني) سنة ٩١٠ وأنشئت له فروع في جميع أنحاء أوربا
حتى صار من متخرجيه جماعة من أكبر رجال الدين والبابوات .

وجعلت فكرة الرهبنة بعد ذلك تتحول ف اتخذت شكلا جديدا يلائم
حالة العصور الجديدة فكما أن فكرة الفرسان في العصور الوسطى كانت
العمل على نصره الضعيف والدين كذلك نشأت طائفة الفرنسيسكان
بايطاليا نسبة الى مؤسسها فرنسيس في أوائل القرن الثالث عشر وكانوا
يقصدون أن يجعلوا حياتهم وقفا على خدمة الدين فبدلا من الإقامة في الأديرة
كان نظامهم التجرد عن الوطن والإقامة وقضاء الحياة في التنقل لنشر الدين
وخدمة الانسانية ولكنهم كانوا يقبلون الهبات والصدقات أحيانا حتى صار
يطلق عليهم لقب الشحاذين والفقراء وفي نفس الوقت أنشئت جماعة مثلها
في اسبانيا أسسها دومنيك لأغراض مشابهة لطائفة الفرنسيسكان وزادوا عليها
محاربة الاتحاد الذي دب في أوربا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

وكانت الرهبنة بأنواعها والأديرة التي تنشأ معاقل لنصرة الكنيسة
الكاثوليكية ولم يكن للبابا أنصار أشد منهم إخلاصا وأكثر حماسة في تلك
العصور وقد كانوا سببا في تجميع الرأي العام المسيحي في جانب البابوات
في النضال الذي حدث بينهم وبين الامبراطورية كما سيأتي .

وقد كان للرهبان والأديرة أثر كبير في حياة أوربا فان العلم بقي هناك

على شيء من الحياة في حين انعدامه في انحاء أوربا بين الناس في تلك العصور المظلمة كما ان الأديرة كانت تستخدم في كثير من الأغراض . فكانت أحيانا تستخدم كالملاجيء والمستشفيات وأحيانا كانت تستخدم معاقل يحتمى فيها المسيحيون من أخطار الاغارات الهمجية .

الرهبان المحاربون

سيأتى ذكر هؤلاء عند الكلام على الحروب الصليبية .

اضمحلال النظام الاقطاعى

الحكومات تقوم في الدول لضرورات الحياة وكل حكومة لا بد أن تكون ملائمة لروح عصرها وحالة المجتمع الذى هى فيه فاذا كانت غير ملائمة لذلك ظهر فسادها ولم تلبث أن تزول ويحل محلها نظام جديد أو فى الغرض منها وهكذا كان الحال فى النظام الاقطاعى بأوربا فانه نشأ من ضرورات العصر وحوادثه كما سبق وقد استمر ذلك النظام منذ أواخر القرن التاسع قرونا عديدة كانت الأحوال فيها قد تغيرت من كل الوجوه السياسية والاجتماعية وبذلك صارت الحكومات القائمة على النظام الاقطاعى غير ملائمة للعصر الجديد فظهر فسادها تدريجا ووقعت أوربا من جراء ذلك فى اضطراب شديد انجلي أخيرا عن نظام حكومة جديدة ملائمة للعصر الجديد

فساد النظام الاقطاعى

استقرت الأمور بعد القرن العاشر فان النorman استقروا فى شمال فرنسا وانجلدتره وخبت نيرانهم . واستقر المجر كذلك فى دولتهم فى شرق أوربا . ودخلت تدريجا فى حوزة دول أوربا وامتنعت اغاراتهم . واضمحلت قوة الدول الاسلامية فى الأندلس وشمال افريقيا بعد القرن العاشر فزال أخطار هجماتهم أوقات قلة كبرى وبذلك صارت الظروف لا تستدعى وجود الامراء

الاقطاعيين للدفاع ولكن الأمراء الاقطاعيين استمروا يحكمون أوربا على أسلوبهم واستمرت لهم قلاعهم وفرسانهم مع عدم وجود الداعى لبقائها قصاروا يوجهون جهودهم فيما بينهم وجعل كل منهم يلمس ميادين للحرب داخل أوربا وهكذا تحولت أوربا الى ميادين للحرب الداخلية بين الأمراء ونتج عن ذلك ما نتج من التخريب والتدمير وسفك الدماء فالاقطاع حفظ أوربا من غارات المغيرين ولكنه سلبها اطمئنانها بعد القرن العاشر وحوّلها الى بؤرة حروب داخلية مستعرة .

ومنذ تم ذلك التحول أصبح لا معنى لوجود الواجبات التى يؤدىها الشعب للأمراء فقد كانوا من قبل يؤدون للأمراء ثمن حمايتهم من الاغارات الأجنبية فأما وقد صارت الحروب داخلية لا مبرر لها الا ترغات الأمراء وميولهم الخاصة للحرب والمنافسات التى بينهم فقد صار الشعب يؤدى خدماته وضرائبه بغير مقابل وبدأ يظهر له انه فريسة للأمراء المعتدين بعد أن كانوا حماة المدافعين عنه وصار النظام الاقطاعى منذ حدث هذا التغير نظاما جائرا لا مبرر له وكان من المحتوم أن يتغير ليحل محله نظام آخر يليق بالمجتمع الجديد ولما بدأت حركة جديدة ترمى الى تكوين حكومات مركزية وهدم النظام الاقطاعى كان الشعب معضدا للملوك المركزيين على الأمراء وما زال الملوك فى سعيهم حتى قضوا تدريجا على ذلك النظام ونمت على إنقاضه دول أوربا الحديثة كما سيأتى فيما يلى

وقد ساعدت عدة ظروف على القضاء على ذلك النظام الاقطاعى كان اهمها ما يأتى :

- (١) مناصرة أهل المدن الاحرار للملوك ضد الأمراء الاقطاعيين
- (٢) ميل الفلاحين بعواطفهم الى تكوين حكومات مركزية على يد الملوك فكانوا يساعدون ضد الأمراء بما استطاعوا .
- (٣) اختراع البارود فقد ساعد ذلك على تدمير الحصون الاقطاعية التى

كان الأُمراء يتحدون قوة الحكومة المركزية بمناعتها .
(٤) موت كثير من أكابر الأُمراء في الحروب الكثيرة التي ثارت .
منذ أواخر القرن الحادى عشر كالحروب الصليبية وحروب المائة عام وحروب .
الوردتين وسيأتى ذكرها فيما بعد .

نبذة قصيرة عن النضال

(بين البابوية والامبراطورية) .

بعد معاهدة فردان تقسمت دولة شرلمان العظيمة وحكمت على اقسامها
الثلاثة الفروع الثلاثة للأسرة (الكارلية) كما مر ثم تطور الحال ونما
النظام الإقطاعى وقضى على فروع الأسرة الكارلية فأولا قضى عليها
فى جرمانيا وحكم بدلها ملوك الأسرة السكسونية الجرمانيون سنة ٩١٨ .
ثم قضى عليها فى فرنسا وحكمت بدلها أسرة (كاپيه) سنة ٩٨٧ وأما الفرع
الثالث فى القسم الأوسط فان أموره اضطربت حتى تداخل (أتو)
الأول ملك جرمانيا وضم إيطاليا الى دولته واتخذ لقب الامبراطور
سنة ٩٦٢ وسميت دولته منذ ذلك الحين بالدولة الرومانية المقدسة وتختلف
الدولة الرومانية المقدسة عن الدولة الرومانية الغربية التى كونها شرلمان فى
وجوه كثيرة أهمها ما يأتى :

(١) انها كانت مكونة من جرمانيا وإيطاليا فقط فى حين أن دولة شرلمان
كانت تضم فرنسا أيضا

(٢) انها كانت تحت سيادة الجرمان فى حين أن دولة شرلمان كانت تحت
سيادة الفرنج

(٣) انها كانت دولة اقطاعية بالمعنى الصحيح في حين كانت دولة
شرلمان مركزية .

(٤) ان مركز البابا في دولة (أتو) كان له اهمية كبرى لأن (أتو) كان
من أغراضه في الاستيلاء على إيطاليا أن يستفيد بسلطة البابا لكي يخضع
الأمراء الاقطاعيين الدينيين فان الأمراء كان بعضهم من رجال الدين وكانوا
لا يخضعون للحكومة بحجة انهم رجال دين لا يخضعون الا للبابا وقد نجح
(أتو) فانه جعل البابوات تحت سلطانه واستفاد بنفوذهم الديني لتقوية سلطانه
على جميع أمرائه الداخلين في دولته .

ومن هذا يمكن أن ندرك أن دولة أتو كانت منذ تأسيسها ذات مسائل
صعبة وأمور معقدة وقد حاول أتو أن يقابل هذه المسائل ويقوى مركز
حكومته ويخضع الأمراء الاقطاعيين بمساعدة البابا ونال في سعيه نجاحا
كبيرا غير أن خضوع البابوات لسيادة الامبراطورين ومساعدتهم لهم على
سياستهم لم يستمر طويلا ففي أواسط القرن الحادى عشر وجد في البابوات
جماعة من خريجي دير كلوني وكانوا شاعرين بأهمية مركزهم الديني وبخطورة
نفوذهم في العالم المسيحي وبدأوا يحاولون التخلص من مراقبة الامبراطورية
وسيادتهم وكان أول سعى في ذلك السبيل محاولة عظيم من البابوات وهو
(جريجوار السابع) الذى بدأ النضال مع الامبراطور (هنرى الرابع)
على مسألة تعيين رجال الدين والتصرف في أملاك الكنيسة وأعلن ان الواجب
استقلال الكنيسة بأمورها والا يكون للحكام الدنيويين سلطان عليها وكان
هذا فاتحة عصر بقتال طويل بين البابوات والامبراطورية تقلب في ادوار
مختلفة لا مجال هنا لوصفها غير انا نذكر هنا أن البابوات نالوا نجاحا كبيرا
في ذلك النضال ولا سيما في أول الأمر حتى خلبوا الكنيسة من رقابة
الامبراطورين وصار البابا مطلق النفوذ في رجال الدين وممتلكات الكنيسة



(شكل ٩) فارس اقطاعى

وقد حدث فى أثناء ذلك النضال أن البابا اصدار قرار الحرمان ضد الامبراطور هنرى الرابع وأحل المسيحيين من الخضوع له فلم يسمع الامبراطور ازاء هذا الا أن يخضع ويطلب الغفران وأخذ نفسه للبابا عند قرية فى إيطاليا (كانوسا) حيث بقى على باب المكان الذى فيه البابا فى أشد أيام الشتاء بردا وهو حافى القدمين عارى الرأس حتى تاب البابا عليه سنة ١٠٧٦ . ومنذ ذلك الحين صار للبابا نفوذ لا يسامى فى أنحاء أوروبا غير ان النضال استمر يمدد ذلك بين البابوات والامبراطورين ولكن ما زال ذلك النفوذ يزيد

وأتقويه حوادث النضال المستمر حتى إذا ما أتى القرنان الثاني عشر والثالث عشر صار البابا أكبر رأس في جميع أوربا الإقطاعية التي كان يحكمها الدنيويون. لا يتعدى سلطانهم دائرة صغيرة في حين أن سلطان البابا كان يشمل جميع أنحاء العالم المسيحي الغربي.

مصر بعد المعز لدين الله

ولى الخلافة بعد المعز ابنه العزيز وقد كان عظيماً من جميع الوجوه. إذ جمع بين الشجاعة وسعة العقل والاعتدال وفي مدته استمرت الأعمال الإصلاحية التي بدأها المعز كحفر الترغ وبناء القناطر الخ حتى بلغت في آخر حكمه شأنًا عظيمًا وزادت الثروة العامة من جميع الوجوه وقد عرف العزيز بالتسامح مع جميع المذاهب الدينية واتخذ زوجة مسيحية وكان أكبر وزرائه مسيحيين أو إسرائيليين كما أن بلاطه كان يتسع لكبار رجال الدين المسيحيين والمسلمين على السواء.

ومع هذه الحكمة في السياسة الداخلية كانت جيوش مصر وأساطيلها مهيبة في جميع سواحل البحرين الأبيض والأحمر.

وكانت مباني العزيز دالة على ما تكسب في خزائنه من المال فقد أكثر من بناء القصور وبنى مسجدا ولكنه لم يتم إلا في مدة ابنه فعرف باسم (جامع الحاكم) ولكن كان من الطبيعي له أن يكثر من الجنود للمحافظة على الدولة الواسعة الممتدة من المحيط الأطلسي إلى الفرات فاتبع سياسة تجنيد الأتراك وبذلك مهد السبيل إلى حوادث مثل الحوادث التي أصابت بغداد بعد المعتصم والاندلس بعد عبد الرحمن الناصر والمنصور بن عامر.

وقد كان من أثر حكم العزيز وإصلاحه أن صارت الدولة قائمة على أساس راس حتى أن سوء حكم من توالى على الدولة بعده لم يزعزع سعادتها العامة إلا بعد نحو نصف قرن فانه منذ مات سنة ٩٩٦ ترك البلاد عظيمة.

فتولى عليها الحاكم بعنفه وغرابة أعماله ثم آل الامر الى نسل من الضعفاء أهملوا وجوه الاصلاح والمحافظة على ماخلقه المصالحون الماضون ولكن لم يظهر أثر هذا الا بعد أواسط القرن الحادى عشر .

عهد الانتقال

لم يكن للعزى الا ابن صغير وهو الحاكم بأمر الله الى الخلافة وهو صبي . وكانت الدولة لا تزال مدفوعة بقوة حكم العزيز فأخذ الوزراء الكبار ورجال الدولة الامر فى يدهم حتى شب الحاكم وكان أول ما دل على بلوغه الرشيد بعض أعمال بلغت من القسوة أشدها فقتل رجال دولته مثل (برجوان) ومنذ أخذ الحكم فى يده قضى فى حكم مصر نحو عشرين سنة ظهرت فى خلالها غرابة أعماله حتى أن التاريخ لا يسمعه الا أن يتهمه بنوع من الجنون وتمتاز كل أعماله بالتطرف فبينما يشتد فى معاملة المسيحيين حتى يقفل كنائسهم ويرغمهم على تحمل أنواع كثيرة من الاذى والاذلال إذا هو ينقلب على المسلمين فيوقع بهم ويسلط عليهم جنوده السود أحيانا أو البربر أحيانا فيرتكبون فى الفسطاط وسواها أشد أنواع القسوة والفظاعة .

وكانت أوامره الادارية ذاتها مما يدل على اختلاط عقله فقد كان يفضل أن تكون الاعمال ليلا وكان يأمر أن لا تخرج النساء من منازلهن ولا يعمل صناع الاحذية لهن أجزية يخرجن بها وحرّم العسل و (الملوخيه) كما أنه اشتد فى تحريم الخمر الى حد أن أمر بقطع الكروم ذاتها . وقد تعددت أعماله الدالة على عدم سلامة عقله حتى لا يمكن أن يغد مثلا لحكام دولة الفواطم فى مصر وقد بلغ من سوء أعماله أن أشعر المصريين بوجود فرق فى المذهب الدينى بينهم وبين الفاطميين مع أن أكبر ما يمتاز به الدولة الفاطمية انها تركت للمصريين مذهبهم ولم تتظاهر بما ينفرهم منها . وقد بلغ فى هذا السبيل حدا بعيدا حتى أنه جمع لديه من الدعاة كثيرين من نواحي فارس وسواها ليدعوا

الى ألوهيته وقد أثار ذلك كره المصريين وحدثت اضطرابات دموية من أجله . ولا يزال اسم (الدرازى) أحد هؤلاء الدعاة محفوظا فانه عند ما ثار الناس عليه من أجل دعوته هرب للشام وهناك بث دعوته بامامة الحاكم وقدسيته وانه سيعود فى آخر الزمان ليظهر الارض من إدارتها وذلك مذهب (الدروز) بالشام . وقد أنشأ الحاكم للغرض ذاته - غرض الدعاية الشيعية - دار الحكمة وجعلها مكانا للبحث الشيعى حتى يقال أن ذلك البحث خرج بها عن دائرة الاسلام وقد أقفلت تلك الدار فى أوائل القرن الثانى عشر احتراما لعواطف المصريين السنيين .

وكان من غرابة خلق الحاكم أنه بنى لنفسه مرصدا فى المقطم يخرج اليه وحده ليلا راكبا على حماره مع خادم أو اثنين وأحيانا بغير خدم وكان هناك يرصد النجوم ويقضى فى السير مدة أثناء الليل المظلم الذى يحبه . وقد قتل فى إحدى هذه الجولات وكان قتله نتيجة مؤامرة اشتركت فيها أخته (سيدة الملك) عند ما ظهر فسادده الذى لا يداوى . وذلك سنة ١٠٢١

ولم يكن حكم ابنه الظاهر خيرا من حكم أبيه بل زاد عليه أن الاضطراب فى مدة الحاكم أحدث أثره فى مدته وانخفض النيل فزاد البلاء وبدأت سلسلة من المجاعات المحزنة وكان الظاهر منصرفا الى اللهو زيادة على ما كان فى طبعه من القسوة الشبيهة بقسوة أبيه وتلاحم حكمه حكم ابنه الطفل (المستنصر) وقد طال هذا الحكم طولا لا مثيل له فى التاريخ الا قليلا إذ حكم من (سنة ١٠٣٦ - ١٠٩٤) أى نحو ستين سنة وحكم المستنصر هو آخر عهد الانتقال الذى انتقل فيه الحكم من أيدي الخلفاء الى أيدي رجال الدولة والوزراء وقد ظهرت فى أيام المستنصر الاولى نتائج فساد حكمي الحاكم والظاهر ونتائج ضعفه هو فان تلك الحوادث لم تكن لتمز بغير أن يكون لها صدى فى ممتلكات الفاطميين خارج مصر وهذا ما حدث فان شمال افريقيا بدأ يخضع عنه حكمهم حتى تم انفصاله عنهم فى أواسط القرن الحادى

عشر واستولى الترمانيون على صقلية التي كانت خاضعة لهم اسما الى سنة ١٠٧١ وبدأت تقوم في شمال افريقيا دول جديدة مثل دولة المرابطين التي سبق ذكرها وكذلك كان الحال في الشام فاز سيطرة الفاطميين قلت هناك ولا سيما منذ أواسط القرن الحادي عشر عند ما دخل السلاجقة بغداد واعادوا الى الدولة العباسية قوتها الحربية

وفي حين كان سلطان مصر الخارجي يتقاص عن بلادها في الخارج في تلك الاثناء كان حكمها الداخلي يضمحل وتظهر فيه آثار الفساد وكان من أكبر عوامل ذلك الفساد تسلط الجنود وانتهازهم فرص هذه الاضطرابات ليزيد نفوذهم ومما زاد الامر شدة أن الجنود كانوا ثلاث فرق الهربر والأتراك والسودان وكانت المشاحنة بين هذه الفرق مدعاة لثورات متعددة انتهت أخيرا في وسط حكم المستنصر الى أن الأتراك يخرجون على الدولة خروجا عاما ويستمررون على خروجهم نحو سبعة أعوام أوقعوا فيها البلاد في أشد حالات الضنك وضاعت في تلك الثورة أشياء كثيرة من مخلفات الفواطم الاولى وأهمها بعض المخلفات الفنية والمسكبة الكبرى التي كانت في القاهرة (١) ولم ينبج البلاد من هذه الفوضى إلا أن استدعى الخليفة حاكم عكا وهو (بدر الجمالي) سنة ١٠٧٣ وكان له الفضل في إعادة النظام للبلاد بعد اخضاع الشوار والقضاء على عوامل الاضطراب ومنذ ذلك العهد يمكن أن يقال أن عصر حكم الخلفاء انتهى وابتدأ عصر جديد كان المتصرف فيه في أمور مصر رجال دولة يكادون يستقلون عن ارادة الخليفة ويحكمون باسمه. ومما يشهد لبدر الجمالي بالقدرة أن حال مصر عادت الى سيرتها الاولى من النجاح في أيام العزيز بعد أن قضى على ادارتها عشرين سنة فلما مات سنة ١٠٩٤ ترك البلاد مستقرة موفورة الثروة وقد مات الخليفة في نفس السنة بعد حكمه الطويل -

(١) ولكن في العصر الاخير من حكم الفاطميين تجددت هذه المسكبة حتى أن صلاح الدين عند فتح مصر وجد بها نحو ١٢٠٠ كتاب

ولا يزال إلى اليوم في القاهرة آثار مادية ثلاثة باقية من حكم بدر الجمالي وهي الأبواب الثلاثة في سور القاهرة الجديد الذي بناه وهي باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة ولعل في مظهرها ما يدل على شيء من اقتدار بانيها . وبانتهاء ذلك العصر تدخل مصر في دور جديد سنذكره فيما بعد عند استئناف ذكر تاريخ مصر في القرن الثاني عشر .

المدنية الإسلامية وأثرها في أوربا

بدأت الدولة الإسلامية منذ عصر الأمويين تستقر وبدأ الشعب العربي البدوي يلتبس الحياة من وجوها السلمية بينما كانت الجيوش العربية لا تزال تهوى على وديان الأندلس وآسيا الصغرى وسهول غالة . وقد كان الشعب العربي الذكي على استعداد كبير للعمل والنجاح في الحياة السلمية وكانت قوته قوة شعب فتى بدوى لم يضعفها شيء من آثار الجمل أو الأجهاد الذي يوجد عادة في المجتمعات العريقة القدم في المدنية فاشترك بذلك الاستعداد الكبير وهذه القوة الكامنة مع الشعوب التي فتح بلادها وجل بين ظهرانيها وجعل يتعلم منها ما كان يجهله بطبيعة ظروف حياته الأولى ومنذ بدأ يحدق فنونها وأعمالها اندفع مخترع ويبتكر وكان اندفاعه هذا شاحدا لعزيمة جبرانه من الشعوب الأصلية فحدثت من مجموع ذلك نهضة عجيبة لم يشهد التاريخ مثلاً إلا قليلاً في تاريخ نهضات الشعوب

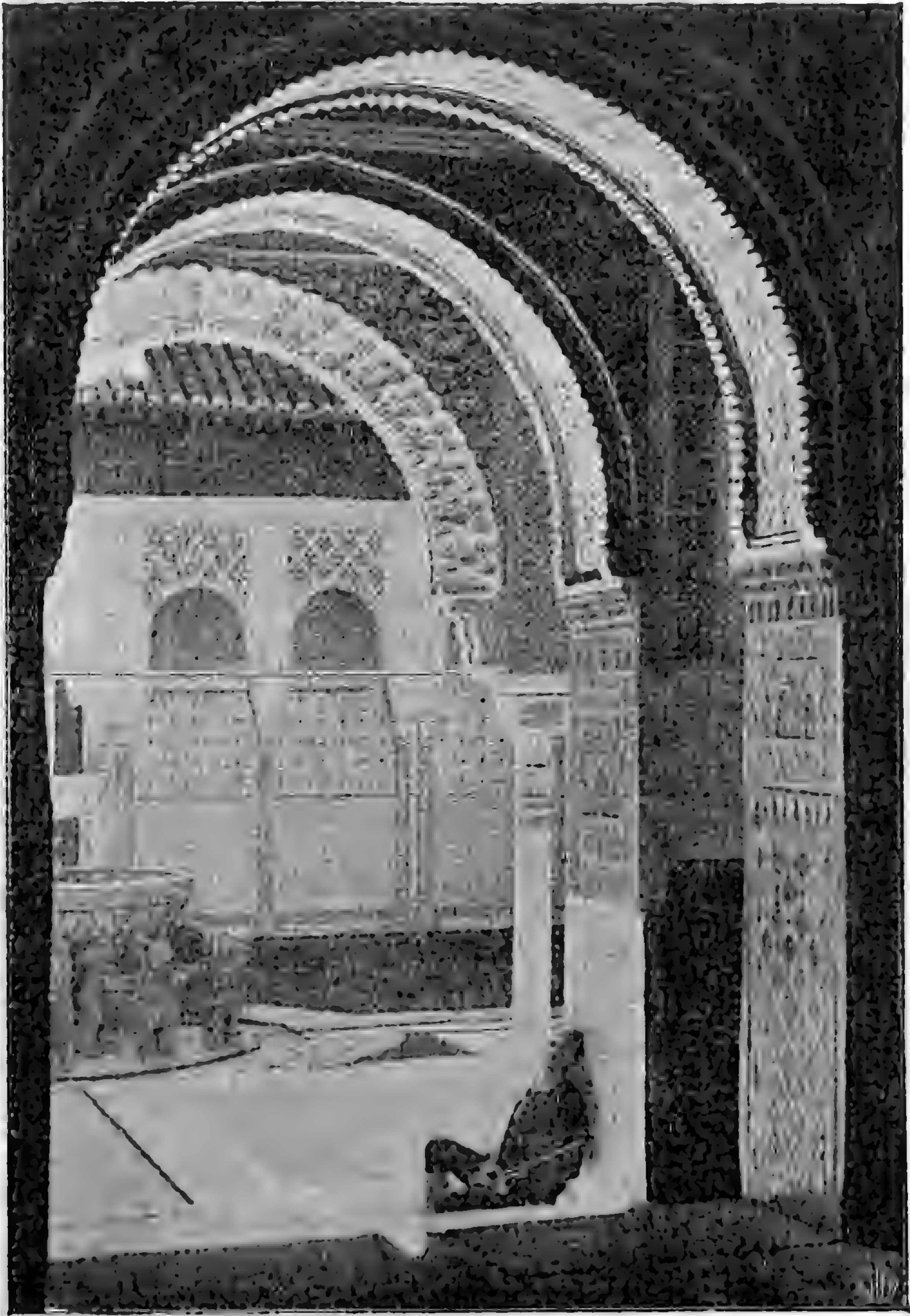
وقد كانت الدولة العباسية بطبيعة الحال هي الدولة التي شهدت إنباع تلك المدنية إذ في أيامها كان تيار الفتح قد هدأ وانصرف الشعب بكلية إلى المجهود السلمي وكانت بغداد أولاً هي مركز ذلك المجهود العظيم . ولكن باستمرار العمل وتراكم آثار ذلك المجهود جعلت المدنية تفيض حتى صارت كل بلاد الدولة العباسية مراكز عظيمة لها فبخارى وسمرقند وخوقند ومرو واصبهان وشيراز وبغداد والموصل ودمشق كل هذه صارت مراكز

تتضم فخر مدنيتهما الى فخر مدنية بغداد ولكن زادت مدنية العالم الاسلامي
بغنى بوجود قطر آخر استقل بنفسه وأخذ يعمل من جانبه عملا مستقلا
على إنماء المدنية من جميع وجوها وذلك دولة الأمويين بالأندلس
فكانت قرطبة مركزا لاعلاء الفنون والآداب والعلوم وسائر أنواع
المجهدات الانسانية يضارع بغداد وينافسها ويضم الى نورها نورا آخر
يزيد المدنية الاسلامية سطوعا ثم نشأت مدنية ثالثة فيما بعد وهي المدنية
المصرية وقد بلغت أول فيضها أيام الفاطميين منذ أواسط القرن العاشر
فأصبح في العالم الاسلامي ثلاثة مراكز كبرى تكاد لا تستطيع التفريق
بين عظمة الواحدة والأخرى وهي مركز مدنية العباسيين بغداد ومركز
مدنية الاندلسيين قرطبة ومركز مدنية المصريين القاهرة

وقد كان نمو هذه المدنية من جميع الانحاء متعادلا وعظيما ويجب أن
تقسمها الى ناحيتين في كلامنا الأولى الناحية المادية والثانية الناحية الفكرية

المدنية المادية في الاسلام

منذ عذبت الدول الاسلامية بوجوه الاصلاح بدأت الاعمال العامة
تتكاثر فمنها الاعمال الزراعية ومنها ما يرمى الى تشجيع التجارة أو الصناعة .
فان الدولة العباسية أعادت في العراق نظام الري الذي كان أيام عظمة الدولة
الساسانية المنقرضة وزادت عليها ترعا جديدة ولم يقف مجهودهم عند اصلاح
العراق ذاتها بل انهم حاولوا ما يمكن اعتباره كاليا مثل توصيل مياه الفرات
الى مكة وهو العمل الذي قامت به السيدة زبيدة زوج الرشيد . والى جانب
نظام الري كان نظام الجسور والقناطر ، واذا ذكرنا الدولة العباسية فما لنا أن
تهمل الاعمال العظيمة التي قام بها الأمويون بالأندلس والدول المستقلة
بمصر . ولا أدل على هذه المجهدات من أن نذكر أن المياه بالأندلس
كان يؤتى بها الى قصر الناصر من تلؤل مجاورة وان احمد ابن طولون جرد



(شكل ١٠) قصر الحمراء بالاندلس

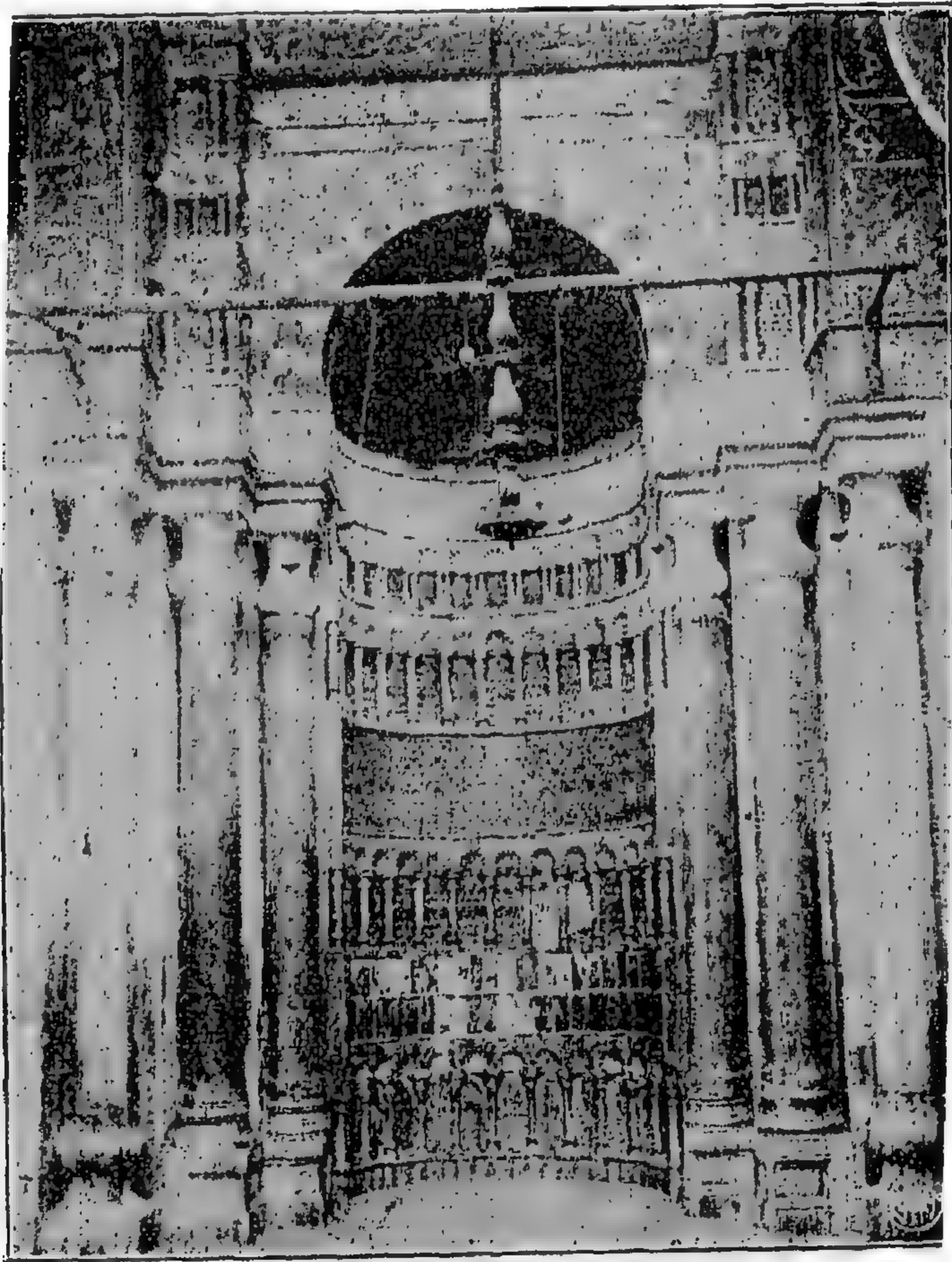
الماء الى قصره من عين في الصحراء الجنوبية في عيون وأنايب من صنع مهندسيه (وكان مهندسه الاكبر قبطيا) وكانت اعمال الري والجسور بمصر بطبيعة الحال أعظم منها في أى قطر آخر لتوقف حياة البلاد على الزراعة. ولهذا كان اهتمام الدول المصرية بها عظيما وكانت نتائج مجهوداتهم في تلك الناحية مذهشة من حيث الاتقان

ولم تكن بلاد العالم في عصر من العصور الماضية أكثر أمنا واتصالا مما كانت عليه في عصر عظمة الدولة الاسلامية فان الطرق التجارية البرية كانت متصلة من الصين الى المحيط الاطلسى أى ان العالم المتمدين إذ ذاك كان كله متصل الاجزاء وكان الأمن مستتباً على طول هذه الطرق حتى أن المسافر المفرد كان يستطيع اختراق الصحارى الخيفة بغير حادث وكان يعزز الأمن في تلك الربوع نظام البريد المتصل والمحطات الكثيرة في الطريق ولم تبخل الدول المختلفة بأى مقدار من المال تصرفه على حفر الآبار في الصحراء تشجيعا للأسفار والتجارة وقد درت التجارة ثروتها للدول والافراد مكافأة لهذه المجهودات حتى صار تجار المسلمين القابضين على أزمتهما في جميع العالم المعروف وكانت منتجات الهند والصين تأتى بلا تكلف الى أسواق بغداد ودمشق ومنصرفين الى أسواق قرطبة ذاتها مع بعد المسافة .

واما الصناعة فقد بلغت في تلك الأيام مبلغا لا يقارن بما بلغت في أى عصر من العصور القديمة من جهة الدقة وإن لم يكن من جهة العظمة والحجم فالنسوجات المختلفة ولا سيما الثمين منها والصناعات المعدنية وصياغة الذهب والحلى وسائر أنواع الأعمال الدقيقة كل ذلك إنما في أسواق الفواصم الكبرى وكان غنى الافراد وحياتهم المنعمة الناشئة مما حصلوا عليه من الثروة من وجوه الانتاج المختلفة كان ذلك باعثا على تشجيع الصناعات ولا سيما الدقيق الجميل منها .

وقد بلغت الصناعة في الإنديلس مبلغاً أكبر من كل هذا فقد توصل النبوغ الإنديلسي في علم الحيل (الميكانيكا) إلى أن ابتكر صناعتها آلات منعقدة تتحرك بواسطة لواب من نوع (نظام عمل الساعات) وكان البندول الذي يحرك الساعة الدقاقة من ابتكار صناع الدولة الإسلامية كذلك .

وأكثر مخلفات تلك العصور الباقية إلى الآن هي المباني الفخمة التي سلمت على مر الدهر وأكثرها من المساجد والمباني العامة التي لقيت عناية في العصور المختلفة فقد أتى وقت على بغداد والعواصم الأخرى كانت تزهر بمبانيها الفخمة وحدائقها الزناء وكانت آثار دقة الصنعة بهامدهشة ولكن الحوادث لم تبق إلا على قاييل من تلك المباني ويمكن أن نلمح عظمة



(شكل ١١) مثل من بناء عصر المماليك بمصر

تلك الصناعة من القليل الباقي ويطلق عادة على الطراز الذي كان سائداً في تلك
العصور اسم الطراز العربي وأكبر مميزاته دقة الأجزاء سواء كانت تلك الأجزاء
أعمدة أم القطع الخشبية الصغيرة (الخرط) وكذلك زيادة نسبة الطول على
العرض في هندسة الأجزاء وذلك ما يعطى المآذن والأبواب شكلها الرشيق .
وليس لنا أن ننسى ذكر المبنى العظيمة الباقية التي أصبحت شهرتها عالمية
مثل قصر الحمراء بالأندلس الذي بنته آخر أسرات الحكام المسلمين في غرناطة .
ومثل مساجد الأزهر وبرقوق وقلاون بالقاهرة .



(شكل ١٢) مسجد قايتباي بالصحراء

المدنية الفكرية في الاسلام

كان هذا ميدان العرب بنوع خاص فانهم باستعدادهم كانوا ميالين الى حدة التفكير ودقته وقد اختلطوا بشعوب من أدق الشعوب فكرا وأعرقها مدنية فكان من هذا الاختلاط شعب قادر على أرقى أنواع المنطق والفكر وكانت الميادين الفكرية مختلفة ومتشعبة ومن أشق الأمور حصرها ولكنها سنحاول شيئا من ذلك فيما يلي

القانون والدين

كان القرآن أساس المجتمع الاسلامي وكان موضع تقديس كل الدول الاسلامية وشعوبها مع اختلاف اجناسها فكانت الحاجة ماسة الى فهمه ودرسه وتحليله وكذلك كان الحال في أحاديث سيدنا الرسول وقد كان الدين الاسلامي في كل العصور شاملا لقواعد الاخلاق والقانون معا ولذلك كانت دراسته لازمة للمتأدب العام كما كانت لازمة للحاكم والقاضي والمشرع وقد انصرف الى دراسة الدين والقانون جماعة من أكابر المفكرين وكانت مذاهبهم مختلفة ميادين فسيحة لمناقشة أسس مبادئ الاخلاق والفلسفة والعدالة ولذا ذكر الأئمة الأربعة ابن مالك والشافعي وأبو حنيفة وابن حنبل وحسبنا منهم ما يدل على مقدار تعمق التفكير في العالم الاسلامي ولا تزال الشريعة الاسلامية ينبوعا سليما فياضا لأهل الشرائع .

الأدب

هذا باب واسع جدا لا يمكن أن يحصر ما انتجه العرب فيه في مثل هذا المجال الضيق ويكفي أن نقول أن الشعر في العالم الاسلامي بلغ مبلغا لا يزال الى الآن يعتبر في بعض أبحاثه فائقا على آداب جميع اللغات ففي الشعر يكفي أن نذكر أسماء أمثال المتنبي الحكيم أو المفكر العميق أبي العلاء المعري أو الفيلسوف العبقري عمر الخيام لكي ندل على ما بلغه الشعر الاسلامي.

من العظمة وقد كانت الأندلس بنوع خاص ميدانا للشعر الخفيف شعر
العواطف ووصف الطبيعة البديع ومن أمثلة شعرائهم الكبار ابن هانيء
وابن خفاجة وابن زيدون^(١). ولا يزال هؤلاء الشعراء جديرين الى عصرنا
هذا بكل اجلال لما في شعرهم من الرقة وال عاطفة والجمال .

واذا كان للمسلمين ذلك القدر في الشعر فان مؤلفاتهم في سائر أبواب
الأدب كانت جديرة بالاعجاب أيضا . وهناك أسماء كثيرة لا بد أن ينحني
أمامها أكبر كتاب العصر الحديث اجلالا مثل ابن المقفع وابن حزم والجاحظ .
هذا الى ما ظهر في العربية من المؤلفات الفنية مثل الأغاني لأبي الفرج
الاصفهاني ومثل كتاب القند الفريد لابن عبدربه الأندلسي . وقد وجد
في المؤلفين جماعة من النقاد الأديبين والرواة ولا يزال تفكيرهم الى اليوم
مثلا طيبا للتأليف والبحث .

غير ان شيئا واحدا لم يعن به العرب في الأدب وذلك انهم لم ينقلوا عن
اللغتين اليونانية واللاتينية ما تخلف من آدابها الكبرى بل كان كل همهم في الترجمة
من هاتين اللغتين منصرفا الى نقل المؤلفات الفلسفية والعلمية وبذلك لم تستفد
اللغة العربية شيئا من الياذة هو مر وأمثالها من الدرر الأدبية القديمة ولم
يوجد لهذا عند المسلمين أمثلة تحتذى في الفن الشعري القصصي ولا في القصص
فكانت اللغة العربية الى العصور الحديثة خالية من هذين البابين تقريبا
اللهم الا بعض محاولات قليلة في ذلك الباب مثل كتاب الف ليلة وليلة
أو قصة سيف بن ذي يزن وأمثالها .

(١) يمكن الطالب أن يطلع على أمثلة من هذا الشعر مثل القصيدة التونية المشهورة

لابن زيدون التي مطلعها

أضحى التنا بديلا من تدائنا وناب عن طيب لقيانا تحافينا

التاريخ :

ويمكن اعتباره بابا من أبواب الأدب وقد ظهر فيه في اللغة العربية كتب كثيرة قيمة كانت كلها بمثابة دواوين للحوادث مثل تاريخ الطبري وابن الأثير وأبي الفداء وابن خلدون وهناك ملاحظة جديرة بالذكر وهي أن المسلمين لم يعاملوا التاريخ معاملة علمية اللهم إلا ابن خلدون فقد كتب مقدمته لتكون نواة لكتاب علمي في التاريخ ولكن تاريخه لم يكن إلا مثل سائر المؤلفات التاريخية الأخرى . ولكن بعض كتب الأدب كانت تحتوي على كثير من الوصف التاريخي الذي هو في الحقيقة روح التاريخ الاجتماعي مثل كتاب (نفح الطيب) الذي يصف أحوال الأندلس وأدائها وتاريخها وصفا مسهيا جديرا بالاعجاب .

العلم :

وهذا فروعه مختلفة ولكن يضم الجميع معنى واحد وهو البحث فان المسلمين صرفوا جزءا كبيرا من ذكائهم في البحث في جميع أنحاء التفكير فانصرفوا الى البحث في المادة وخواصها وكشفوا أسرار كثيرة وأنشأوا قواعد علم الكيمياء الحديث ولذكروا أسماء جابر بن حيان والرازي وزيين علي المجهود الذي بذله العرب في ذلك السبيل وقد بحثوا أيضا في أسرار الطبيعة فعرفوا بعض قوانين الضوء وكثيرا مما يتعلق بالسوائل الخ وأما في الهندسة والميكانيكا فقد كان لهم شأن عظيم ولا سيما في الأندلس حيث بلغ التفكير الهندسي ولا سيما في علم الحيل شأوا بعيدا . إذا اخترعت آلات تتحرك حركة لولبية في غاية التعقيد والدقة .

وقد كانت النجوم وعلمها ذات خطر خاص عند العرب وقد بحثوا في ذلك لغرضين الأول علمي وهو الفلك الصحيح والثاني غير علمي وهو التنجيم لمعرفة علاقة الكواكب بالإنسان ومصيره وقد وصلوا في درسه

الى كشف قوانين فلكية كثيرة ويكفى أن نقول ان أسماء النجوم تحتفظ
في كل لغات العالم المختلفة اليوم بأسماء أطلقها العرب عليها وقد ترجم العرب
كتاب المجسطى لبطليموس الجغرافى وكانوا يحققون بأنفسهم ما جاء فيه
ويزيدون على أبحاثه ويتعمقون فيها .

ولم يقصر العرب فى علم الطب والمادة الطبية فترجموا كثيراً من مؤلفات
اليونان وسواهم فيه وزادوا من عندهم أبحاثا وكشفوا أسراراً . وقد كان الطب
مثل سائر العلوم يعتبر جزءاً من علم الفلسفة ومباحث الفلاسفة وهذا ما
جعل أكثر الباحثين فيه من المعروفين بالفلاسفة مثل ابن سينا وإن نظرية
إلى كتاب مثل تذكرة داود لتدل على مقدار الثروة التى تكدست عند
العرب من وصف المادة الطبية ومعالجة الأمراض إذ لا يكاد يوجد مرض
من الأمراض المعروفة لم يبحثوا أو صافه ويصفوا له علاجاً وكانت صفات
أدويتهم فى كثير من الاوقات ناجحة

وقد اندفع كثيرون من العرب فى بحثهم حتى جابوا البلاد وعرفوا الصقاعا
ووصفوا شعوبها والأسماء المجهولة من هؤلاء الجوابين أكثر بكثير من
الأسماء المعروفة ولكن يكفى أن نضرب لهم مثلاً بالرحالة ابن بطوطة وقد
اخترع المسلمون البوصلة أو نقلوها من أهل الصين وأثبتوا معلوماتهم
فى خرائط أو كرات أرضية وكان من بين الجغرافيين المعروفين الإدريسى .
الفنون

كان المسلمون لا يجيزون لأنفسهم التصوير بأنواعه لأنهم كانوا يخشون أن
يقلدوا أصحاب الديانات الأخرى فى تقديمهم للتماثيل فقد كانوا يعدون ذلك نوعاً
من عبادة الأوثان ومن جهة أخرى كانوا ينزهون صنع الله أن يقلده البشر .
ولهذا قل ان نجد فى فنون العرب شيئاً من هذا التصوير (إلا فى مدق الدولة
الفاطمية بمصر فقد وجدت أمثلة قليلة من الصور البشرية) ولهذا انصرف
الفن إلى الزخرفة العربية التى امتازت بشكائها المعروف وهى زخرفة هندسية .

لا تمثل خلقه الله من بشر أو سواه ولكن تلك الزخرفة بلغت مع ذلك حدا عظيما من الجمال والاتقان . وأكبر أمثلتها الباقية زخرفة قصر الحمراء وزخرفة المساجد ولا سيما مساجد عصر المماليك بمصر

ولكن الفن الذى فاق فيه العرب هو الموسيقى وقد برز فيه جماعة من المؤلفين والملحنين أمثال (معبد) . و (اسحق الموصلى) وسواهم ولا تزال الموسيقى العربية الى اليوم أكثر دقة فى تقسيمها من الموسيقى الاوربية . ولولا فقر التأليف والتلحين لكانت الموسيقى العربية تتسع بنغماتها المتعددة إلى صنوف من الغناء لا تتسع لها موسيقى الغربيين .

مكانة المدنية الاسلامية فى التطور الانسانى

لقد بدأت الشعوب المجيدة القديمة أول خطوات الانسان نحو المثل الأعلى من الحياة وكانت مصر القديمة والصين وبابل وسواها من هؤلاء الرواد الأوائل ثم جاء بعده هؤلاء عصر آخر أخذ فيه عبء القيام بالمدنية أمم أخرى حتى ظهر اليونانيون العظماء وهؤلاء دفعوا العالم بعقريتهم دفعا لا مثيل له فى كل الجهات ولا سيما الجهة الفكرية حيث برز الفلاسفة اليونانيون على جميع من سبقهم وكثيرين ممن لحقهم . أليس سقراط إلى اليوم عظيما؟ وهل انقص توالى السنين من عظمة ارسطو؟ ولقد نال اليونانيون حظا فائقا من التقدم فى الآداب والفنون ولا تزال أديبهم وفنونهم إلى اليوم من الآثار العالمية التى تنحنى أمامها الرؤوس

ولقد ساد الرومانيون العالم بعد ذلك ولكن انشغلهم بسيادتهم السياسية وحاجتهم إلى نظام إدارى وقانونى شامل محكم جعلهم ينصرفون إلى الأمور العملية تاركين لليونانيين الذين اندمجوا فى دولتهم الاستمرار على الدرس وإنماء الآداب والفنون والعلوم .

وجاء العرب بعد ذلك فسادوا العالم كما رأينا وكان من المحتوم عليهم ان

ميتحملوا عبء النهوض بالمدينة الانسانية فحملوا ذلك العبء وقاموا به قياما لا ينكره عليهم أحد فبدأوا ببطء يفحصون ما تخلف من المدينيات القديمة التي كانت لهم بها علاقة من الهند وفارس الى مصر الى اليونانيين بل الى الرومانيين أنفسهم وأخذوا ينقلون ما يرون في نقله فائدة وأخذوا بعد ذلك يبنون حتى بلغوا ببنائهم علوا شاهقا بارعا في جميع تفاصيله.

فالعرب اذن كانوا الخلفاء على المدينة الانسانية بعد اليونانيين وكان عليهم بطبيعة الاشياء ان يسلموا هذه المدينة إلى من يتصدى لسيادة العالم بعد أن تبلغ دولتهم أجلها وجعلت شعوب أوربا منذ القرن الحادى عشر تفتح أعينها إلى الأفق البعيد وتلمح الضوء المنبعث من مدينة العرب ومازال الاوربيون حتى استطاعوا أن يقربوا من مصدر الضوء ويعرفوا أسرارهم ومنذ عرفوا ذلك جعلوا يبنون وعند ما حان الوقت تحملوا عبء المدينة التي أسلمها لهم المسلمون فان كانت دولة المسلمين الأولى قد مضت فقد أدت واجبها نحو الانسانية . والعالم ما زال أمواجها تلى واحدة منها الاخرى وليس ببعيد أن تقوم من اطلال الدولة الاسلامية الأولى دول جديدة تنتظر ان يحين وقتها فتتصدى لسيادة العالم مرة أخرى وتتحمل عبء المدينة مرة أخرى ولكن لا بد أن يكون ذلك في شكل جديد ونظام جديد حسب التطور الطبيعي للانسان

أثر المدينة الاسلامية في أوربا

مما سبق ذكره يمكن أن ندرك أن شعوب أوربا قضت منذ القرن الخامس دهرًا طويلا في جهالة وشبه فوضى . وقد سمي ذلك العصر بالعصر المظلم إذ كانت تلك الشعوب تجهل لغة اليونانيين والرومانيين التي كانت بها المؤلفات القديمة وكانت لا تستطيع وحدها أن تصل إلى بناء مدينة جديدة عظيمة فليس هذا من طبيعة الأمور وقد زاد العهد الاقطاعي من ظلمة

تلك العصور فان الحروب المستمرة التي اشتعلت بأوروبا في هذا العهد شغلت الناس عن أى انصراف إلى الأمور المدنية القديمة كانت أو طريفة . ولكن لم تستطع هذه الشعوب أن تبقى في عزلة عن المدنية طويلا . حقا انها تجهل مفاتيح العلوم القديمة الميته وهي اللغات القديمة ولكن وجدت إلى جانبها مدنية حية وهي المدنية الاسلامية وقد كانت البلاد الاسلامية تلامس بلاد أوروبا من جهات ثلاث الأولى عند حدود دولة الروم الشرقية والثانية عند جنوب إيطاليا والثالثة عند حدود الأندلس

وقد زادت العلاقات بين أوروبا والمسلمين منذ القرن العاشر ولكن ذلك كان بواسطة الحروب المستمرة التي كانت في جنوب إيطاليا وإسبانيا . فان تلك الحروب وان كانت مظهرًا عداثيًا تعقب تعارفًا واتصالًا فبدأت أوروبا تعرف ما عند جيرانها المسلمين من العظمة والمدنية وبدأت تتلقى عنهم أول دروسها . وقد كانت بالأندلس وجنوب إيطاليا معاهد للعلم عظيمة وكان المسيحيون (أهل أوروبا) يقصدونها كما نقصد نحن اليوم بلاد أوروبا للتعلم وقد زاد الاتصال بعد ذلك في القرن الثاني عشر فان الحرب الصليبية دفعت الأوربيين أن يوغلوا في الدولة الاسلامية وهناك اشتد اتصالهم بالمدنية الاسلامية فجعلوا ينقلون عنها ويتعلمون منها واعدتهم المدنية الاسلامية برغمهم بحكم التفاعل المستمر الذي أعقب حلول الصليبيين بالشرق

ولما خبت نيران تلك الحروب وأخرج المسيحيون أخيرا من الشام استمرت حركة تجارية سلمية كبرى بين العالمين وكانت تلك الحركة باعثا كبيرا على نقل ما عند المسلمين من خيرات المدنية وثمارها إلى أوروبا سواء كانت تلك الخيرات من آثار الصناعة والتجارة أم من آثار الفكر والعلم .

إذن فالمسلمون كانوا معلمي أوروبا وإذا كانت أوروبا قد نهضت نهضتها الأولى منذ القرن الثالث عشر فقد كان ذلك من أثر العرب فلما زادت حركة النهضة بعد ذلك في القرون التالية عرف الأوربيون سر المدنيات

القديمة وأخذوا يدرسون اللغتين اللاتين والاعريقية وساعدهم على ذلك معلمون هاجروا من القسطنطينية في القرن الخامس عشر عند سقوطها في يد الاتراك وكتب قديمة فاضت على أوروبا مما كان مكثسا في تلك العاصمة العظيمة ومنذ عرف الاوربيون سر المدنية القديمة زادت الحركة الفكرية حياة وقوة واجتمع عندهم أثر العرب وأثر المخلقات اليونانية والرومانية وكانت نتيجة كل ذلك تلك النهضة الكبرى التي سادت أوروبا في القرن الخامس عشر وما بعده



(شكل ١٢) بناء لانرمانين بايطاليا الجنوبية (على الطراز العربي)

عصر الحروب الصليبية

(العصر الأول سنة ١٠٩٧ - ١١٩٣)

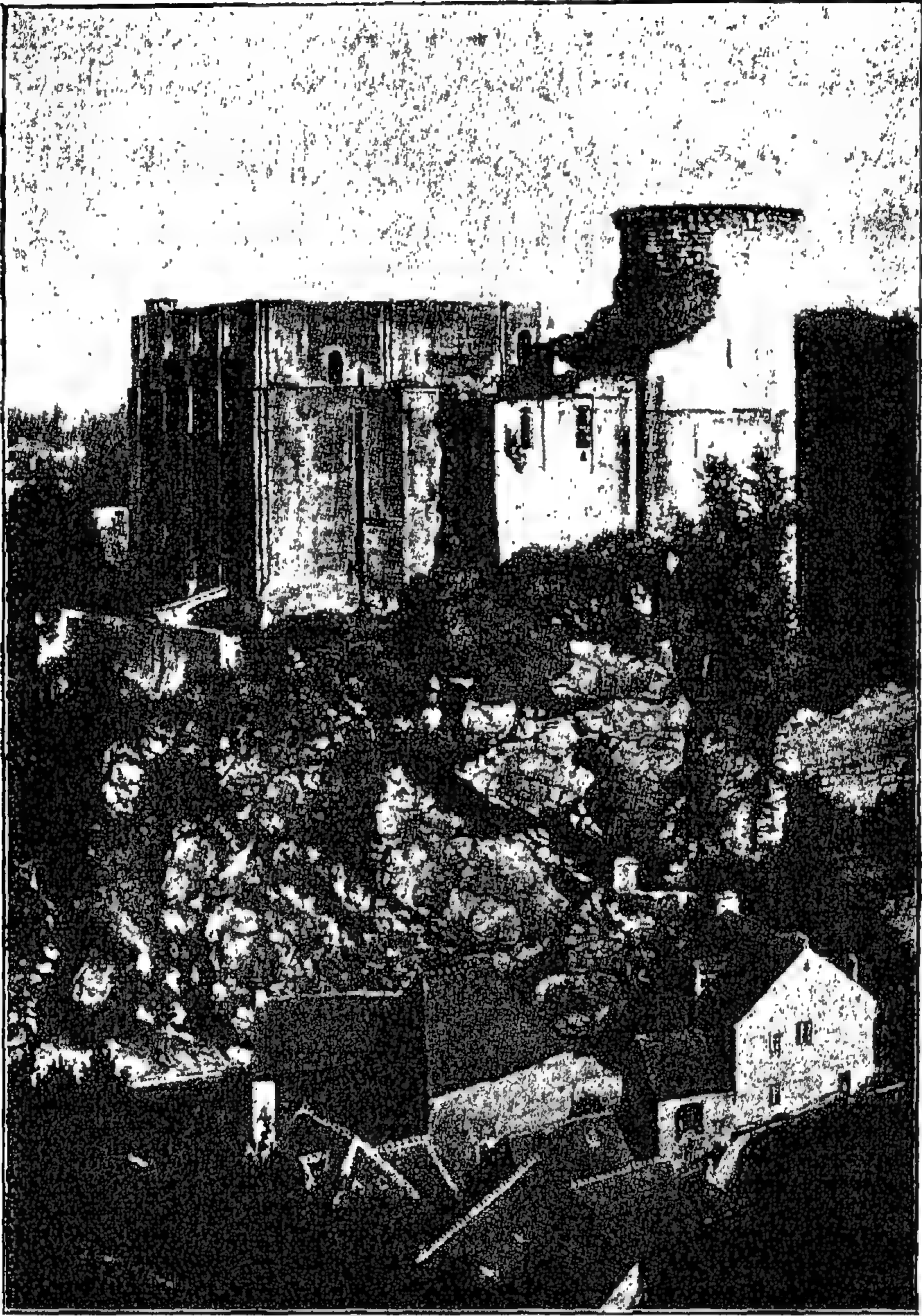
قد كان الاسلام منذ ظهوره يمتد على الاراضى المجاورة وكان العرب شعبا قويا ذكيا فاستطاع أن يفتح البلاد ويبنى فيها على مر الزمن مدنية راقية وكانت أكثر الاراضى التى ترعها إما من بلاد الفرس وإما من بلاد الرومان وهما الدولتان الكبيرتان اللتان كانتا تحكمان العالم .

وفما كان العرب يمدون سلطانهم على تلك البلاد ويقيمون فيها مدنياتهم الجديدة كانت أوروبا فى يد شعوبها البربرية المختلفة تتطور فى العصور المختلفة تطورا خاصا بها الى أن آل الأمر أخيرا إلى حكم الاقطاع بها

وقد أجرى الحكم الاقطاعى فى أوروبا الدماء فما كانت الحروب الداخلية تقف إلا قليلا بين الأمراء المتنازعين . ولم يكن عند ذلك فى أوروبا حكم مركزى يحفظ بينهم السلم أو يحكم بينهم القانون .

وكان فى أوروبا عند ذلك سلطان آخر عظيم وهو سلطان البابا والكنيسة ولم يكن له حدود اقطاعية بل كان البابا سيد رجال الدين فى كل البلاد الغربية وكان رجال الدين عند ذلك ذوى نفوذ أدبى عظيم على الناس سواء عامتهم وخاصتهم وأمرأؤهم كما مر .

وكانت أوروبا إذ ذاك فى حالة من الجهالة جعلت التاريخ يطلق على ذلك العهد لقب العصر المظلم وكانت تلك الاوقات (القرنان العاشر والحادى عشر) من أشد العصور المظلمة حلوة وكان نفوذ رجال الدين بطبيعة هذه الحال على أشدهم إذ كانوا قادة أديين لقوم لا يقدرزون على تفكير مستقل . وقد حدث منذ القرن الحادى عشر نضال بين البابا والامبراطور وكان البابا هو



(شكل ١٤) قلعة اقطاعية مشرفة من تل عال

الفائز في أكثر المواقف وبلغ نفوذ الكنيسة على ذلك أشده منذ ظهرت
قوة رئيسها الأكبر .

في هذا الوقت كانت الدولة العباسية قد تجدد شبابها الحربي على يد
السلاجقة وجعلت جيوشها مرة أخرى تغير على حدود الدولة الرومانية من

جهة وعلى الشام الذى كان الى ذلك الوقت تابعا للدولة الفاطمية من جهة أخرى وقد نجح السلاجقة فى كل من الميدانين فأصبحوا أصحاب آسيا الصغرى وصار يدعى للخليفة العباسى فيها إلى شواطىء بحر مرمرة بعد أن هزموا الرومانيين فى موقعة ملاذكرد الشهيرة سنة ١٠٧٢ كما أنهم أخذوا بيت المقدس وأكثروا بلاد الشام سنة ١٠٧١ وأصبحوا عند حدود مصر تقريبا .



(خريطة ١٢) حدود دولة السلاجقة

عند ذلك حدث أن النصر الحديث الذى أحرزه الاتراك جعلهم يظهرون أمام أهل البلاد التى تم فتحها حديثا بظهر الشدة والبأس وذلك ما جعل الدولة الرومانية تخشى أن يمتد الفتح حتى يبلغ قسطنطينية وخشى الاباطرة ان يفتح المسلمون تلك العاصمة التى قاومت هجماتهم غير مرة فيما مضى وقد كان من آثار سيادة الكنيسة ورجال الدين فى أوربا فى القرن الحادى عشر ان وجدت حركة دينية كبرى وكانت احدى نواحي هذه الحركة

الدينية كثرة الحجاج الذين كانوا ينفذون كل عام من كل البلاد إلى بيت المقدس لزيارة قبر السيد المسيح — وقد رأى هؤلاء الحجاج الكثيرون كيف فتح السلاجقة بيت المقدس وكيف ظهروا أمامهم حكما ذوى بأس وشدة وسطوة فجعلوا يتألمون من ذلك وينقلون أخباره لبلادهم. وأى بلاد؟ هي بلاد تكثر فيها الفرسان ذوو الأنفة والجرأة وعليها سلطان عظيم لرجال الدين كما ذكرنا وكان امبراطور الدولة الرومانية الشرقية عند ذلك هو الكسيوس وكان واقفا على كل ما حوله من الظروف وكان رجلا داهية. فاحب أن يستفيد بتلك الظروف ليرد عن دولته التيار الجارف الذى كان يهددها من ناحية المسلمين. فأرسل الى البابا وهو عالم بأنه أعلى الناس كلمة فى أوروبا لكي يساعده على استنقاذ بيت المقدس من المسلمين وما كان البابا ورجال الدين ليجهلوا ما كان الحجاج ينقلونه من الأخبار وهم ينعون بيت المقدس وتسلط الأتراك الجفافة عليه وقد أراد الكسيوس أن ينتهز الفرصة سنة ١٠٩٥ فان ملك شاه أكبر سلاطين السلاجقة كان قد مات سنة ١٠٩٢ وتحطمت الدولة بعده وتجزأت. فأراد أن يصدم إذا استطاع ذلك البناء الهائل المجاور له حتى يصدعه قبل أن يتماسك ويستقر بعد ما اعتراه من الضعف بموت ملك شاه العظيم

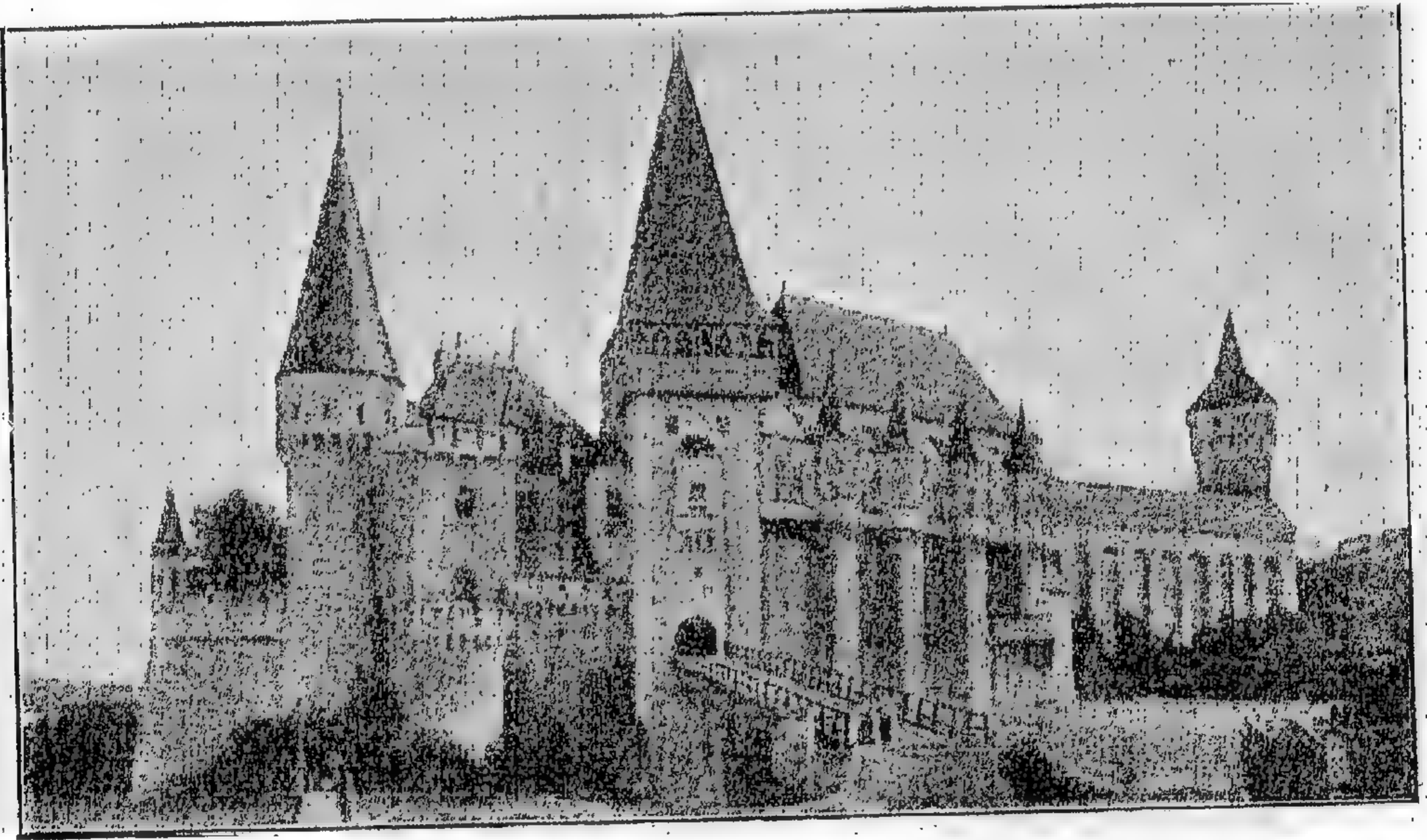
ولم تكد الدعوة تبلغ البابا وهو فى مؤتمر دينى (مجلس كليرمون) حتى أعلن الحرب باسم الصليب لاستنقاذ بيت المقدس ووجه دعوة الى أوروبا لمساعدة الدولة الرومانية الشرقية على ذلك الغرض

ولقد كان بين الدولة الرومانية الشرقية وبين البابا من قبل شقاق وشبه عدا و يمكن ان نعرف ذلك من الحوادث الماضية ولكن حماسة الوقت أنست الجميع ذلك الشقاق فما كان هناك الا صيحة واحدة فى فم الشعب والأثراء وفى فم الدعاة من رجال الدين وسواهم الذى أخذوا يجوبون البلاد

ليزيدوا من ايقاد الحماسة وتلك الصيخة هي حرب المسلمين وانقاذ بيت المقدس . وكانت علامة اشتراك المحارب في تلك الحركة أن يستلم صليبا يكون له رمزا وحاميا واشترك الشرق المسيحي مع الغرب المسيحي في حركة واحدة لنصرة الصليب ومن ثم تعرف الحركة بالحركة الصليبية .

أجاب ألوف من الأثرياء ومئات الألوف من العامة تلك الحركة وكانت هناك دوافع كثيرة لنجاحها نكتفي بأن نذكر منها ما يأتي

(١) وجهت الدعوة في العصر الاقطاعي الذي كان فيه الفرسان ونظام الفروسية في الاوج فما كاد يفتح ميدان للحرب حتى تنافس الجميع على الظهور فيه



(شكل ١٥) قلعة اقطاعية وحولها الخندق وفوقه القنطرة المتحركة

(٢) لم يكن أمام هؤلاء الفرسان ميادين للحرب الا المنازعات الداخلية لأن الاغارات الأجنبية كانت عند ذلك قد هدأت وخبت فلما وجد ميدان جديد أسرع اليه المحاربون الذين لا يحبون شيئا مثل الكفاح .

(٣) وجهت الدعوة الى العامة من الكنيسة والبابا وكانت كلمة رجال

الدين عند ذلك وعدا لا يكذب . وأنى وعد أشهى الى النفوس من أن تنال جزاء عملها الجنة وغفران الذنوب ؟ فقام الشعب لأجابة هذه الدعوة رغبة فيما وعده به رجال الدين من الثواب .

(٤) كان البابا أعظم رأس في أوربا وقد تسارع الرؤساء الى اجابة دعوته . إما طلبا للثواب وإما رغبة في ارضائه والتقرب اليه .

ولم يكن رئيس ليتخلف عن حركة انخرط فيها أقرانه فسرت العدوى الحماسية بين الجميع وتلقى الصليب منهم عدد عظيم بينهم جماعة من أكبر الأُمراء وقادتهم

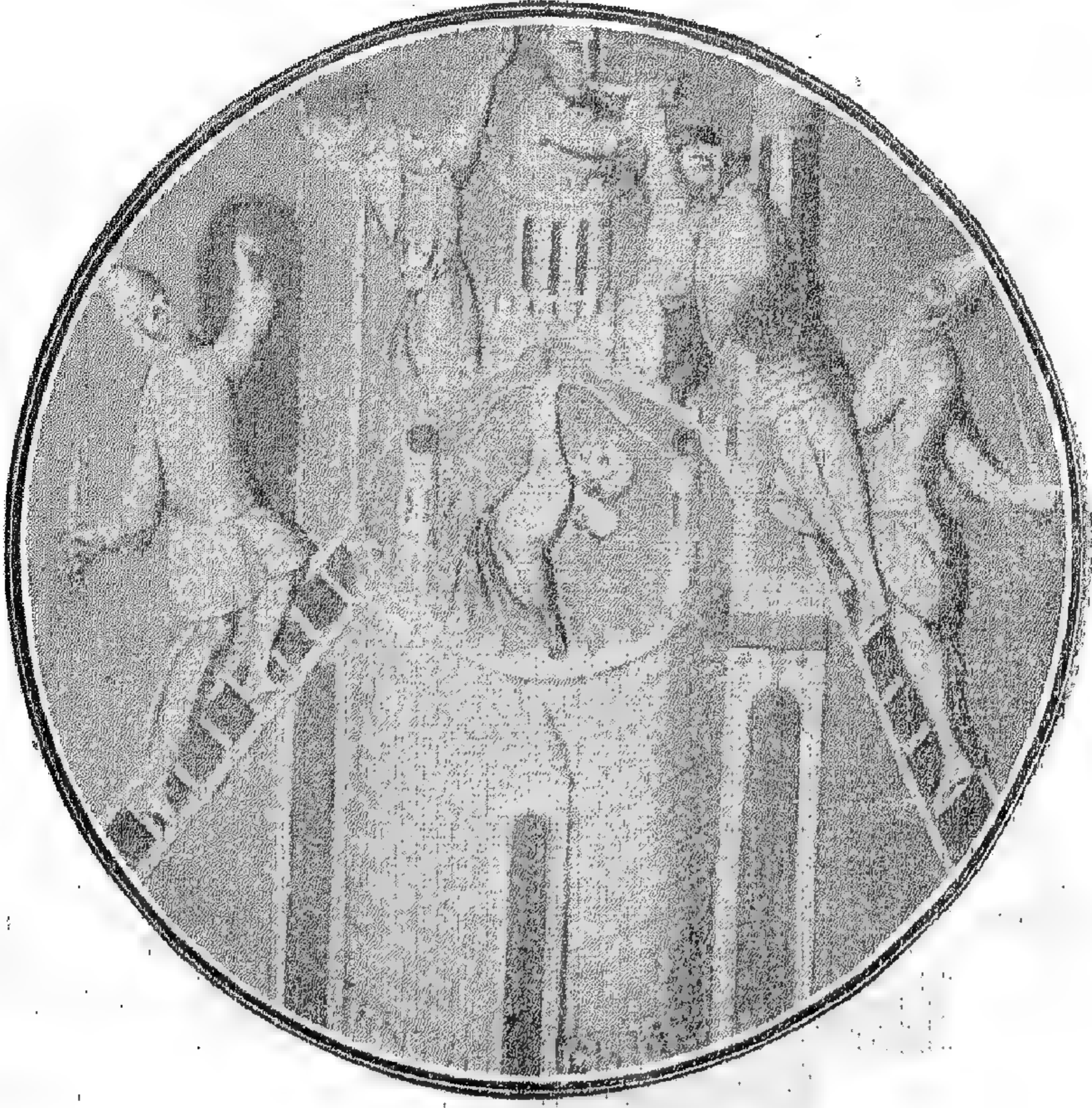
(٥) ساعد على اذكاء الحماسة الخطباء الكثيرون الذين كانوا يتقلون في ربوع أوربا يلقيون الخطب لا تُثارة الناس مثل (بطرس الراهب) و (والفلس)

(٦) بذل البابا مجهودا عظيما في إثارة الحماسة لتكون له قيادة أوربا في عصر كان يريد أن يعلى بكل وسيلة نفوذه فيه لأنه كان إذ ذاك في نضال مع الامبراطور ويريد أن تكون له دائما المكانة الأولى فوقه في أوربا . كما أن البابا كان لا يترك فرصة تزيد من البلاد التي تخضع لسلطانه فاذا فتح بيت المقدس والشام كان في ذلك زيادة لنفوذه على بلاد جديدة .

(٧) ولا ننسى أن كثيرا من الناس بين أمراء وفرسان وعامة ذهبوا الى ميدان الحرب ولا يقصدون شيئا سوى وجود فرصة جديدة للغنى كالحصول على أمانة أو تحصيل غنيمة كما أن بعض العامة كان يقصد أن يخرج من أرض رقة ويذهب إلى ميدان يكون فيه محاربا حرا .

الحرب الصليبية

قامت الجموع المتحمسة يقودها دعايتها ومحسوها كبطرس الراهب نحو الشرق مثل عاصفة هوجاء نظامها فوضى ولكن هذه لم يتح لها بلوغ بيت المقدس بل تشتتت قبل وصولها الى القسطنطينية وليس لهذه الجموع ذكر في الحرب الصليبية فأول حملة يذكرها التاريخ باسم الحملة الأولى هي التي نظمها أمراء أوروبا الكبار وكان على رأسهم أربعة منهم (جودفرى) و(رايمون) الفرنسيان و(بلدوين) الألماني و(بوهمند) الترمندى ابن الأمير الترمندى الذي استولى على صقلية من المسلمين وأقام بها دولة مسيحية. وكانت الحملة مكوّنة من مئات الآلاف من مختلف شعوب أوروبا. وقد بلغت قسطنطينية أخيراً سنة ١٠٩٧ ولكن الإمبراطور الكسيوس لم يسمح لها بالمرور في بلاده والدخول الى العاصمة الأبعد أن استوثق من الأمراء بمعاهدة لكي يأمن كيدهم له ولكي يضمن فائدة من الاشتراك معهم وقد نصت المعاهدة على أمور منها أن ترجع اليه أملاك الدولة الرومانية التي جردها منها السلاجقة في آسيا الصغرى وبعد ذلك سارت الجيوش مخترقة آسيا الصغرى وكانت الدولة الإسلامية عند ذلك مفككة مقسمة بين الأمراء بعد موت زعمائها الكبار فلم يقو الأمراء المتفرقون على صد هذا السيل الجارف وهزموا في موقعة (دورليوم) أو اسكيشهر في نفس السنة، وكانت مقاوماتهم بعد ذلك ضئيلة فبلغ الجيش الصليبي الشام وأخذ كل جانب منه يحل في إقليم ويستقل به أميره وفرسانه فكانت أول إمارة تأسست هي أذاسا أو الرها في حوض الفرات الأعلى واستقل بها بلدوين سنة ١٠٩٨ ثم فتح سائر إقليم الشام سنة ١٠٩٩ وتكونت أمارتا انطاكية وبيت المقدس وانتخب جودفرى ملكاً على بيت



(شكل ١٦) منظر خيالى لفتح انطاكية

المقدس يخضع له الامراء الآخرون واقيم نظام اقطاعى هناك على الاصول المعروفة اذ ذاك .

وقد ارتكب الصليبيون فظائع كبرى فى فتحهم تلك البلاد ولا سيما عند الاستيلاء على بيت المقدس ولم يكن هذا عجيبا من قوم لا يزالون فى هذه الجهالة التى عرفنا وقد ذهبوا الى الشرق محفوزين بحماستهم المتأججة وحنقهم العظيم على المسلمين .

وبعد مدة اخرى فتحت مدن الساحل وتكونت إمارة طرابلس الساحلية وصارت بذلك الامارات الصليبية اربعا

الموقف بعد انتهاء الحرب

جرت عادة المؤرخين أن يسموا تلك الحرب بالحرب الصليبية الاولى ويسمون ما جاء بعدها من الحملات بالحروب الصليبية الثانية والثالثة والرابعة وهلم جرا . ولكن الحقيقة أنه منذ تكونت الامارات المسيحية بالشام لم يكد ينقطع تيار الوفود عاما واحدا بل كان يأتي في كل عام الوف كثيرة بين حجاج ومحاربين ليساعدوا الصليبيين على الحرب مع أعدائهم المرابطين بجوارهم . غير ان أوروبا كانت تتحرك حركات شديدة حماسية عند ما يحدث بالشام حادث كبير فيرسل الجنود من شعوبها اعدادا كبيرة للنجدة وهذه التي يعتد بها التاريخ ويعدها فيجب اذن أن نذكر أن الحرب الصليبية بالمعنى الصحيح كانت الاولى وأما سواها فلم يكن الاحتمالات تأتي لنجدة الصليبيين بعضها صغير لا يذكر وبعضها كبير عند حدوث الحوادث الكبرى وهذه هي التي يسميها التاريخ . وانا سائرون على خطة المؤرخين السابقين في تسمية هذه الحروب

الحرب الصليبية الثانية

لم يلبث أمراء المسلمين أن استجمعوا قواهم بعد الصدمة العنيفة التي صدموها وجعلوا يهاجمون المسيحيين من جميع الأنحاء وكان أكبر الأمراء الذين نبغوا إذ ذاك هو عماد الدين زنكي اتابك الموصل أوحا كها وقد بدأ هذا الأمير يغير على ما يليه من بلاد الصليبيين حتى تمكن أخيرا من فتح (الرها) أو اذا سا سنة ١١٤٤ وهي الولاية الصليبية التي تكونت في أول الحرب الاولى . فكان هذا حادثا عظيما أثار أوروبا وجعلها تجهز الحملة الكبرى التي تعرف بالحرب الصليبية الثانية .

تكوين فرق الرهبان المحاربين بالشام

وجدت الامارات الصليبية بالشام أن عدد من يفد كل عام اليها لا يسد

النقص المستمر في محاربيها كما ان الجديد الذى يأتى لا يقوم مقام القديم الذى تدرب في الحروب أمام السلاجقة الشجعان ولهذا انشئت فرق حربية لسد النقص ولكنها بطبيعة روح العصر والظروف لم تكن فرقا من جنود بل من جماعة متدينة من الرهبان . فكان الفرد من هؤلاء رجلا زاهدا متدينا « كأنه الحمل الوديع مع المسيحيين » ولكنه كان يتدرب على الفروسية والحروب حتى يكون « كأنه أسد في لقاء الاعداء » وكانت الفرقتان الكبيرتان فرقتي الداوية والاسبتارية . والداوية هي المعروفة عند الأوربيين بفرقة (الهيكل) أو (المعبد) أو (التملار) نسبة الى معبد سيدنا سايمان التى قامت الفرقة بجواره وأما الاسبتارية فهي المعروفة عند الأوربيين باسم (الهسبتاليين) أو فرقة (المستشفى) نسبة الى قيامها في مكان مستشفى قديم كان بناه جماعة من التجار الايطاليين ليداووا فيه المرضى منهم ومن الحجاج وتعرف هذه الفرقة أيضا باسم فرقة (القديس يوحنا) الذى كان المستشفى مسمى باسمه تبركا .

وكان لهاتين الفرقتين أثر عظيم في الدفاع عن امارات المسيحيين واليهما يرجع الفضل في استمرارها نحو قرن ونصف بعد ذلك في الشام . وقد عرف أفرادها عند المسلمين بكل الصفات الحميدة وليس أدل على ذلك من أن صلاح الدين الأيوبي الكبير كان يطلب دائما أن يمضى رؤساء هؤلاء الفرسان المعاهدات التى يبرمها مع المسيحيين علما منه بأنهم إذا تعهدوا عهدا أوفوا به

حالة أوروبا في ذلك الوقت

قامت في أثناء هذا حركة في أوروبا ترمى إلى إيجاد حكومات مركزية تمنع الفوضى التى كانت سائدة على القارة من النظام الاقطاعى — وقد كانت هذه الحركة ظاهرة في فرنسا وفي ألمانيا ولعل ابعاد عدد كبير من أمراء أوروبا الاقطاعيين في الشام وموت كثير منهم في الحرب

الصليبية الأولى — لعل ذلك ساعد على وجود تلك الحركة . وقد نجح امبراطور ألمانيا إذ ذاك وهو كندراد الثالث في حركته نجاحا يذكركم كما أن ملك فرنسا إذ ذاك وهو لويس السابع كان أول حلقة من سلسلة الملوك الذي قاموا بتكوين حكومة مركزية قوية في فرنسا وقد شعر هذان الملكان بأنها نجاحا في داخل بلادها نجاحا يستطيعان معه أن يرأسا الحملة الصليبية لاسترجاع إندلس . وهكذا تبدأ الحملات تكون برئاسة الملوك والاباطرة وليس الأمراء الاقطاعيين .

وقد وصلت هذه الحملة إلى الشام سنة ١١٤٧ بعد مصاعب جمة ولكنها لم توفق ففشلت في محاولتها الأولى وهي أخذ دمشق وكان هذا الخذلان بعد ما لقيته الجيوش من قبل من المصاعب في طريقها إلى الشام باعثا على عودة الملكين إلى أوروبا ولم يكمل شيئا مما قصدها .
نمو دولة نور الدين محمود

لم يلبث عماد الدين زنكي بعد أخذ الرها طويلا حتى قتل على يد طائفة الحشاشين بالشام (١)

وولى الامارة بعده ابنه (نور الدين محمود) وقد كان مثالا عاليا للاخلاق الفاضلة والوداعة والعدالة وجعل قصد حياته أن يوحد الدولة الاسلامية وأن يصدم بها الصليبيين صدمات متوالية تخرجهم من الشام . وكانت خطواته الأولى بطيئة نظرا لمقاومة المسيحيين وخصوصا على يد فرقتي الداوية والاسبتارية

ولكنه نجح نجاحا عظيما بالاستيلاء على دمشق وكانت لذلك الحين في

(١) هي طائفة من الشيعة الاسماعيلية اتخذت لنفسها طريق القتل السياسي للوصول الى اغراضها وكان رؤساؤها يخدمون اتباعهم باعطائهم مادة مخدرة (الحشيش) حتى يكونوا مطيعين لهم في انفاذ أوامرهم الدموية ومن اسم هذه الطائفة اشتق الاسم الأول للقاتل غدرا (assassin)

يد أمير من أمراء الاتراك — وبعد أن جعلها عاصمة دولته الناشئة بدأ ينازع الصليبيين وكان هناك قطر ينظر اليه المتنازعان كل منهما يريد أن يقوى نفسه بضمه إلى دولته وذلك هو القطر المسمى الذي كان إذ ذاك تحت حكم الفواطم المتأخرين . فبدأ نضال سياسي حزبي بشأن ذلك القطر وكان استيلاء نور الدين على مصر من أكبر العوامل في فوز المسلمين النهائي في النضال

النزاع على مصر

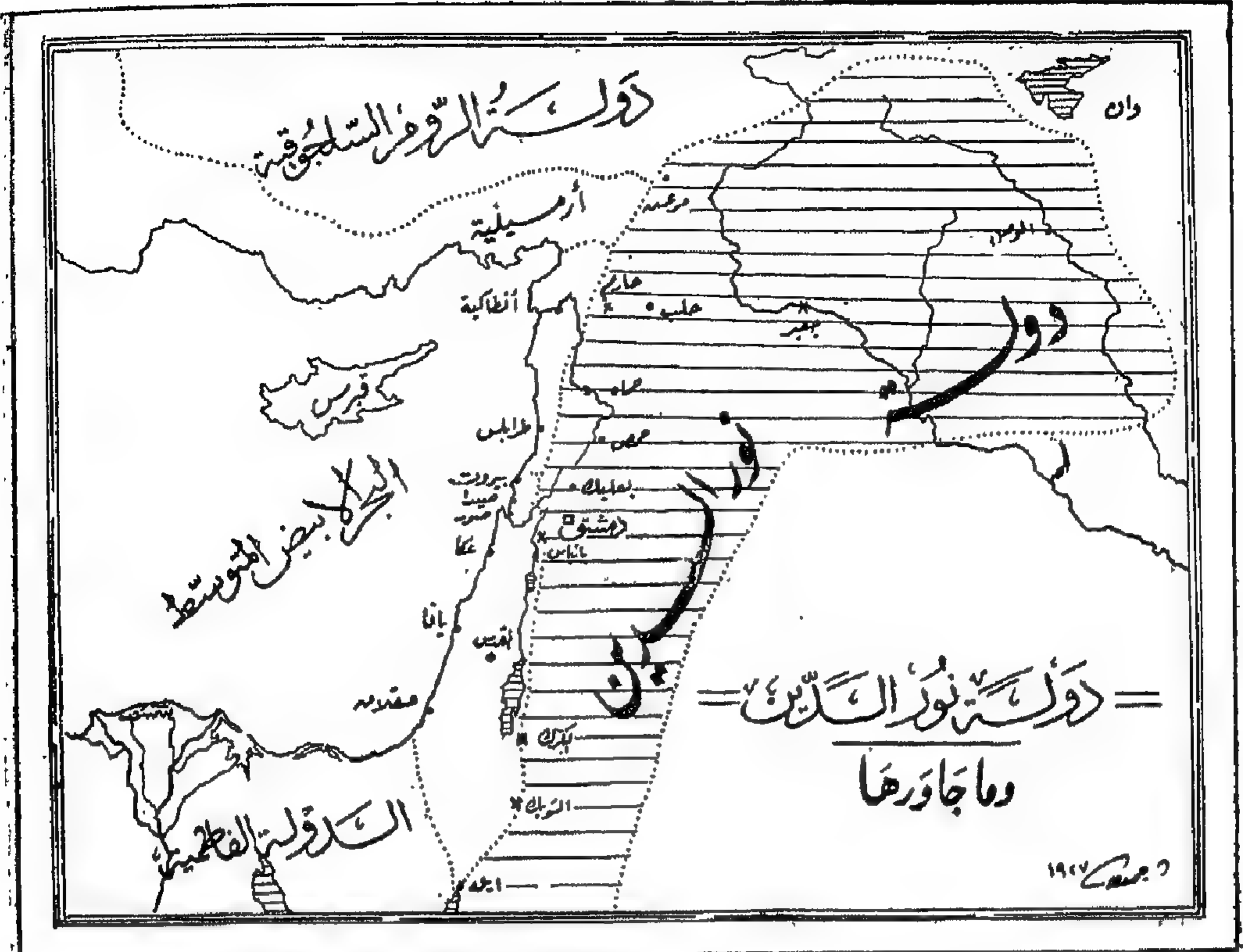
حالة مصر في القرن الثاني عشر

ترك بدر الجمالي مصر بعد موته وموت الخليفة المستنصر في حالة طيبة من الأمن والرخاء بعد أن وقعت في الفوضى في وسط عصر المستنصر . وقد ولي الوزارة شاهنشاه بن الجمالي ولقب بالافضل واختار للخلافة أصغر أبناء المستنصر (المستعلي) ومن ذلك الوقت صارت سنة في مصر أن يولي أصغر الأسرة الفاطمية حتى يكونوا أسس قيادا في يد وزراءهم وابتدأ عند ذلك عصر السلطان السككي للوزراء الذين لم يلبثوا أن تنازعوا وكان لتشاحن المستوزرين أثر كبير في مصير مصر أخيرا . وقد حكم شاهنشاه الافضل إلى سنة ١١٢١ وكان حكمه في أكثر هذه المدة مطلقا لا قيد على إرادته لاسيما بعد موت المستعلي وتولية الآمر (١٠١١) الذي لم يكن عند توليته أكبر من طفل سنة خمس سنوات — وعلى كل حال فقد استمر الأمن والنجاح المادي في مصر طول مدة الافضل ولم يهدد ذلك الأمن الا اشتداد الخطر من جهة الشرق على مصر وكان الخطر متوقعا من إحدى جهتين الأولى من أمراء السلاجقة والثانية من المسيحيين الذين أقاموا أماراتهم بالشام منذ سنة ١٠٩٨ كما مر وأخذوا بقايا ممتلكات الفواطم هناك

وقد زاد الخطر على مصر بعد ذلك حتى أن المسيحيين غزوا مصر ذاتها وبلغوا مدينة الفرما سنة ١١١٧

وقد اتفق موت الأفضل بعد قليل (سنة ١١٢١) فحات مصر من شخصه القوى وزادت الاخطار الخارجية اشتدادا وزادها شدة ما حدث من الاضطراب الداخلى فى الإدارة عقب خلو البلاد من شخص يذعن الجميع له . وأكبر من نستطيع تمييزهم فى وسط ذلك الاضطراب بعض الخلفاء والوزراء الذين لم يمتازوا بسوى سفكهم للدماء وعسفهم مثل الخليفة الحافظ (١١٣١ - ١١٤٩) ومثل الوزير ابن السلار التركى . وليس فى كل المدة الباقية رجل يستحق أن يذكر بشيء من الاعجاب الا (طلائع بن رزيك) الذى كان حاكما على الوجه القبلى فدعى عند اشتداد الفوضى لحكم مصر ولقب باسم (الملك الصالح) سنة ١١٥٤ وقد كانت تلك الفوضى سببا فى ظمع الصليبيين فى مصر ولولا اشتغالهم بحرب نور الدين محمود السلجوقى لغزوا مصر فى ذلك الحين .

وكان حكم الملك الصالح فى مصر شبيها بحكم (بدر الجمالى) فاجتهد فى اصلاح الاُمور فى الداخل والخارج وكان أكبر ما ظهر فى سياسته محاولة الاتفاق مع نور الدين ضد خطر الصليبيين غير أنه لم يمهل ليتم سياسته الحكيمة بل قتل ولم يلبث ابنه أن قتل بعده على يد الطامع فى الوزارة (شاور) سنة ١١٦٣ ومن ذلك الوقت صارت سياسة مصر لعبة فى يد اثنين من طلاب الحكم أولهما شاور هذا والثانى قائد عربى شجاع وهو ضرغام . وكان تنافس هذين الاثنين ختام المأساة إذ انتهت دولة الفاطميين على أيديهما .



(خريطة ١٤) دولة نور الدين وما جاورها

تنازع نور الدين والصليبيين على مصر

أدت منافسة شاور وضرغام إلى حوادث كبرى في القاهرة فهرب شاور خوفاً من منافسه إلى الشام ولجأ إلى نور الدين محمود طالبا منه المعونة على عدوه وعرض نظير ذلك أن يؤدي لنور الدين ثلث خراج مصر وكل نفقات الجيش الذي يرسل لمساعدته — وقد تردد نور الدين طويلاً قبل أن يجيب ذلك الطلب وكان مما ساعد على إجابته أنه رأى ملك بيت المقدس (املريك) يتحرك نحو مصر طامعاً أن يملكها — وبذلك أصبح جيشان يقصدان مصر سنة ١١٦٤ جيش الصليبيين وجيش نور الدين . وكان الجيش الأخير هو السابق إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب .

هزم جيش ضرغام عند أول لقاء ثم توالى الهزائم عليه وقتل قائده الباسل ضرغام في أحد طرق القاهرة ونال شاور أربه من الرجوع إلى السلطة

بمصر ولكنه ما كاد يشعر بأنه عاد إلى السلطة حتى بدأ يريد التخلص من جيش نور الدين . وكان جيش الصليبيين عند ذلك لا يزال خارج الحدود المصرية فأرسل شاور إلى ملك بيت المقدس يطلب وده ويسأله المساعدة على طرد جيش الاتراك . فأسرع يابى ذلك النداء لأن وجود جيوش نور الدين بمصر ضربة قاضية على وجود الصليبيين بالشام وحدث اللقاء بيت الجيشين عند بلبس وكان النصر متنازعا بينهما حتى اتفقا أخيرا على الانسحاب من مصر جميعا .

ولم يكن هذا آخر النزاع فان شيركوه بعد خروجه جعل يملا قلب نور الدين بالرغبة في فتح مصر ذاكرا ما يمكن أن تستفيد دولته منها في نضالها مع المسيحيين حتى رضى نور الدين أخيرا أن يرسل حملة ثانية لفتحها سنة ١١٦٧ بقيادة شيركوه ومعه ابن أخيه أيضا . وسارت الحملة حتى بلغت النيل عند اطفيح ثم عبرت إلى الضفة الغربية وكان شاور عند ما رأى تحرك ذلك الجيش إلى مصر أرسل إلى ملك بيت المقدس يطلب مساعدته ثانيا فأسرع هذا حتى صار مع جيشه في القاهرة وهناك عقد معاهدة مع الخليفة الفاطمي (العاضد) وبعد ذلك عبر النهر وسار جنوبا للقاء شيركوه الذي كان ينسحب بجيشه إلى الصعيد وأخيرا وقف شيركوه عند البابين بقرب المنيا ولقى الجيش المكون من الصليبيين والمصريين وهزمهم هزيمة عظيمة حطمت جيش المصريين وجعلت الصليبيين يتقهقرون إلى الشمال . فتبع شيركوه المهزمين إلى الشمال ثم سار إلى الاسكندرية واستولى عليها وترك بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد هو إلى الصعيد ليحبي أمواله .

ولما استجمع المسيحيون قوتهم ذهبوا إلى الاسكندرية من البر والبحر ليسترجعوها وهناك دافع عنها صلاح الدين دفاعا مجيدا وهذا أول موقف حربي ظهرت فيه مواهب ذلك الرجل العظيم . وقد أدى ثبات

صلاح الدين في الدفاع الى طلب الملك (املريك) للصلاح ولما رأى شيركوه ألا أمل في الاستيلاء على مصر مع كل تلك الصعاب رضى بالاتفاق على أن يخرج الجيشان كلاهما من مصر بشرط أن يحتفظ هو بكل ما جمعه من الأموال من مصر وأن يتبادل الجانبان أسراهما .

غير أن الصليبيين لم ينفذوا المعاهدة بل ابقوا حامية بمصر والزموا شاور أن يؤدي لهم جزية سنوية وما لبث ملكهم أن فكر في الاستيلاء على مصر وأعد حملة لذلك الغرض ووصل الى مصر سنة ١١٦٨ . فأرسل العاضد الخليفة الفاطمي هذه المرة الى نور الدين يستنجد به فاسرع هذا بانفاذ حملته الثالثة وكان شيركوه هو القائد ومعه ابن أخيه ليمرة الثالثة .

وقد دافع شاور عن مصر دفاعا عظيما أمام المغيرين المسيحيين وفي هذا الدفاع أحرق الفسطاط العاصمة القديمة احراقا كان قاضيا عليها . ثم ما لبث جيش نور الدين ان جاء فراى (املريك) انه صار بين نارين وانسحب الى الشام سنة ١١٦٩ وصار شيركوه بجيشه القابض على أمور مصر . وقد أراد شاور أن يعيد الكرة مع شيركوه بخداعه ويتخلص منه ولو غدرا ولكنه عوجل فقبض عليه وقتل بأمر الخليفة العاضد . وعين بدله شيركوه وزيرا على مصر يعززه جيش احتلال من شجعان الأتراك . غير أن المنية عاجلته فمات بعد شهرين وعين بدله في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين .

انتهاء الدولة الفاطمية

كانت الحكومة في مصر بعد ذلك في موقف عجيب فقد كانت في الحقيقة خاضعة لإرادة جيش نور الدين ونائب نور الدين قائده . غير انها كانت اسميا خاضعة لإرادة الخليفة الفاطمي . وقد اتفق أن مرض الخليفة بعد ذلك واحتجب في قصره فصار كل شيء في يد الوزير صلاح الدين يصدر به عن أمر سيده . نور الدين ثم مات العاضد سنة ١١٧١ وعند ذلك انفذ

صلاح الدين ما كان نور الدين يريد من قبل ويطلبه مرارا وهو إزالة الخلافة الفاطمية ومنذ ذلك الوقت صار يدعى على منابر مصر باسم الخليفة العباسي واسم نور الدين . وقد تم هذا الانقلاب بغير حادث يذكر الا ثورة صغيرة من اتباع قصر الفاطميين وجنودهم نجح صلاح الدين في اطفائها قبل تفاقم أمرها ولم تحدث هذه الثورة الا سنة ١١٧٤

تأسيس الدولة الأيوبية

أقام صلاح الدين في مصر سنتين وهو حاكم بالنيابة عن سيده نور الدين وقد تم لنور الدين ما أراد من فتح مصر وصار له بذلك الرجحان على أعدائه الصليبيين بالشام فأخذ يهوى بقوته المتزايدة على قلاعهم وكان في حروبه يعتمد على جيوش صلاح الدين وموارد مصر الغنية وكان صلاح الدين في تلك المدة يصلح من شأن مصر وهي مستعدة لأن تكافئ كل مجهود في ذلك السبيل بزيادة في الثروة ولا سيما وقد كانت الدول السابقة منذ أيام الطولونيين تعمل في وجوه الإصلاح المختلفة فكان تيار الإصلاح مستمرًا ولو انه كان يتعرض بين حين وآخر لعصر من الاضطراب يوقفه حيناً قصيراً حتى يتاح له مصلاح جديد يدفعه في سبيله مرة أخرى وكان صلاح الدين مصلاحاً جديداً بعد عصر الاضطراب الذي ساد مصر في أكثر سني نصف القرن الأخير من حكم الفاطميين ؛ على أنه وجد في تلك البلاد آثاراً تليدة من المدنية فلم ينس أن يبني عليها . وقد مات نور الدين بعد هتين السنتين وولى بعده ابنان صغيران فانتزعت الفرصة جماعة من القواد والحكام وحاولوا حكم الدولة الكبيرة التي أسسها نور الدين باسم الابنين الصغيرين غير ان صلاح الدين بقي في مصر شبه مستقل حتى اتاحت له الفرصة بعد قليل بأن يستقل حقيقة وذلك ان هؤلاء الحكام حاولوا مهاجمته وتنافسوا فيما بينهم تنافساً جعل الدولة التي بنيت بدماء

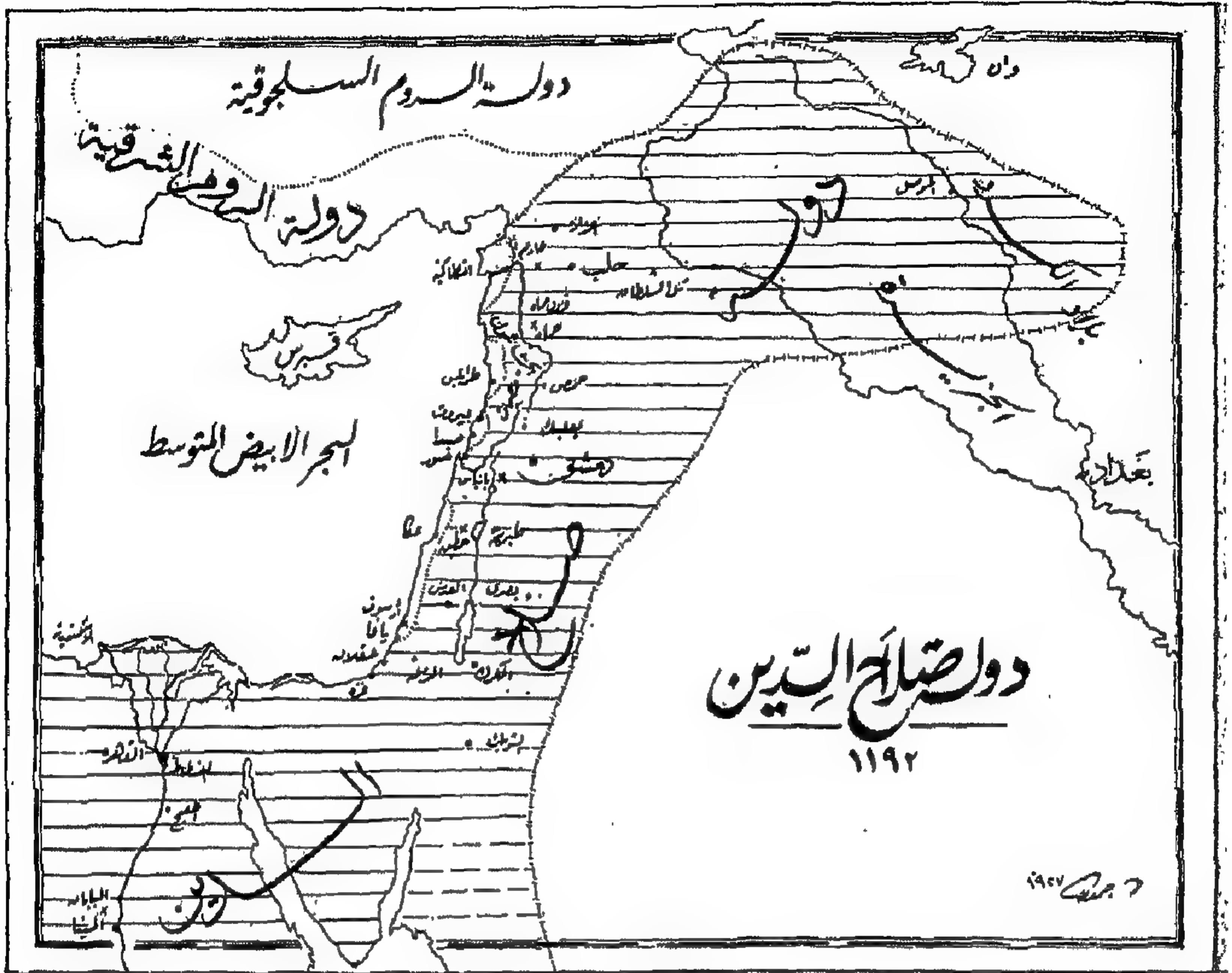
أبطال نور الدين في خطر من السقوط وطمع فيها الصليبيون وجعلوا يستولون على ما فقدوه من بلاد الشام . فرأى صلاح الدين أن يأخذ الأمر في يده وأن يجمع قوى الدولة مرة أخرى حتى يتم عمل سيده نور الدين وهكذا بدأ منذ سنة ١١٧٤ يجاهد ليبلغ تلك الغاية

وقد كان في تلك الأثناء يحارب الصليبيين حروبا متقطعة أحرز فيها انتصارات موضعية كثيرة . وقد نجح أخيراً في أكثر من عشر سنوات في جمع الدولة في يده بعد حروب طويلة مع القواد المنافسين الذين كانوا يستخدمون اسم أبناء نور الدين ليشيروا العالم الاسلامي عليه فلما تم له ذلك بدأ يصدم دولة الصليبيين الصدمة الكبرى التي كان نور الدين يتطلع اليها ، فخاربهم في موقعة حطين الفاصلة سنة ١١٨٧ وكان سببها خرق الصليبيين لمعاهدتهم معه واعتداءهم على قافلة للمسلمين في مدة الهدنة المنصوص

عليها في تلك المعاهدة ، وكان ذلك الانتصار أول حلقة من سلسلة انتصارات أخرى في فلسطين الى أن استولى على المرمى الذي كان المسلمون والمسيحيون يتنافسون على اجرازه وهو بيت المقدس وقد أظهر صلاح الدين في كل حروبه ولا سيما عند فتح بيت المقدس من العدل والرافة والكرم ما يمكن أن يعد عجباً نظراً لما كان الصليبيون يرتكبونه في حروبهم من الفظائع وأعمال القسوة



(شكل ١٧) صورة لصلاح الدين «خيالية»



(خريطة ١٥) دولة صلاح الدين

اعمال صلاح الدين بمصر

لم يقتصر اهتمام صلاح الدين بالأمر الحربية بل كان في الوقت عينه يقوم على تدبير أمور دولته ووضع نظاماتها على أسس ملائمة لأحوالها، وقد أدرك أن المركز الصالح لتكوين دولة متمدينة هو مصر ولهذا جعلها موضع اصلاحه المدني وجعل الشام بطبيعة الحال ميدان حربه فأكثر من الحصون والقلاع بالشام وجعل أشجع أمرائه وأعظمهم يحكمون اقطاعات بها بحسب نظام شبيه بالنظام الاقطاعي، في حين أنه جعل مصر حكومة واحدة مركزية وجنبها بقدر المستطاع شرور الحروب، وكان من أول ما وضعه بها أساس القلعة التي كاد يتمها قبل موته وهي القلعة المعروفة باسمه.



(شكل ١٨) قلعة من قلاع الشام

على حافة المقطم وبنى سوراً من تلك القلعة الى سور القاهرة وبنى سوراً
آخر في الغرب ليحمي البلاد من اغارات البدو ، وحفر في القلعة البئر
المعروفة ببئر الحلزون مبالغة في الاحتياط



(شكل ١٩) قلعة صلاح الدين

وقد رأى ان الدولة الفاطمية كان لها شيء من الأثر في منصر كجامع
الحاكم والجامع الازهر فأحب أن يقيم آثارا الى جانبها كي يقلل من ظهورها
فأخذ في بناء المدارس التي كان الفقه يعلم فيها ولا سيما على المذهب الشافعي

مثل الناصرية ومدرسة سوق السلاح ، هذا عدا المدارس الصغرى التى كانت لتعلم الشعب التعليم الدينى البسيط والقراءة والكتابة وشجع صلاح الدين مع مشاغله الجمة كل اعمال الانتاج بين زراعية وصناعية وتجارية وقد ظهرت ثمار مجهوداته بعد موته فى مدة الدولة الأيوبية التى يمكن أن تعتبر أعلى ما بلغتة الدول المصرية فى العهد الاسلامى إذ تجمعت بها



(شكل ٢٠) برج فى قلعة صلاح الدين

آثار المدنية الإسلامية والمصرية وصارت القاهرة في أيامها أكبر مركز للحضارة في العالم بعد أن اضمحل أمر بغداد وقرطبة في القرن الثاني عشر وما بعده .

الحرب الصليبية الثالثة

كان لسقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين صدى قوى في جميع أنحاء أوربا فان المسيحيين لم يتحركوا في بدء الامر الا لانقاذ بيت المقدس من المسلمين وهام المسلمون يعيدون الكرة ويستولون عليه بعد انتصارات متوالية . فهبت عاصفة من الحماسة في أوربا وعادت صيحة شبيهة بصيحة الحرب الصليبية الأولى وان لم تكن في شدتها وعلوها .

حالة أوربا في ذلك الوقت

كانت دول أوربا تتطور في هذه الاثناء سائرة في السبيل الذي سبق لها السير فيه وهو تكوين حكومات مركزية قوية وازالة حكم الأمراء الاقطاعيين تدريجاً وقد كان في أوربا عند ذلك دولتان كبيرتان وهما الدولة الرومانية المقدسة وفرنسا وزاد عليها عند ذلك ظهور إنجلترا في ميدان السياسة الأوروبية .

ألمانيا (الدولة الرومانية المقدسة)

كان يحكم هذه الدولة عند ذلك الامبراطور الكبير فردريك الأول أو (بارباروسا) وهو لقب غلب عليه لجمرة لون شعر لحيته . وقد كان من الافذاذ بين اميراطورى تلك الدولة وكان أكبر مشاغله محاربة سلطان الأمراء الاقطاعيين وتكوين حكومة مركزية قوية وكانت دولته تشمل ألمانيا وإيطاليا كما مر

وقد حدث في أيامه نضال طويل بينه وبين البابا على أيهما يعد سيد

الدولة وعظيم أوروبا وقد خرج النضال إلى حرب طاحنة كانت نتائجها انتصار البابوية للمرة الثانية ولكنه مع ذلك نجح في بسط سلطانه على الأمراء الاقطاعيين حتى أنه شعر في آخر الأمر سنة ١١٨٩ بأنه يقدر أن يترك الدولة لاجابة داعي الدين واستنقاذ بيت المقدس عند ما بلغه نبأ سقوطه في يد صلاح الدين على أنه لم يقدر له بلوغ مقصده لأنه غرق في طريقه سنة ١١٩٠ وهو في آسيا الصغرى وهو يعبر نهرا وتشتت جيشه فلم يصل إلى الشام الا عدد قليل منه وكان صلاح الدين يخشى وصوله فلما بلغه موته وتحطم جيشه زال عنه العبء الثقيل الذي كان يشعر به من توقع الخطر من ذلك الجيش ومن قائده الشجاع

فرنسا

سارت فرنسا منذ أيام لويس السابع في سبيل اخضاع الأمراء الاقطاعيين تدريجا طول القرن الثاني عشر وقد كان الملك فليب الثاني أو فليب (أوغسطس) أى الكبير من أعظم الملوك الذين كانت لهم يد في القضاء على نظام الاقطاع الفاسد العتيق ولم يقصر عمله على تكوين حكومة مركزية في فرنسا فقط بل أنه نجح في أن يقضى على منافس خطير كان له نصف أرض فرنسا وهو ملك إنجلترا إذ ذاك (هنرى الثانى) الذى آلت إليه وراثته أقاليم واسعة من فرنسا عن طريق أبويه وزوجته . ففي آخر أيام هنرى الثانى استطاع فليب أن يقضى على قوته حتى إذا ما حكم ابنه ريشارد سنة ١١٨٩ استطاع فليب أن يضم كل ما يملكه ملك إنجلترا تقريبا إلى عرش فرنسا . وصار أمره مستقرا في فرنسا حتى استطاع أن يلبي نداء المسيحيين ويذهب إلى استنقاذ بيت المقدس على رأس جيش فرنسى

كبير سنة ١١٩١



(شكل ٢١) فليب أغسطس « الثاني »

انجلترا

لم يكن لانجلترا من قبل هذا العهد ذكر في سياسة أوربا لانعزالها في نموها عن القارة حتى حكم ريشارد الشجاع بعد أبيه العظيم هنري الثاني. وقد كان ريشارد بطبعه فارسا فلما ان أقفل ميدان فرنسا باستيلاء فليب على جميع الأراضى التي كانت لملك انجلترا وجد نداء يفتح أمامه ميدانا جديدا للحرب فأسرع يقود فرسانه وجنودا من الأهلين أنفسهم. وذهب الى الشرق تلبية لنداء المسيحية لانقاذ بيت المقدس سنة ١١٩١



(شكل ٢٢) ريشارد « قلب الاسد »

نتيجة الحرب الصليبية الثالثة

وقف تيار انتصارات صلاح الدين عند مدينة صور حيث اجتمعت
قلاول المحاربين المسيحيين ينتظرون النجدة من أوروبا وقد سار جيش منهم
نحو عكا التي كانت في يد المسلمين يريدون فتحها فسار صلاح الدين
ليمنعهم من ذلك وهناك حدث النضال الطويل الذي انتهى بفتحها بعد
مجيء المدد من فرنسا وإنجلترا تحت أمرة ملكيهما (فليب) و (ريشارد)
الذي ميز نفسه بالشجاعة في كل المواقف حتى سمي (قلب الاسد) تكريما .
وقد بدأ الحصار سنة ١١٨٩ واستمر الى أن أتى مدد أوروبا سنة ١١٩١
وعند ذلك عجز صلاح الدين عن رفع الحصار وسلمت المدينة فدخلها

الصلبيون ولم يشذ سلوكهم عن عادته فانهم ارتكبوا كثيرا من الاعمال القاسية عند دخولها .

وقد استمرت الحرب بعد سقوط عكا الى سنة ١١٩٢ وكانت مفاوضات الصلح في أثناء هذا سائرة بين الجانبين لأن الحرب المستمرة كانت انهكت قوتيهما على السواء . ولكن لم يتم الصلح الا بعد تردد طويل في أواخر سنة ١١٩٢ وهو صلح الرملة وكانت شروطه الكبرى أن يحتفظ الفرنج بالساحل من عكا الى يافا وأن يسمح لهم بزيارة بيت المقدس ، واحتفظ صلاح الدين فيما عدا ذلك بكل نتائج انتصاراته

فتوح صلاح الدين الخارجية

كان صلاح الدين في مدة حياة نور الدين قد أنفذ جيشا لفتح برقة وآخر لفتح السودان بقيادة أخيه طوران شاه ثم أرسل ذلك الاخ نفسه ففتح اليمن وبذلك صارت دولته تمتد من الفرات شمالا الى حدود السودان جنوبا والى اليمن شرقا وبرقة غربا وكان في ذلك الوقت أكبر ملوك المسلمين غير مدافع . غير أنه لم يبق طويلا بعد صلح الرملة وكأنه قد حصل على غاية حياته بعد انتصاره العظيم على الصليبيين فإنه مات سنة ١١٩٣

شخصية صلاح الدين .

لا يتسع المجال لوصف ما كان عليه صلاح الدين من الصفات العالية فان كان حقا رجلا عظيما جمع بين سمو الغاية والشجاعة الصحيحة والوداعة والاعتدال . ويدل على ذلك سلوكه مع أصدقائه واعدائه على السواء وقد استطاع أن يحكم دولته الواسعة مع اضطراب تلك العصور بسهولة لا سبب لها الا خلقه العظيم

وقد كان زاهدا في الدنيا فانه مات ولم يترك شيئا من المال في خزانته

الخاصة . وكان مثالا للبساطة في حياته داخل حدود أسرته . وكان صديقا مخلصا وملكاً متواضعا وكل من تقرب منه يذكّر صفة خاصة فيه وهي أنه كان يجذب عطف من يراه واحترامه .

مصر بعد صلاح الدين والحملات الصليبية المتأخرة

تقسمت دولة صلاح الدين بعد موته بين أولاده وبعض أهله ووقعت مصر لابنه الملك العزيز . وما لبث الاخوة أن اختلفوا وكادوا يسفكون الدماء فيما بينهم لولا تدخل عمهم الملك العادل سيف الدين الذي كان يضارع أخاه العظيم في خلقه وشجاعته وقد كان لتدخله أثر حسن في منع الحروب الداخلية وأقام على أبناء أخيه شبه ولاية ولما مات العزيز بعد حكم قصير تولى بعده ابنه الصغير (المنصور) ولكن الملك العادل رأى أن في توليته مضیعة للدولة فعزله وتولى هو الحكم بنفسه . وقد كان جديرا بالملك العظيم الذي وليه .

ولم يكن حكمه خاليا من المشاغل العظيمة وكان أكبرها لايزال محاولة الصليبيين إعادة الكرة على بيت المقدس سنة ١١٩٧ وكانت الحملة هذه المرة من الامبراطور هنري السادس الذي حكم بعد وفاة الملك الكبير (فردريك بارباروسا) غير أن هذه الحملة لم توفق .

ولم تكن هذه هي الحملة الوحيدة في مدة حياة الملك العادل فان اوربا تحركت حركة كبرى وهي المعروفة بالحملة الصليبية الرابعة وأرسلت جيشا كبيرا لاسترجاع بيت المقدس تلبية لنداء البابا الكبير (أنوسنت الثالث) غير أن هذه الحملة لم يقدر لها الوصول الى الشام بل انها عرجت في طريقها على القسطنطينية اجابة لدعوة امبراطورها المخلوع ليعيدوا له ملكه غير أن الصليبيين عند ما صاروا هناك خلعوا الامبراطور الشرقي وعينوا بدله امبراطورا منهم سنة ١٢٠٤ ويعرف هذا العهد بعهد أباطرة اللاتين

بالقسطنطينية وهناك استمر ذلك الحكم نحو ستين عاما حتى طرد أهل القسطنطينية أباطرة اللاتين بعد ثورة دموية . وقد كانت تلك الحوادث الدموية سببا في ابعاد الشرق المسيحي عن الغرب المسيحي بعد أن قربت بينهما الحرب الصليبية الاولى وبعد ذلك صار الانشقاق بينهما لا يرتق . فالحق أن هذه الحملة لم تصل الى الشام ولم تؤذ ملك الملك العادل بشيء غير ان الحملات توالى بعدها وجعلت قصدها الضرب في قلب الدولة الكبرى التي صارت لها الزعامة على العالم الاسلامي وهي مصر .

وكان أكبر هذه الحملات الحملة الكبرى التي توجهت سنة ١٢١٧هـ ابطة الى مصر عند دمياط بعد أن نزلت أولا بالشام . وقد مات الملك العادل قبل أن يصطدم بها تاركا عبء الدفاع لابنه الذي تولى الملك بعده وهو الملك الكامل وكان جديرا بميراث أبيه العظيم ولكنه كان ميالا الى السلم ولو كلفه ثمنا باهظا . فعرض على الصليبيين أخذ بيت المقدس ولكنهم رفضوا ذلك فواصل الحرب معهم حتى أمكنه بعد نضال طويل أن يهزمهم سنة ١٢٢١ عند قرية المنصوره التي بدأت تتسع بعد ذلك على يد الملك وقد كان الاعتدال الذي أظهره الملك الكامل بعد ذلك الانتصار في معاملته للمسيحيين وشروط معاهدتهم اعتدالا شبيها بما كان صلاح الدين العظيم متصفا به . فسمح لأعدائه بالخروج من مصر وعقد معهم هدنة ثمان سنين .

وقد تجددت محاولة الضرب في قلب الدولة الاسلامية في مدة الملك الكامل سنة ١٢٢٨ على يد امبراطور المانيا (الدولة الرومانية المقدسة) وهو فردريك الثاني بن هنري السادس . وقد كانت هذه الحملة عجيبة فقد جاء فردريك على رغم البابا الذي كان في ذلك الوقت معاديا له ثم نجح بغير حرب في أخذ بيت المقدس إذ سمح له الملك الكامل المسلم أن يستولى عليها ليتحاشى الحرب إذ كان يخشى من الامراء المسلمين في الشام

أن ينتهزوا الفرصة ويتقضوا عليه ومن المفيد أن نذكر أن الإمبراطور
فردريك الثاني كان من أول الملوك الأوربيين الذين كانوا على شيء كبير
من العلم والاطلاع في تلك العصور المظلمة في أوروبا وكان مدينا للمسلمين
في علمه وتأديبه . وقد تعهد فردريك نظير أخذ بيت المقدس أن يصادق
الملك الكامل ويدافع عنه أمام كل أعدائه ولو كانوا مسيحيين . ويسمى
التاريخ هذه الحملة بالحرب الصليبية الخامسة وقد طال حكم الملك الكامل
مدة أخرى يرى نتيجة حكمه القوى وحكم العظماء من أسرته إذ بلغت
مصر عند ذلك ذروة مجدها الحربي والمدني . فقد كانت أعمال الإصلاح
على قدم مع تلك الحروب ولم ينس بنو أيوب مع كل مشاغلهم أن يعملوا أمر
التعليم فنشروا المدارس سيرا على سنة صلاح الدين وشجعوا العلماء
والأدباء حتى صارت مصر مركزا أدبيا كبيرا فوق أنها كانت قطب سياسة
العالم الإسلامي ولما مات الكامل سنة ١٢٣٨ تولى بعد ابنه الملك العادل
الثاني الضعيف مدة قصيرة ثم نزع من الملك أخوه الملك الصالح
سنة ١٢٤٠ وقد حدث في أيامه حادثان يستحقان الذكر الأول أن التتار
أغاروا على العالم الإسلامي الشرق وحطموا الدول الصغيرة على حدوده
وساروا متجهين نحو بغداد فهربت فرق من جنود تلك الدول لاجئة إلى
جهات مختلفة من العالم الإسلامي ومنها الفرقة المعروفة بفرقة (الخوارزمية)
نسبة إلى دولة (خوارزم) التي كانت تلك الفرقة فيها من قبل . وقد وفدت
إلى الشام وساعدت الملك الصالح على استرجاع بيت المقدس من المسيحيين
سنة ١٢٤٤ وأما الحادث الثاني فهو الاغارة الصليبية المعروفة بحملة (لويس
التاسع) ملك فرنسا الكبير أو الحرب الصليبية السادسة سنة ١٢٥٠

الحرب الصليبية السادسة

سارت تلك الحملة على خطوات الحملة السابقة سنة (١٢١٧) حتى بلغت المنصورة وهناك دارت حرب طاحنة مات فيها من المسيحيين عدد عظيم .. وكان شرف هذا النصر لماليك الملك الصالح وهم من الاتراك الذين اشتراهم ودرهم على الحرب من صغرهم .

وقد كان هذا النصر مجيدا بنوع خاص لان الملك الصالح كان قد مات من قبل وكان الجنود يحاربون تحت أمرة قوادهم وقامت على رأس الدولة في تلك الاثناء الملكة المشهورة (شجرة الدر) لأن ولي العهد طوران شاه كان غائبا عند ذلك في ديار بكر فلما جاء استمر في الحرب مع المسيحيين حتى انتهى الامر بتحطيم جيشهم وأسر ملكهم مع كثير من أمرائه . وقد فدى الأسرى فيما بعد بأموال طائلة .



(شكل ٢٣) لويس التاسع

ولم يطل حكم طوران شاه بل قتل في نفس السنة قتله بعض قواد المماليك ومن ذلك الوقت أخذ قواد الجيش (المماليك) الحكم في يدهم . ويعرف عهدهم بعهد سلاطين المماليك .

نشأة دولة المماليك في مصر

هكذا انتهى حكم أسرة بنى أيوب المجيدة التي لم يل الحكم فيها الا عظيم بعد عظيم والتي بلغت مصر في مدتها أعظم ما بلغت من الرفعة والرفاهية وقد حاولت شجرة الدر أن تستمر على الحكم ولكنها لم تقو بغير مساعدة أمراء الجيش فتزوجت بأ ميرهم الكبير (عز الدين أيبك التركمانى) وهو أول السلسلة الطويلة من سلاطين المماليك بمصر ويمكن أن نعد تلك الدولة استمرارا طبيعيا لدولة الايوبيين .

نظام الحكم في دولة المماليك

لم تكن دولة المماليك بطبيعة الظروف دولة أقامها رجل أو أسرة واحدة بل هي دولة أقامتها هيئة الجيش كاملة . فكان السلطان الذى يعين قائما على رضى الجيش وأمرائه فكان يسعى بكل الوسائل التى لديه لكي يسيطر على الجيش أما بالسطوة والبطش واما بالكرم وإما بحسن المعاملة ولم يكن الجيش حزبا واحدا بل كان به أحزاب متفرقة وكان رؤساؤه يسعون دائما إلى بلوغ السلطنة بالمؤامرات إذا استطاعوا فكان أمام السلطان الذى يعين عمل شاق جدا وهو حفظ توازنه والدفاع عن نفسه أمام المتطلعين الكثيرين للحكم . وقد سميت هذه الدولة جمهورية عسكرية ، وهذا أقرب وصف لها فقامانجد أحد السلاطين المماليك خلف الحكم فى بيته — بل كان أكثرهم ينتهى حكمه بانقلاب سريع إما يعزل فيه وإما يقتل وكان رئيس الحزب المتآمر على الانقلاب هو الذى يحكم بعده وعند ذلك يولى أصدقاءه أكبر الوظائف فى الجيش وإدارة البلاد .

وقد كان هؤلاء المماليك كلهم أجنب جاءوا من بلاد التركستان أو من جبال القوقاز وكانوا على جانب عظيم من الشجاعة في الحرب حتى ضرب بهم المثل في القوة والاقدام ولكنهم كانوا لا يعرفون إلا الحرب وكان لبعضهم قدرة في الحكم والسيطرة على الناس مثل السلطان الظاهر (بيبرس) ثالث من حكم من هذه الطائفة على مصر ولكن كان ينقص هذه الدولة على العموم أمر عظيم الخطر وهو فهم مصر ولغتها وتقدير المجهودات السامية قدرها وكان من ذلك نتائج كبرى أهمها ما يأتي

(١) صارت طائفة الحكام منعزلة كل الانعزال عن الشعب لا تفهم لغته تماما ولا تهتم بأموره بل كان ميدانها الوحيد ميدان الحرب

(٢) بدأت العلوم والآداب العربية تفقد التشجيع التي كانت تجده في أيام الفواطم والايوبيين ومن ذلك الوقت بدأ عصر الاضمحلال في المدنية المصرية إلا ما حفظ في طائفة مخصوصة جعلت حياتها طلب العلم وهم رجال الدين .

(٣) زاد نفوذ العلماء (وأصبح ذلك الاسم وصفا لرجال الدين) وكان نفوذهم يعظم تدريجا بصفتهم زعماء من الوطنيين أمام دولة المماليك التي كان رجالها كلهم من الأجنب . وهذا نظير ما حدث في دولة القوط ثم اللمبرديين من زيادة نفوذ رجال الدين عند وجود تلك الدول الأجنبية بايطاليا .

(٤) نظرا لأن هؤلاء المماليك محاربون لا يعرفون إلا الحياة الدموية كانت أساليب الحكومة دائما شديدة كأنما هي أحكام عسكرية مستمرة .

وهذا مبدأ عهد الفظاعة في العقوبات وعهد التعذيب البشع الذي لم تعرفه مصر من قبل ، ولكن يجب أن نذكر أن تلك الفظائع كانت في العادة مقصورة على الحكام والمماليك فيما بينهم وكان الشعب بمعزل منهم كافي تجارته وصناعته وزراعته .

المشاغل الخارجية للمالِك

(١) كانت مصر خارجة من حروب الصليبيين الكبرى التي هزت العالم الاسلامي في القرن الثاني عشر وأول الثالث عشر ولما انتهت دولة الأيوبيين كانت نهايتها مجيدة فقد كان آخر عهدا بالحكم الايقاع بجيش لويس التاسع وأسرهم كما مر وقد خبا لهيب الحروب الصليبية بعد ذلك وصارت أوربا لا تتحرك لأرسال حملات جديدة إذا استثنينا حملات لم تصل إلى اتمام شيء مثل الحملة التي يسميها التاريخ بالسابعة وقد قام بها لويس التاسع أيضا قاصدا أن يأتي إلى مصر من الغرب عن طريق تونس فالصحراء ولكن المرض فتك بذلك الجيش ومات لويس قبل أن يبدأ السير نحو مصر سنة ١٢٧٢ . وعند ذلك لم يبق للصليبيين بالشام إلا بعض بلاد على الساحل أهمها عكا . وكانت مهمة سلاطين المالِك متجهة نحو ازالة كل آثار الصليبيين من الشام . وكان أكبرهم في ذلك السلطان الثالث الظاهر بيبرس العظيم ، فما زالوا يهاجمون هذه البقايا مدينة بعد مدينة حتى سقط آخر معقل للمسيحيين (عكا) في أواخر القرن الثالث عشر على يد الملك الأشرف خليل بن قلاوون سنة ١٢٩٢ .

(٢) ولكن لم يكن خطر الصليبيين عند ذلك شيئا يذكر بجانب خطر مقبل من الشرق فان التتار الذين بدأوا أغارتهم على العالم الاسلامي في أوائل القرن الثالث عشر اجتاحوا البلاد الشرقية جميعها في تيار جارف من الدماء والتخريب حتى أخذوا بغداد ذاتها سنة ١٢٥٨ وهناك وقعت المأساة الكبرى وهي تدمير عاصمة الدولة الاسلامية الكبرى . ولم يبق شيء من آثار مدينة المسلمين العظيمة التي أقاموها في بغداد في مدة خمسة قرون بل ذهبت كل آثارها المادية وكان من أكبر الخسائر ضياع المكتبة العظيمة وكانت تحوى مئات الآلاف من المؤلفات القيمة التي لم يكن لكثير منها نسخ في المسكاتب الأخرى في أنحاء العالم الاسلامي . وقد وقع ذلك في عهد المالِك فكان عليهم أن يقفوا أمام ذلك الخطر الداهم فوقفوا وقفة عظيمة

كان لها الفضل في حفظ مصر والمدنية الاسلامية المكدسة بها من جهة
وحفظ بقية العالم الاسلامي من يد التتار المدمرة من جهة أخرى وهزم
التتار بالشام مرارا كان اعظمها وقعا الهزيمة الكبرى التي أوقعها بهم السلطان
الثاني وهو المظفر (قطز) بقرب (عين جالوت) سنة ١٢٦٠ . وقد استمر
الاصطدام مع التتار مدة بيبرس الذي جاء بعده ثم في مدة قلاوون الكبير
الذي نزع السلطة من نسل بيبرس الضعفاء سنة ١٢٧٩ فقد نال عليهم نصرا
عظيما عند حمص ١٢٨١ وقد هدا تيار التتار بعد ذلك ولكن استمر النضال
بين دولتهم التي تكونت على انقاض الدولة العباسية وبين المماليك بعد ذلك
مدة طويلة وكان النصر فيها في الغالب حليف المماليك .

انتقال الخلافة لمصر :

لما فتح التتار بغداد وخرّبوها هرب افراد من الاسرة العباسية بعد
قتل الخليفة وجماعة من أسرته وجاءوا الى مصر في مدة الملك الظاهر بيبرس
فرحب بهم وأعاد الخلافة الى أحدهم بلقب (المستنصر) ١٢٦١ ومن ثم تبدأ
سلسلة طويلة من هؤلاء العباسيين في مصر وكانوا خلفاء اسميين الى جانب
السلطان صاحب السلطة الفعلية كلها ولم تكن فكرة الملك الظاهر بيبرس
الا ان يزيد من عظمة دولة بآيواء الخلافة اليها . وقد استمرت تلك الخلافة
الاسمية في مصر حتى فتحها السلطان سليم العثماني وأخذ لقب الخلافة
لنفسه سنة ١٥١٧

عصور دولة المماليك بمصر

اصطلح المؤرخون على تقسيم مدة حكم سلاطين المماليك الى قسمين
ويسمون القسم الاول حكم المماليك البحرية نسبة الى أن اقامة جنود المماليك
كانت أولا في جزيرة الروضة وما يليها بجوار البحر (النيل) ويسمون القسم
الثاني حكم المماليك البرجية نسبة الى (البرج) أو القلعة حيث صارت اقامة

هؤلاء الجنود اخيرا وكان أكثر الممالك في العصر الاول يؤتى بهم من بلاد التركستان والمغول وأما في العصر الثاني فكان أكثرهم من الجراكسة من بلاد القوقاز

(١) تقع مدة العصر الاول بين سنين ١٢٥٠ - ١٣٨٢ - (أي ١٣٢ سنة) وكان أكبر سلاطينه من سبق ذكرهم : عز الدين أيبك (١٢٥٠ - ١٢٥٧) ولم يبق الملك في بيته طويلا بل نزعة من أبنائه (المظفر قطز) (١٢٥٩ - ١٢٦٠) ولعل أكبر هؤلاء السلاطين الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) ولم يبق الملك زمنا طويلا في بيت واحد في هذا العصر الا في بيت قلاوون الذي حكم بين (١٢٧٩ - ١٢٩٠) إذ استمر بعده الملك في بيته مدة طويلة الى سنة ١٣٨٢ حتى نزع من نسله على يد برقوق وهو أول الممالك البرجية

وقد شهد هذا العصر اعظم ما بلغته دولة الممالك من المجد وقد أدى ملوكها أكبر خدمة لمصر والعالم الاسلامي في الدفاع ضد الصليبيين والتتار

نمو التجارة المصرية

وقد عظم شأن مصر في تلك المدة بين دول العالم في التجارة فان مصر صارت تعد قلب العالم الاسلامي وكانت أوروبا بعد خروجها من الحروب الصليبية قد عرفت كثيرا عن الشرق واتصلت به بعلاقات تجارية فبدأت حركة كبرى لتبادل السلع بين الشرق والغرب ونشأت منذ الحروب الصليبية حركة بحرية كانت أولا مقصورة على نقل الجنود والحجاج بين الشام وأوروبا ثم استمرت بعد انتهاء الحروب واشتغلت بحمل المتاجر وكانت أكبر المدن التي تعمل في هذه الحركة هي جنوة والبندقية وبيزا وكلها من ثغور ايطاليا فكانت اساطيل هذه المدن تأتي لمصر بمتاجر وأوروبا وتحمل من مصر متاجر الشرق المختلفة وجعلت وفود التجار من جميع

النواحي فقد الى مصر ولا سيما من هذه الثغور الايطالية . وقد بدأت منذ عصر صلاح الدين معاهدات تجارية لتسهيل المعاملة لما ينشأ عنها من الفائدة المادية وقد سار سلاطين المماليك الاوائل على تشجيع تلك الحركة التجارية ب عقد المعاهدات التي تضمن سلامة الاجانب في البلاد التابعة للدولة المصرية (وهذه مما بنيت عليه الامتيازات الاجنبية بمصر فيما بعد)

وقد جنت مصر فائدة كبرى من تلك التجارة فانها صارت بحق في ذلك العصر أولى دول العالم من جهة الثروة والغنى كما كانت أولى دول العالم إذ ذاك في القوة الحربية والمجد السياسي

(٢) وأما العصر الثاني فيقع بين سنة ١٣٨٢ - ١٥١٧ (اى ١٣٥ سنة) وقد توالى سلسلة من السلاطين في ذلك العصر ولكن نظام حكم المماليك لم يبق له مبرر إذ زالت الاخطار التي كانت في الماضي تهدد مصر فأصبح حكم المماليك العسكري لا ضرورة له وبهذا صار حكمهم فاسداً وأصبح مثل حكم الاقطاع عند ما صار لا مبرر له في أوربا بعد القرن الحادى عشر . وكان أعظم ملوك ذلك العصر برقوق (١٣٨٢ - ١٣٩٠) وقايتباى (١٤٦٨ - ١٤٩٦)

وقد بدأت عظمة مصر التجارية تتحطم منذ ذلك العصر وبدأت ثروتها تقل من جراء القلاقل المستمرة بين الأمراء في الداخل وقد وجد في آخر الأمر منافس حربي ما زال ينمو حتى صار قوى الساعد فنزع السيادة الحربية من تلك الدولة بعد نضال استمر زمناً طويلاً وهذا المنافس هو دولة الترك العثمانيين التي بدأت صغيرة لاتذكر بجانب عظمة الدولة المصرية ثم ما زالت تنمو حتى انتهى أمرها بضم مصر الى دولتها على يد سليم الأول العثماني سنة ١٥١٧ وكان آخر سلاطين مصر المستقلين من تلك الدولة قانصوه الغورى الذى مات في النضال ضد العثمانيين في الشام ثم طومان باى الذى سلم للغزاة بمصر وقتله سليم القاسى

نشأة الممالك الاوربية وتطور نظم الحكم فيها

فرنسا: مر ذكر تاريخ نشأة فرنسا منذ أثار الفرنج على غالة وقد تعاقت الدول عليها ففي أول الأمر حكمت الاسرة الميروفنجية (نسل كلوفس) الى ان نزلت الاسرة الكارلية السالطة من ملوكها الضعفاء المتأخرين وصار بين ابن شارل مارتل أول ملوك الاسرة الجديدة وقد بلغت عظمة هذه الدولة أوجها في أيام شرلمان ثم تقسمت دولة الفرنج في معاهدة فردان وإنقسمت الاسرة الكارلية الى ثلاث شعب كل منها يحكم قسما من الدولة العظيمة التي كونها شرلمان واستمر الحكم في يد فرع هذه الاسرة في فرنسا الى أن جاء العصر الاقطاعي وأصبح الملوك الكارليون لانفوذهم بجانب الامراء الاقوياء ثم تكرر ما حدث أولا فنزع الامر من يد الاسرة الكارلية وتولى الملك أحد الامراء الاقوياء وهو (هيو كايه) سنة ٩٨٧ وقد كان أوائل ملوك هذه الاسرة لا يحكمون إلا قطعة صغيرة من فرنسا حول باريس وكان سلطانهم مزعزا حتى في داخل تلك المساحة الصغيرة إذ كان الامراء ينازعونهم منازعة الانداد ولهذا كان الملوك الاربعة الاول من هذه الاسرة لا سطوة لهم في الدولة ، ولكن بانتهاء حكم هؤلاء الأوائل يبدأ عصر جديد منذ أوائل القرن الثاني عشر سنة ١١٠٨ فان الحكم الاقطاعي كان عند ذلك قد ظهر فسادا وبدأت الميول تتجه نحو مساعدة الحكومة المركزية على الضرب على أيدي الامراء وإزالة الفوضى المنتشرة في فرنسا من جراء حروبهم الداخلية المستمرة وبدأت سلسلة ملوك أقوياء منذ أيام لويس السادس فجعلوا يعملون بكل وسيلة على تقوية الحكومة المركزية واستمر هذا مدة لويس السابع وفليب الثاني الذي وصلت سطوة الحكومة المركزية في أيامه مبلغا عظيما .

النزاع بين فرنسا وإنجلترا

وقد وقع في هذا الوقت أول نزاع بين فرنسا وإنجلترا وهو النزاع الذي يستمر بعد ذلك مدة طويلة وينتج حروباً طويلة بين هاتين الدولتين كما سيأتي .

والسبب في حدوثه أن (هنري الثاني) ملك إنجلترا عند ذلك كان يملك في فرنسا أراضى واسعة آلت إليه من أبيه وهو أمير فرنسي كان يحكم مقاطعة (انجو) وقد استولى أيضاً على مقاطعات أخرى كانت تحت حكم زوجته وهي أميرة فرنسية (كانت تحكم جزءاً كبيراً من جنوب فرنسا) وكان ملوك فرنسا منذ ذلك يريدون بسط نفوذهم على البلاد واضعاف سلطة الأمراء الاقطاعيين وقد كان ملوك إنجلترا أحد هؤلاء الأمراء الاقطاعيين بالنسبة للملوك فرنسا وفي الحقيقة كانت ممتلكات ملوك إنجلترا بفرنسا أكبر من ممتلكات الملوك الفرنسيين فبدأ ملوك فرنسا يعملون جهدهم للقضاء على سلطان هؤلاء الاتباع الاقوياء وما زال الامر على ذلك طول حكم لويس السابع وأول حكم فليب الثاني وقد نجح هذا أخيراً في أن يقضى على نفوذ ملك إنجلترا واستفاد بثورات ابنائه عليه (وكان من هؤلاء الابناء الثائرين ريشارد قلب الاسد) فما أتى آخر القرن الثاني عشر حتى كانت إنجلترا قد فقدت كل ممتلكاتها تقريباً وضمت كلها الى تاج فرنسا. وقد أدى نجاح فليب في تقوية سلطة الحكومة المركزية الى تلقيبه بلقب (اغسطس) أو الكبير (وهو الذي اشترك في الحرب الصليبية الثالثة مع ريشارد)

فلما مات فليب ترك فرنسا دولة عظيمة الى أن ورث الملك حفيده لويس التاسع الذي بلغت سلطة الملك الفرنسي في أيامه اوج العظمة فقد كان ذلك الملك في عصره أكبر ملوك أوربا وهو الذي مثل أوربا في الدفاع

عن الدين فهاجم المسلمين مرتين أولاً في مصر وثانياً في تونس كما مر .
على أن الملوك الفرنسيين اتبعوا بعد ذلك سنة كان أثرها إعادة الاقطاع بشكل
جديد وذلك أنهم جعلوا يقطعون أمراء الاسرة المالكة أقاليم واسعة ليحكموها
فبدأت تتكون أسرات جديدة من أمراء من الاسرة المالكة ثم نما سلطانها
تدريجاً حتى صارت تنافس الملوك وأعدت الأمر إلى ما كان عليه في الماضي
غير أن الأمراء بعد لويس التاسع أخطر شأنًا لأنهم يعدون أنفسهم أقران
الملوك وأقاربهم ولهذا كان لابد من تجديد النضال بينهم وبين الحكومة
المركزية وقد كان نضالاً عنيفاً ، ويسمى التاريخ هذه الاقطاعات الجديدة
باسم (الأناناج)

تجدد الحروب بين فرنسا وإنجلترا

قد انتهى الدور الأول من الحروب بين ملوك فرنسا وملوك إنجلترا
على أن ضمت جميع ممتلكات ملوك إنجلترا إلى التاج الفرنسي كما مر . ولكن
ما كان ملوك إنجلترا لينسوا ذلك وقد حدث بين الجانبين تنافس شديد
وكان العداء يظهر كلما لاحت فرصة فكان ملوك إنجلترا يساعدون أعداء
ملوك فرنسا في كل مكان : ففي البلاد المنخفضة كانت إنجلترا تساعد الثورات ضد
فرنسا وكذلك كان الإنجليز يساعدون مؤامرات أمراء (الأناناج) ضد الحكومة
المركزية ولا سيما أمراء (برغنديا) كما أن فرنسا كانت تساعد الاسكتلنديين
في نضالهم ضد الإنجليز فكانت النفوس مملوءة من الجانبين بالكره والحقد
وكان كل منهما ينتهز الفرصة للوثوب بالآخر ولاحت الفرصة أخيراً لملوك
إنجلترا فادعوا الحق في الاستيلاء على عرش فرنسا ذاته بعد موت الملك
شارل الرابع سنة ١٣٢٨ فان فرع الاسرة الكابيتية المباشر انقرض بموته
واختار أمراء فرنسا ملكاً من أمراء (الأناناج) وهو من الاسرة
الكابيتية يسمى فرع (قالوا) وذلك الملك هو قليب دي قالوا .

وكان ملك إنجلترا عند ذلك (ادوارد الثالث) وهو ينتسب بواسطة امه الى ملوك الاسرة الكايتية المباشرة فادعى انه احق بملك فرنسا لذلك ولو ان هناك قانونا فرنجيا محترما اسمه القانون (السالى) يمنع تولية من ينتسب الى الاسرة المالكة بواسطة امرأة . غير ان الأمر لم يكن الا احتيالا لايجاد سبب صوري لتحقيق ارجاع الممتلكات القديمة التى كانت لملوك إنجلترا فى فرنسا . فلم يتردد ادوارد الثالث طويلا بل بدأ الاغارة لتحقيق غرضه .

وبذلك ابتدأت الحرب التى تستمر متقطعة أكثر من مائة عام وتسمى لذلك بحرب المائة عام .

ادوار حرب المائة عام

بدأت الحرب فعلا بمركة بحرية عند محاولة الانجليز النزول الى ساحل فرنسا وقد انتصر الاسطول الانجليزى بمساعدة الهولنديين اهل (البلاد المنخفضة) الذين كانوا يناضلون ضد فرنسا .

ويمكن تقسيم الحرب بعد ذلك الى دورين الأول من سنة ١٣٤٠ — ١٣٦٠ والثانى من سنة ١٤١٥ الى نهاية الحرب فى سنة ١٤٥٣ . ومما يسترعى النظر أن هذه الحرب الطويلة انتهت بخير معاهدة بين المتحاربين بل وقفت عند ماسئها الجانبان وبقيت الأمور بعد ذلك على ما كانت عليه عند وقوف رضى الحرب .

الدور الأول

انتصرت إنجلترا انتصاراً عظيماً فى ذلك الدور عند كريسى فى شمال فرنسا (سنة ١٣٤٦) وقتل من الفرنسيين نحو ثلاثين ألفاً وأعقب ذلك أخذ (كاليه) عنوة واصبح الانجليز سادة كل القسم الشمالى من فرنسا . وقد أغارت الجيوش الانجليزية على فرنسا فى نفس الوقت من الجنوب الغربى .

واوغلت في سهول نهر اللوار وكان بطل هذا الميدان هو الفارس الاسود ابن ملك إنجلترا وقد حدث الاصطدام العظيم بين الانجليز والفرنسيين هناك عند (بواتيه) سنة ١٣٥٦ وفيه نال الانجليز نصرا حاسما جديدا وأخذ ملك فرنسا أسيرا وهو الملك (جان بن الملك قليب دي قالوا)

وقد هزت هذه الهزائم الشعب الفرنسي هزة كبرى فقامت حركة شعبية قوية ووقعت الحكومة الفرنسية في ازمة خطيرة من ثورة الشعب الخائض فزاد هذا من تمكين إنجلترا من ارض فرنسا حتى اضطر ملك فرنسا الى عقد معاهدة (بريتيني) Bretigny نسبة الى قرية في الشمال الشرقي من فرنسا وذلك سنة ١٣٦٠

وبذلك ينتهي الدور الاول وتبدأ فترة طويلة قبل تجدد هجوم إنجلترا في سنة ١٤١٥ .

فترة الحرب

ولكن لم يقدر لانجلترا ان تملك ما كسبته من تلك الحروب طويلا فان الجيوش الفرنسية جعلت تستعيد منها تدريجا ارض فرنسا بفضل قائد عظيم (وهو برتران دي جيسلان) فما أتت ١٣٧٥ حتى كانت فرنسا قد استرجعت كل أرضها . وقد أدى ذلك الى حدوث هزة كبرى في إنجلترا شبيهة بالهزة التي اهتزتها فرنسا من قبل وثار الشعب الانجليزى على حكومته لفشلها . وأعقب ذلك اضطراب داخلى في إنجلترا بين الملك (ريشارد الثانى حفيد ادوارد الثالث) وبين امرائه انتهى بعزله واختيار أحد الامراء اقرباء البيت المالئ بدله سنة ١٣٩٩ فلم تستقر الامور الا في اوائل القرن الخامس عشر وعند ذلك امكن إنجلترا ان تحاول مرة أخرى أن تستعيد ما فقدته في فرنسا فتجددت الحرب سنة ١٤١٥ .

الدور الثاني

كانت فرنسا في أوائل القرن الخامس عشر في حالة اضطراب من تشاحن الأحزاب على السلطة إذ كان ملكها عند ذلك شارل السادس الذي ولى الملك طفلاً صغيراً فجعل الأمراء يتنافسون على الوصاية عليه ثم مالبت أن جن وهو شاب صغير فكانت هذه فرصة جديدة للتنافس على السلطة بين الأمراء وكان من أكبر هؤلاء المتنافسين أمير برغنديا وأمير (اورليان) وقد ثارت بين الجانبين حرب داخلية طاحنة فكانت الفوضى الناشئة عنها دافعة للانجليز على تجديد الحرب والاعازة على فرنسا سنة ١٤١٥

وكانت انجلترا عند ذلك قد استقرت أمورها تحت ملوك أسرة جديدة. وهي أسرة لانكستر وكانت الاعازة هذه المرة من شمال فرنسا فقط وكان النصر حليف جيوش الانجليز مرة أخرى فانتصروا نصراً كبيراً في موقعة (اچنكور) وصار بعدها شمال فرنسا في يدهم

وقد وجد ملك انجلترا (هنري الخامس) في حوادث فرنسا مساعداً كبيراً على النجاح فانه انضم الى أحد الحزبين المتنافسين على السلطة وهو حزب (برغنديا) وكانت نتيجة هذا فوزاً عظيماً في معاهدة شهيرة وهي معاهدة (تروى) سنة ١٤٢٠ وكانت تقضى بأن يصير ملك انجلترا وصياً على ملك فرنسا المجنون وأن يخلفه على عرش فرنسا بعد موته وأن يتزوج بابنته الأميرة (كاترين) فلما ولد طفل لملك انجلترا من هذه الأخيرة صار بمقتضى هذه المعاهدة ملك فرنسا وقد مات هنري الخامس بعد ذلك بقليل وتبعه شارل السادس فأصبح الطفل هنري السادس ملكاً لانجلترا وفرنسا.

غير ان الامر لم يقف عند هذا الحد فان شعب فرنسا غضب لهذه المعاهدة التي اخذت قسراً وثار ليساعد وارث الملك الفرنسي وهو شارل

السابع بن شارل السادس وكانت فتاة ريفية على رأس هذه الثورة وهي (جان دارك) الشهيرة التي بدأت نضالها سنة ١٤٢٩ وكان أول عمل لها رفع حصار الانجليز عن (اورليان) وكان النصر بعد ذلك حليفها حتى اخذت (ريمس) وهناك توجت الملك شارل السابع وبذلك مزقت معاهدة (تروى) وكان اتباعها يعتقدون انها مرسله من الله لتخليص فرنسا فكانو مستبسلين في الجهاد معها وكانت على شيء كبير من وداعة الخلق وطهارة القلب وقوة الشخصية فساعد هذا على نجاحها . غير انها اسرت بعد ذلك وحاكمها الانجليز واعدموها حرقا سنة ١٤٣١ ولكنها كانت قد ادت عملها فان الفرنسيين مازالوا يتقدمون محتفظين بنصرهم وروحهم الذي استمدوه من نضالها واستمرت الحرب بعد ذلك متقطعة الى سنة ١٤٥٣ وعند ذلك لم يبق للانجليز الا مدينة واحدة وهي (كاليه) ولم يبق لهم جيوش تستطيع المهاجمة بعد ذلك في فرنسا فسكنت ثورة الحرب ولكن لم تعقد معاهدة تقرر نظاما ثابتا بين الدولتين بعد هذه الحرب الطويلة المدمرة.

نتائج الحروب بين الدولتين

كان لهذه الحروب آثار كبرى في تاريخ فرنسا وانجلترا الداخلي كما كان لها اثر في مركز كل منهما بالنسبة للدول الاخرى.

(١) مات كثير من الامراء الكبار في اثنائها وكان لهذا اثر عظيم في زيادة سلطة الحكومة المركزية في كل من الدولتين وهذا مهد السبيل الى زيادة سلطة الملوك في كلا الدولتين منذ أواخر القرن الخامس عشر فتمكن ملوك فرنسا بعد ذلك ان يقضوا على امراء الاپاناچ ويعيدوا سلطة العرش الى ما كانت عليه أيام لويس التاسع

(٢) هزت هذه الحروب شعبي انجلترا وفرنسا هزة عظيمة وهذه الهزة هي التي جعلت تلك الشعوب تنضم الى جانب الحكومات المركزية

لتقضى على فوضى الاقطاع ذلك النظام الذى أصبح فاسدا لا يودى وظيفة بل يهرق الدماء ويفسد البلاد بعد أن كان فى القرن العاشر واولئ الحادى عشر يدافع عن سلامة أقطار أوروبا ضد الاخطار الكبرى التى كانت تهددها من الاغارات من جميع النواحي كما مر

(٣) نمت روح الوطنية فى أثناء هذا النضال وشعر شعب كل دولة من الدولتين انه منفصل قائم بذاته وهذا مهد السبيل الى قيام كل من الشعبين يسعى لاعلاء شأن نفسه مستقلا عن غيره وينمى نظمه الداخلية ويفكر فى تحسين أحواله التجارية والصناعية منافسا فى ذلك الشعوب الاخرى

ومن هنا بدأت فكرة التوسع السياسى والاقتصادى فى كل من الدولتين (٤) انصرفت انجلترا الى داخل جزيرتها بعد أن عجزت عن امتلاك ارض فى فرنسا وهذا ما جعلها تنمى نظامها السياسى الداخلى وتكون لذاتها شخصية مستقلة عن السياسة الاوربية وصارت من ذلك الوقت منعزلة فى سياستها عن القارة تنظر من بعيد الى حوادثها ولا تشترك فيها الا بمقدار ما تستلزمه مصالحها وهذا ما جعلها تنجو من كثير من المشاكل الدولية . واما فرنسا فان نجاحها فى ذلك النضال دفعها الى الرغبة فى سيادة ماحولها من البلاد ومن ذلك الوقت بدأت فكرة التوسع والتطلع الى سيادة اوربا وهذه السياسة ستبلغ قصاراها فى زمن لويس الرابع عشر

لويس الحادى عشر وشارل الجسور

خرجت فرنسا بعد حرب المائة عام منصورة ولكن كان فى داخلها منافسة قوية من جهة اكابر امراء الاپاناچ وكان أشدهم خطرا امير برغنديا وقد مر أنه كان يساعد الانجليز أثناء حرب المائة عام حقدامنه على الحكومة المركزية ورغبه فى بسط سلطانه على فرنسا وكان امراء برغنديا يملكون بلادا واسعة فى شرق فرنسا وشمالها الشرقى وقد تعاقب منهم ثلاثة كانوا من

أشد أعداء الأسيرة المالكة بفرنسا وكان آخرهم شارل المعروف بالجسور .
غير أن ملك فرنسا منذ سنة ١٤٦١ كان لويس الحادى عشر الشهير
فى التاريخ بدهائه ووصوله إلى غاياته بكل الوسائل ، وقد جاء هذا الملك
بعد أن هدأت الأحوال فى داخل فرنسا ولم يبق أمامه إلا منافسة أمراء
قلائل أكبرهم أمير برغنديا الذى كان يؤلب الأمراء ويتآمرون معهم على
لويس ، وقد شغلت الحروب معهم جزءاً كبيراً من اهتمام لويس حتى
ساعده حظه بموت ذلك الأمير القوى ولم يترك إلا ابنة وهى الأميرة
(مارى) التى تزوجت بالأمير الكبير مكسيميليان حاكم النمسا . وما
لبثت هذه أن ماتت تاركة ابنتين فرأى لويس أن يصل إلى غرضه وهو ضم
برغنديا بتزويج كبرى هاتين الابنتين إلى ولى عهد فرنسا وبذلك ضمن
توحيد فرنسا بكل أقاليمها

ولهذا يعد لويس الحادى عشر مؤسس عظمة فرنسا الحديثة لأنه قضى
على أمراء الأتاج من جهة ، ولأنه من جهة أخرى ضم برغنديا وما تملكه
إلى فرنسا وجعلها دولة واحدة عظيمة .

وقد بدأت فرنسا بعد لويس الحادى عشر سيرها فى سبيل الامتداد
الخارجى وطبعت أن تكون سيدة الدول فى أوروبا ، وذلك ما جرّها إلى
الاضطدام بدول أوروبا العظمى ولا سيما النمسا

ولئن كان التضاؤل مع إنجلترا قد انتهى فى داخل فرنسا بانتهاء حرب
المائة عام فانه تجدد فى ميادين أخرى فيما بعد وذلك أما فى قارة أوروبا وأما
فى المستعمرات .

إنجلترا

كانت بريطانيا من الأراضى التابعة للدولة الرومانية منذ فتحها يوليوس
قيصر العظيم . وقد بقيت فى حوزة الدولة الرومانية حتى توالى أغارات

الهمج على الدولة الرومانية في أوائل القرن الخامس فسحبت الجيوش الرومانية التي بها لتدافع عن قلب الدولة وبذلك تركت الجزيرة بلا حام يدافع عنها، ف وقعت بسهولة في يد قبائل الانجليز والسكسون التي عبرت اليها من القارة ومن ذلك الوقت صارت بريطانيا تحت حكم المغيرين. وسميت باسمهم (انجلترة أى أرض الانجليز) وطرد البريطانيون الاصليون الى الجبال الغربية والشمالية

ولكن أخذ المغيرون يحتلطون بالسكان الاصليين تدريجاً وبدأ يتكون شعب واحد تحت حكومة من الملوك السكسونيين يعاونهم أكبر القبائل. وقد بقي أهل بريطانيا وثنيين الى أن دخلت الديانة المسيحية في بلادهم على يد مرسلين من الرهبان أرسلهم البابا (جريجوار الاول) في أواخر القرن السادس

غير أن الحال لم يستمر على ذلك فقد تعرضت انجلترة منذ أوائل القرن التاسع الى اغارات النورمانديين الذين جاءوا من بلاد الدانمرك كما تعرضت بلاد أوربا جميعها وأخذ هؤلاء المغيرون يفسدون في السواحل الشرقية والجنوبية وكان بطل الدفاع ضدهم هو الملك السكسوني (الفرد الكبير) الذي حكم بين سنة ٨٧١ وسنة ٩٠١ وقد اضطر للسماح لهم بالاقامة على السواحل الشرقية والجنوبية الشرقية نظير خضوعهم لسلطانه وكان ذا شخصية قوية فلم يمت حتى كان قد قرب بين كل سكان بريطانيا من بريطانيين وسكسون وانجليز ونورمانديين وظل الحكم في بيته مدة طويلة الى أوائل القرن الحادى عشر أى أكثر من قرن ولم يحكم انجلترة من النورمانديين (الذين يسمون بالدانمركيين) إلا ملك واحد (كنوت) ولكن بعد موته لم يستمر الملك في بيته لضعف أبنائه ولأن الناس كانوا أشد تعلقاً بالبيت المالك القديم — بيت

الفرد الكبير فعاد الملك إلى (أدوارد) التقى وكان هذا الملك يتصل بقرابة إلى وليام حاكم شمال فرنسا المسمى بأقليم (نورماندى) فلم مات أدوارد لم يترك وارثا من عقبه فأدعى وليام النورماندى أنه الوارث لعرش انجلترا ولكن قاومه أحد الأمراء السكسونيين وهو (هارولد) غير أنه لم يقو على صد ذلك الأمير القوى فهزم وقتل في جنوب انجلترا في موقعة (هاستنجز) سنة ١٠٦٦ ومن ذلك الوقت دخلت انجلترا في حوزة أمير (نورمانديا) الذي يعرف في التاريخ باسم وليام الفاتح

انجلترا تحت حكم النورمانديين

يسمى هذا الفتح بالنورماندى تميزا له عن أغارات النورمانديين الاول في القرن التاسع الذى يطلق عليهم اسم الدانمركيين . وكان هؤلاء النورمانديون من سلالة المغيرين الذين كانوا يفسدون في البلاد الساحلية في جميع أوروبا في القرن التاسع وقد حلوا في شمال فرنسا في أوائل القرن العاشر تحت أمرة زعيم منهم وهو (رولف) ومن ذلك الوقت صارت (نورمانديا) أقالما من أقاليم فرنسا محكوما على النظام الاقطاعى وكان أمراؤه أقوياء حتى ان منهم من اغار على صقلية ونزعها من المسلمين وكون هناك دولة نورماندية قوية امتدت سلطتها على جنوب ايطاليا وشمال أفريقيا

وكان وليام أميرا (نورمانديا) فلما فتح انجلترا صار له صفتان الاولى انه أمير فرنسى والثانية انه ملك على انجلترا وصارت تلك البلاد تحت حكمه ولاية تابعة . وقسمها على النظام الاقطاعى الذى كان سائدا على القارة عند ذلك

وكان النورمانديون في مبدأ الأمر أجانب عن الانجليز في اللغة والعادات ولهذا كان حكمهم حكما اجنيا في نظر أهل البلاد فلم يكن محبوبا . عندهم ولا سيما بعد بسط نظام الاقطاع الذى سلب الفلاح

الإنجليزى أرضه وجعلها للأمراء من النرمانديين . وكانت سطوة الأمراء شديدة على الناس لم يعتزازهم بقصورهم الحصينة وفرسانهم المدربين على الحرب .

وقد استمر ذلك التنافس بين الفاتحين وسكان البلاد الأصليين مدة طويلة (إلى أوائل القرن الثانى عشر) ولكن طول المعاشرة أحدث اثره تدريجاً وأخذت الحكومة الجديدة تسير فى سبيل الاستقرار من حكم الملك الثالث من النرمانديين وهو هنرى الاول (١١٠٠ - ١١٣٥) فقد بدأت فى مدة حكمه أولى الخطوات نحو انشاء نظام انجلترا الدستورى فصدر الملك مرسوماً يعد فيه باعادة الحقوق التى سلبها الفتح من الاهلين .

ومن جهة أخرى ضرب ذلك الملك على يد الأمراء وأخذهم بطاعة أوامر الحكومة فبدأ بذلك فى تنمية قوة الحكومة المركزية وفل شوكة امراء الاقطاع . وكذلك أصلح من نظام القضاء ووسع دائرة المحاكم وجعل قواعدها ثابتة فيمكن اعتبار حكم هنرى الاول مبدأ تاريخ إنجلترا الدستورى

لم يترك هنرى الاول عند موته الا حفيداً صغيراً من ابنته التى تزوجت من أمير فرنسي (أمير انجو) فاختار الأمراء النرمانديون أحدهم (استيفن) وهو ينتسب بأمه الى وليام الفاتح . غير أن هذا لم يطل حكمه ولما مات سنة ١١٥٤ كان حفيد هنرى الاول قد شب واستطاع أن يسترجع عرش جده باسم هنرى الثانى .

وكان هنرى الثانى بحكم وراثته يملك أقاليم واسعة فقد ورث إنجلترا عن جده لأمه وكان ابن حاكم انجو (بفرنسا) فورث هذا الإقليم عن أبيه وكانت لانجو ملحقات كثيرة من بلاد فرنسا خاضعة لحكمه أيضاً ثم تزوج بأميرة فرنسية تحكم (اركتين) فى جنوب فرنسا فكانت له أقاليم كثيرة فى فرنسا يحكمها بصفته أميراً اقطاعياً فرنسياً فوق كونه ملك إنجلترا

ويعتد هذا الملك اول أسرة جديدة من ملوك انجلترا تسمى الأسرة
(الانجوية) نسبة الى (انجو) ويسمى نسل هنرى الثانى كذلك باسم
أسرة (بلانتاجنت) نسبة الى نبات كان ابو هنرى يضعه فى قبعته .

اهمية حكم هنرى الثانى

كان حكم هنرى الثانى هاما فى انجلترا من وجوه كثيرة اولها أنه حدث
فيه النضال الاول بين انجلترا وفرنسا وقد سبق ذكر ذلك وكانت نتيجة
النضال بعد مدة ان فقدت انجلترا كل ما تملك فى فرنسا بعد موت هنرى
الثانى وكان لهذا اثر عظيم فأن انجلترا بدأت منذ ذلك الوقت تنصرف الى
داخل بلادها فهتم بانماء مواردها ونظمها .

واما الوجه الثانى فقد حدث فى مدة هنرى الثانى استمرار الحركة تقوية
الحكومة المركزية فى داخل انجلترا كما حدث استمرار فى علو مستوى
عامة الشعب وخصوصا فى المدن التى نمت فيها الصناعة وقد كان شعب المدن
مساعددا قويا للحكومة المركزية فى القضاء على حكم امراء الاقطاع .

وكان لحكم هنرى اهمية من جهة ثالثة وذلك ان بدأت انجلترا تنصرف
الى ضم ما يليها من الجزائر مثل ايرلنده وبذلك بدأت حركة التوسع فيما
يجاورها مباشرة ووضعت بذلك اساس المملكة الحديثة

نمو الدستور الانجليزى فى القرن الثالث عشر

اذا كانت الحكومة المركزية (الملكية) قد عظم شأنها فى أيام هنرى
الثانى وساعدتها على ذلك المدن والشعب الذى بدأ يظهر ميلا للاشتراك
فى امور الدولة - فان هناك جانبا آخر وهو جانب الامراء الذين كانوا يرون
الحكومة المركزية تستولى على كل السلطة فيفزعون خوفا على نفوذهم
وقد تولى ريشارد بعد أبيه هنرى الثانى مدة قصيرة قضاها غائبا فى

حروب الصليبية في الشام أو في القارة الاوربية . وتولى بعده أخوه الضعيف
الملك (حنا)

وكان سنىءالتصرف ظالما قاسيا . وقد فقدت انجلترا في أيامه كل ماكان
لها من الممتلكات في فرنسا . فكرهه الناس وانتهز الامراء هذه الفرصة
ليقيدوا سلطة الملوك وقد ساعد البابا على زيادة كرهه بطرده من الدين
واجتمعت كل هذه الظروف فجعلته منبوذا من الامراء والعامة وقد
طلب الامراء منه أن يوقع عهدا يتعهد فيه بلزوم حدود العدل التي
رسمها جده هنرى الاول فأبى فثاروا عليه والزموه بالقوة أن يذعن لهم
فأصدر (العهد الاعظم) أو (ماجنا كارتا) سنة ١٢١٥ وهو الذى يعد أساس
لحريات الانجليزية . وقد نص فيه على أمور أهمها :

(١) انه من حق الناس ان يحاكمهم اقرانهم والا يكونوا تحت سلطان
الملك المطلق

(٢) ان الملك لايفرض الضرائب إلا برضاء الامراء ورجال الدين .
وقد نما نظام الحكم بعد هذا نموا تدريجيا وكان اهم المواقف في تاريخ
ذلك النمو موقفتان

الموقف الاول

في مدة هنرى الثالث ابن الملك حنا وذلك ان بدأ النظام الذى يشبه
الوزارة فان الملك صار يحكم بمشاورة مجلسه الخاص وكذلك بدأ وجود
ما يسمى بالبرلمان فان الملك كان اذا احتاج الى فرض ضرائب لجباية
الاموال اللازمة له ولحروب الدولة جمع الامراء ورجال الدين فى مجلس
ليوافقوا على فرض ما يريد ، فكان هذا أول عهد انجلترا بالمجلس النيابي
الذى يشترك فى الحكم مع الملك .

الموقف الثانى : فى آخر حكم هنرى الثالث وأول حكم ابنه ادوارد الاول

بذلك أن دوام الاحتكاك بين الامراء والملك أدى الى حرب داخلية بين الجانبين سنة ١٢٦٤ وكان رئيس الثائرين كبير الامراء (سيمون دي منتفورت) وقد نجحت الثورة مؤقتاً وكون سيمون (برلمانا) مكوناً من الامراء ورجال الدين وضم اليهم ممثلين لطبقة الشعب .

فلما قضى على الثورة أخيراً وتولى ادوارد الاول بعد أبيه سنة ١٢٧٢ سار على سنة الثائرين فجمع (برلمانا) يمثل جميع الطوائف وكانت حاجة الملك الى المال داعية الى زيادة سلطة ذلك البرلمان وقد اجتمع أول (برلمان كامل) سنة ١٢٩٥ وكان يجلس فيه الامراء ورجال الدين والعامة معاً ولكن فصل ممثلو العامة في مجلس خاص بهم فيما بعد

حرب الوردتين ونتائجها

حدث في إنجلترا في أثناء حرب المائة عام اضطراب شديد مرز كره نشأ من عوامل عدة كان أهمها شدة وطأة ريشارد الثاني وعسفه وكانت نتيجة ذلك الاضطراب ثورة ضد الملك اشترك فيها الامراء والعامة وانتهت بعزله وتولية أحد الامراء الذي صار هنري الرابع وكان من اسرة (لانكستر) احدى الأسر المتصلة باصل البيت للملك ولم يكن هنري في الواقع اجدر الامراء بالملك بل كانت هناك اسرة اخرى من الامراء أقرب اتصالاً بالبيت للملك من اسرة (لانكستر) وهي اسرة (يورك) غير أن اختيار البرلمان وقع على هنري وكان هذا كافياً لتفضيله على كل من عداه . ولكن اسرة (يورك) لم تنس هذا الغبن الذي لحقها فكان امراؤها يتحينون الفرص لتزع الملك من منافسيهم الذين غلبوهم على الملك ولاحت الفرصة أخيراً بعد أن حكمت اسرة لانكستر أكثر من ستين عاماً وذلك في مدة حكم الملك هنري السادس ثالث ملوك تلك الاسرة . فان ذلك الملك جن (وكان جده هو لأمه

الملك شارل السادس الفرنسي الذي ذكرنا انه كان مجنوناً (فتناقص الأمراء على الوصاية والسلطة وكان امراء اسرة يورك من أكبر المتطلعين الى عرش إنجلترا فانتهزوها فرصة وثار كبير تلك الاسرة بانصاره العديدين وكانت الملكة هي التي تتولى الدفاع عن العرش لجنود الملك وبدأت حرب داخلية طاحنة تعرف باسم جميل وهو (حرب الوردتين) فان أحد الحزبين كان يميز نفسه بوردة حمراء وهو حزب الملك وكان الآخر وهو حزب اسرة يورك يميز نفسه بوردة بيضاء .

وابتدأت الحرب عقب انتهاء حرب المائة عام سنة ١٤٥٥ وكان النصر أولاً في جانب الثوار الذين انتصروا في سنة ١٤٥٥ في موقعة سنت البان حتى أن الملك هنري نفسه أخذ أسيراً في موقعة (نرثامبتون) سنة ١٤٦٠ غير أن الامر مالبث أن تغير وعاد الحكم للملك والملكة مدة عام واخذ وبعد ذلك استرجع حزب يورك قوته وجعل يعيد الكرة على الملك والملكة حتى هزم جيوشهما عند (توتني) في اقليم (يوركشير) سنة ١٤٦١ وتوج أمير اسرة يورك ملكاً وصار (ادوارد الرابع)

ومنذ ذلك الوقت صار الملك في بيت يورك واستمرت الثورات تشب بين حين وآخر من انصار بيت لانكستر ولكنهم لم تكن ثورات خطيرة

وضاع كل أمل لبيت لانكستر في استرجاع الملك عند ما مات هنري السادس وقتل ابيه ووارثه سنة ١٤٧١ واستقر الامر بعد ذلك لبيت يورك الذي ظل على عرش إنجلترا نحو خمسة عشر عاماً أخرى الى سنة ١٤٨٦ ثم ولي ملك إنجلترا البيت العظيم الذي بدأت على يديه عظمة تلك الدولة وهو بيت (تيودور)

نتائج هذه الحرب

أتمت حرب الوردتين النتائج التي بدأت في تحقيقها حرب المائة عام في داخل انجلترا وأهمها :

(١) مات عدد كبير من الأمراء في أثناءها فكان هذا عاملاً على زيادة

قوة العرش

(٢) زادت ثروة الملك بما اجتمع لديه من أموال الأمراء الذين دخلوا في صفوف أعدائه والذين كانوا يقتلون أو تصادر أموالهم عقاباً فاستغنى الملوك فيما بعد عن أن يلجأوا للبرلمان لفرض ضرائب للحصول على المال وبهذا أمكنهم أن يستغنوا عن مساعدة البرلمان فقلل هذا ما شأنه وصار الملك هو القوة العظمى في إنجلترا لا تقيد سلطته هيئة أخرى من الأئمة أو الشعب .

(٣) سئم الشعب بكل طبقاته الاضطراب المستمر والحروب المتصلة ولهذا كان مستعداً لتسليم قياده لحكومة قوية تضع حداً لتلك الفوضى . فكان يميل إلى تعضيد الحكومة في قضائها على الثورات مهما تكلفه ذلك . ومن هذا مهد السبيل إلى نشوء الحكومة القوية المصلحة التي نالت رضى الشعب رغم استيلائها على كل السلطة وهي أسرة (تيودور) .

اسبانيا

أقامت دولة المرابطين بالاندلس منذ سنة ١٨٠٦ نحو سبعين عاماً حدث في أثناءها تطور كبير في جنودها وملوكها فبعد أن كانوا البدو الذين يعيشون في صحارى شمال افريقيا تقلبوا في نعيم الحياة الاندلسية وعادت كرة الامارات المسيحية التي نشأت في شمال اسبانيا وزادت قوتها منذ اوائل القرن الثانى عشر وبلغت غزواتها الى قرب العاصمة ذاتها (قرطبة) وكان القرن الثانى عشر كما هو معروف عصر الحروب الصليبية في الشرق فكان المسيحيون

في اوربا يرون واجبههم النضال مع المسلمين حيثما اتصلوا بهم ولهذا كان البابا يشجع الاغارات على الاندلس الاسلامية بكل وسيلة كما كان يشجع الاغارات على المسلمين في الشام والشرق .

وقد أوجدت لهذا الغرض فرق من الرهبان المحاربين شبيهة بفرق الرهبان المحاربين التي نشأت في الشام فأحدثت هذه التهضة ضغطا قويا على دولة المرابطين ولم تكن عند ذلك (في القرن الثاني عشر) قوية على مقاومة هذا الضغط فالتمست المساعدة من دولة اسلامية نشأت في شعب البربر في شمال افريقيا في أوائل القرن الثاني عشر ونما شأنها حتى صارت قوة حربية عظيمة في أواسط القرن (وهي دولة الموحدين) أنشأها واعظ اسمه محمد بن تومرت ثم نصره أحد الأمراء وهو عبد المؤمن أول ملوكها وقد لبى ملوك هذه الدولة الدعوة وعبروا الى الاندلس وهناك جعلوا يردون تيار المسيحيين حتى هزموهم هزيمة كبيرة في موقعة (الارك) سنة ١١٨٥ غير ان هذه الأسرة التي تعرف بأسرة (بنى عبد المؤمن) لم تلبث ان سارت سيرة من سبقها من دول الاندلس واستهواها نعيم تلك البلاد واغرقتها المدنية الاسلامية التي كانت عند ذلك قد بلغت المنحدر المؤدى الى الانحلال . فلم تأت أوائل القرن الثالث عشر حتى عادت الامارات المسيحية الى الانتصار وكان اكبر هذه الامارات اربعة وهي البرتغال في غرب شبه الجزيرة من الشمال وقشتاله وارغونه ونقار . غير ان اثنتين من هذه الامارات نمتا نموا كبيرا وهما البرتغال التي استقلت بنفسها وجعلت تسير وحدها في نموها البحري التجارى ثم قشتاله التي امتدت في قلب شبه الجزيرة وصارت كبرى الامارات المسيحية منذ أواسط القرن الثالث عشر .

وقد كانت نتيجة ضغط هذه الامارات على ما يليها من اراضى المسلمين

ان لم يبق لهؤلاء بعد أواسط القرن الثالث عشر إلا الجزء الجنوبي وهو السهول المحيطة بمدينة غرناطة

ولكن غرناطة بقيت وحدها نحو قرنين ونصف تقاوم الغزوات المستمرة رافعة رأسها محتفظة بالكثير الثمين الذي تختلف فيها من المدينة العالية التي اسسها المسلمون بالاندلس بل أن المدينة استمرت فيها يانعة مجيدة بعد ذهاب القوة الحربية والمجد السياسي ، وأن قصر الحمراء المنسوب إلى بنى الأحمر الذين كانوا آخر من حكم غرناطة من الأمراء لا ية دالة على علو المدينة وارتقاء الفنون في آخر حياة الدولة الأندلسية . وفي أواخر القرن الخامس عشر اتصلت إمارتا أرغونة وقشتالة بعد أن كانتا متنافستين وكان اتصاهما بزواج أمير الأولى بأميرة الأخرى ومن ذلك الاتصال وجدت بذرة إسبانيا المسيحية المتحدة وقد زادت بهذا الاتحاد قوة المسيحيين حتى أنهم استطاعوا التغلب على مقاومة غرناطة فسقطت أخيراً في يد الملك والملكة المسيحيين وهما (فردناند) و (إيزابلا) سنة ١٤٩٢

ومن المفيد أن نعرف أنه كان في حاشية الملكة رجل يطلب المساعدة على رحلة جغرافية عجيبة زاعماً أنه يقدر أن يصل إلى الهند الشرقية بالسير غرباً وذلك هو (كريستوف كولومب) المشهور .

وقد جرى المسيحيون في إسبانيا في معاملة المسلمين على سنة سائر المسيحيين في تلك العصور المظلمة من قسوة واذلال واضطهاد ولعل جهل العصر يشفع لهم في ذلك . على أن إسبانيا خسرت بذلك خسارة كبيرة فإن أكثر المسلمين جلوا عنها إلى شمال إفريقيا وكانوا زهرة الصنائع وأهل الفن والعلم وكان جلاؤهم عاملاً على تأخر إسبانيا في النهضة ولم يتخلص من أثر هذا لمدة طويلة فقد بقيت متأخرة عن جميع دول

أوروبا في مضمار المدنية والعلم زمنًا طويلًا من جراء سياستها نحو المسلمين ومدنيتهم وعلمهم .

الأتراك العثمانيون .

كانت دولة العباسيين في أوائل القرن الثالث عشر قد مضى عصر قوتها من زمن طويل وتتابعت عليها الحوادث المختلفة منذ ذهب حماها السلاطين الأوائل من السلاجقة الذين مرز كرههم وهم طغرل بك والب أرسلان ومملك شاه . . وقد أصبح منذ أوائل القرن الثالث عشر أعظم مركز للقوة في العالم الاسلامي في الشام ومصر في دولة الأيوبيين فالمماليك . وأما الاقاليم الواقعة الى شرق نهر دجلة فلم تكن بها دول ممتازة الا دولة واحدة وهي خوارزم الواقعة بين نهري سيحون وجيحون . وكانت هذه الدولة متاخمة لآواسط آسيا حيث يقيم الشعب البدوي الكبير القوة وهو شعب التتار . وقد اتفق عند ذلك أن وجد رجل قادر استطاع أن يوحد بين قبائل هذا الشعب تحت حكمه وهو (تيموجين) الذي أخضع كل من حوله من الامراء وصار يلقب بلقب (چنكيز خان) أي الملك الأعظم . وقد اصطدمت دولة چنكيز خان بدولة خوارزم المجاورة لها ونشأ من ذلك فضائل لم يقتصر على خوارزم بل تعداها الى كل العالم الاسلامي الذي وراءها وسال من التتار سيل مخرب مدمر لم يبق على شيء من المدنية الاسلامية الى أن فتحت بغداد سنة ١٢٥٨ واستمر السيل الى أن بلغ حدود مصر ولم تنج هذه البلاد إلا بفضل سلاطينها الامجاد المماليك . وقد كان في جيش خوارزم فرق رحلت عند وقوع الكارثة واتجهت غربا منها فرقة الخوارزمية التي مر ذكرها ومنها فرقة أخرى من الترك سارت متقلة فلم يستقر بها المقام حتى بلغت بلاد آسيا الصغرى وهناك التحقت بخدمة سلطان قونية أحد أمراء السلاجقة الذين قسموا بقايا الدولة الكبرى التي كان يحكمها ملك شاه وقد اقطع هذا الامير تلك الفرقة المحاربة التي حلت بأرضه .

وساعدته في حروبه قطعة من بلاده واقعة على الحدود الغربية التي بينه وبين دولة الروم الشرقية فكانوا يخدمونه هناك في الدفاع عن أرضه ضد الرومانيين بقيادة زعيمهم وهو (ارطغرل)

واستمر هؤلاء في خدمة الأمير السلجوقي الى أن ولي زعيمهم الثاني (عثمان) واتفق عند ذلك موت الأمير السلجوقي فانتهم عثمان الفرصة واستقل بإقليمه ومن ذلك الوقت وجدت أماره العثمانيين التي تنسب اليه ومن ذلك الوقت سارت هذه الامارة في سبيل التوسع والامتداد حتى صارت من أكبر الدول الإسلامية في مدي (قرن واحد) . ثم آلت اليها زعامة العالم الإسلامي بعد قرنين من نشأتها .

ويمكن تقسيم تاريخ نمو هذه الدولة إلى عصرين .

(١) العصر الأول من أيام استقلال عثمان الى أيام بايزيد الأول (١٣٠٠ — ١٤٠٢)

(٢) العصر الثاني من اعادة انشاء الدولة بعد تحطيمها في موقعة انقرة الى فتح قسطنطينية (١٤١٠ — ١٤٥٣)

العصر الأول .

لم يكن العثمانيون الا فئة عسكرية صغيرة ولم يكونوا من العديد بحيث يستطيعون أن يكونوا اسيادة عسكريين على اقليم صغير ولكيهم رأوا أنفسهم على حدود دولة كبرى متسعة الارحاء تخالفهم في الدين واللغة والعادات وكما فتحوا منها اقلها رأوا أنفسهم اجانب فيه لا يستطيعون أن يصيغوم بصيغتهم ولهذا كان تقدمهم في أول الامر محدودا غير أن (اورخان) ابن عثمان فكر عند توليته في طريقة تضمن له زيادة الجيش وسد النقص الذي كان يشعر به وذلك أنه جعل يأخذ من البلاد التي يفتحها ضريبة من الأولاد فيقدم الناس له عديدا معينا كل علم ليدخلوا جيشه وكان يبعد هؤلاء

الاولاد عن أهلهم ويعودهم الحياة العسكرية المحضة ويعلمهم قواعد الدين الاسلامي فينشأوا وقد نسوا أصلهم وأصبحوا لا يعرفون الا سيدها واحدا وهو السلطان العثماني وقد نجحت هذه الفكرة ففتحت الجنود الجديدة بلادا واسعة واستطاعت الحكومة العثمانية أن تخضعها وان تحكمها بمساعدة ذلك الجيش وهو المعروف بالجيش الجديد ومعناه بالتركية (نى چارى) وقد حرف هذا الاسم وضار (الانكشارية)

وقد خطا الجيش الجديد أول خطاه نحو النصر في مدة حكم مراد الاول بن اورخان اذ عبر الى اوربا وبدأ يفتح اقاليم البلقان الى أن بلغ (ادرنه) ونقلت العاصمة اليها بعد ان كانت في (بروسه) باسيا الصغرى . ومن ثم أخذ يصطدم بالدول المسيحية التي هناك وكان أكبرها ثلاث : الدولة الرومانية الشرقية ودولة الصرب ودولة البلغار

ولم يقتصر امتداد العثمانيين على أوربا بل كانوا يمدون سلطانهم شرقا على بلاد السلاجقة ولكنهم في ذلك العهد لم تكن لهم جرأة كبيرة على حروب أمراء السلاجقة المسلمين خوفا من تألبهم وخشية على دولتهم الناشئة التي لم يكن أساسها راسيا في البلاد فكانت أكثر غزوات مراد الاول متجهة نحو أوربا حتى فتح أكثر الجهات الغربية والوسطى من البلقان وقضى على دولة الصرب في موقعة (قوص أوه) الكبرى سنة ١٣٨٩ . ولكنه قتل بعد الانتصار قتل قبله أخذ الصربيين وكان بين القتلى وتحين الفرصة عند مرور السلطان بقربه .

ولما ولى الملك ابنه (بايزيد) الاول بدأت الدولة العثمانية تتخذ مجرى جديدا وأخذت حروبها توقع الرعب في قلوب أعدائها فقد كانت انتصارات مراد اعلانا ناجحا عن قوة الجيوش الجديدة .

غير بايزيد سياسة أبيه فلم يتردد في الاستيلاء على بلاد آسيا الصغرى

التي كان يحكمها السلاجقة . ولكنه أخطأ في هذا فأوجد لنفسه أعداء عديدين .
بين الأمراء المسلمين وجعل هؤلاء يدبرون له ما يهلكه كما سيأتي . وسار في
أوربا على سيرة أبيه حتى بلغ نهر الدانوب

وقد نشأ من هذا الامتداد ان اصطدم بقوتين هائلتين

(١) قوة أوربا .

(٢) قوة الملك المغولي العظيم تيمورلنك .

الاصطدام بأوربا .

ما كانت دول أوربا الغربية لتتحرك لنجدة القسطنطينية إذ هاجمها
الأتراك فقد رأينا ما كان من تجدد العداء بينها وبين أوربا وكيف
خرج الصليبيون عليها في حربهم الرابعة واغتصبوا ملكها وكيف طردوا
أخيراً منها بعد ثورة دموية من شعب قسطنطينية اليوناني . ولكن عندما
وصلت جيوش بايزيد الى نهر الطونة ، أتت أوربا بأن الأتراك بدأوا يهددون بلاداً
تدين بالمذهب الغربي الكاثوليكي ورأى البابا بعض اتباع كنيسته في خطر من الفتح
العثماني فحرك أوربا لنجدتهم وهكذا عادت حرب شبيهة بالصليبية غير اننا يجب
الا ننسى أن هزة أوربا لم تكن هزة صليبية عنيفة . فان عصور الحرب
الصليبية الكبرى كانت قد مضت . وقد اجتمع المدد الاوربي من جميع
الجهات في مدينة نيقو بولس (على نهر الطونة) وحدثت هناك الموقعة
الكبرى سنة ١٤٩٦ وفيها ظهرت قوة الجيش التركي مرة أخرى وانتصر

بايزيد نصراً عظيماً

(٢) الاصطدام بتيمورلنك

هرب كثير من أمراء السلاجقة من آسيا الصغرى عند ما فتح
بايزيد بلادهم ولجأوا الى البلاد المجاورة فاجأ بعضهم الى دولة سلاطين
المماليك العظيمة التي كانت اذ ذاك تملك مصر والشام ولجأ بعضهم الى ملك
عظيم ظهر عند ذلك في الشرق وهو (تيمورلنك) الذي تجددت على يديه

اغارة التتار على العالم الاسلامي وهذه هي اغارة التتار الثانية وتختلف عن الاولى بأن تيمورلنك كان مسلما شيعيا في حين ان جنكيز خان صاحب الاغارة الاولى لم يكن مسلما ولكن اغارة التتار الثانية لم تكن في تخريبها وسفكها للدماء أقل من الاولى وقد كان لسلاطين المماليك فضل جديد في دفع خطرهما عن مصر بعد ان استولى تيمور على جميع البلاد الإسلامية الشرقية

لجأ بعض الامراء السلاجقة الى تيمور وجعلوا يوغرون صدوره على بايزيد وزاد الامر اشتدادا عندما ترددت المكاتب بين المسلمين وتبادلا فيها السباب الشنيع ، وأخيرا تدفق سيل التتار الى آسيا الصغرى وأسرع بايزيد للقائه حتى كانت الواقعة عند انقرة سنة ١٤٠٢ وفيها دارت الدائرة على الأتراك وانتصر تيمور نصرا عظيما واسر بايزيد مع بعض ابنائه وكان انتقام تيمور عظيما تشفيا مما رماه به بايزيد في مراسلاته من السباب وبوقوع هذه الكارثة تحطمت الدولة العثمانية كأنها لم تكن ولم يكن هناك شعب عثماني كثير العدد يستطيع ان يبقى الدولة بعد ذهاب جيشها وملكها فكادت تلك الدولة تزول لولا تردد الدول المجاورة لها لما كان بهن من الضعيف فلم يحدث اكثر من تفكك أجزاء دولة آل عثمان واستمر هذا التفكك حتى ظهر محمد الاول وجمع تلك الأجزاء وجعل يصل بعضها ببعض

العصر الثاني .

مضت مدة بعد صدمة انقرة كانت فيها الدولة العثمانية في خطر من الزوال . ولكن محمد بن بايزيد تمكن بعد مجهود عظيم من حفظها وما اتت سنة ١٤١٠ حتى كان يقود جيوشه مرة أخرى ينزع ما استرجعه الصرب والبغار من البلاد التي كان أبوه وجده قد فتحها في البلقان .

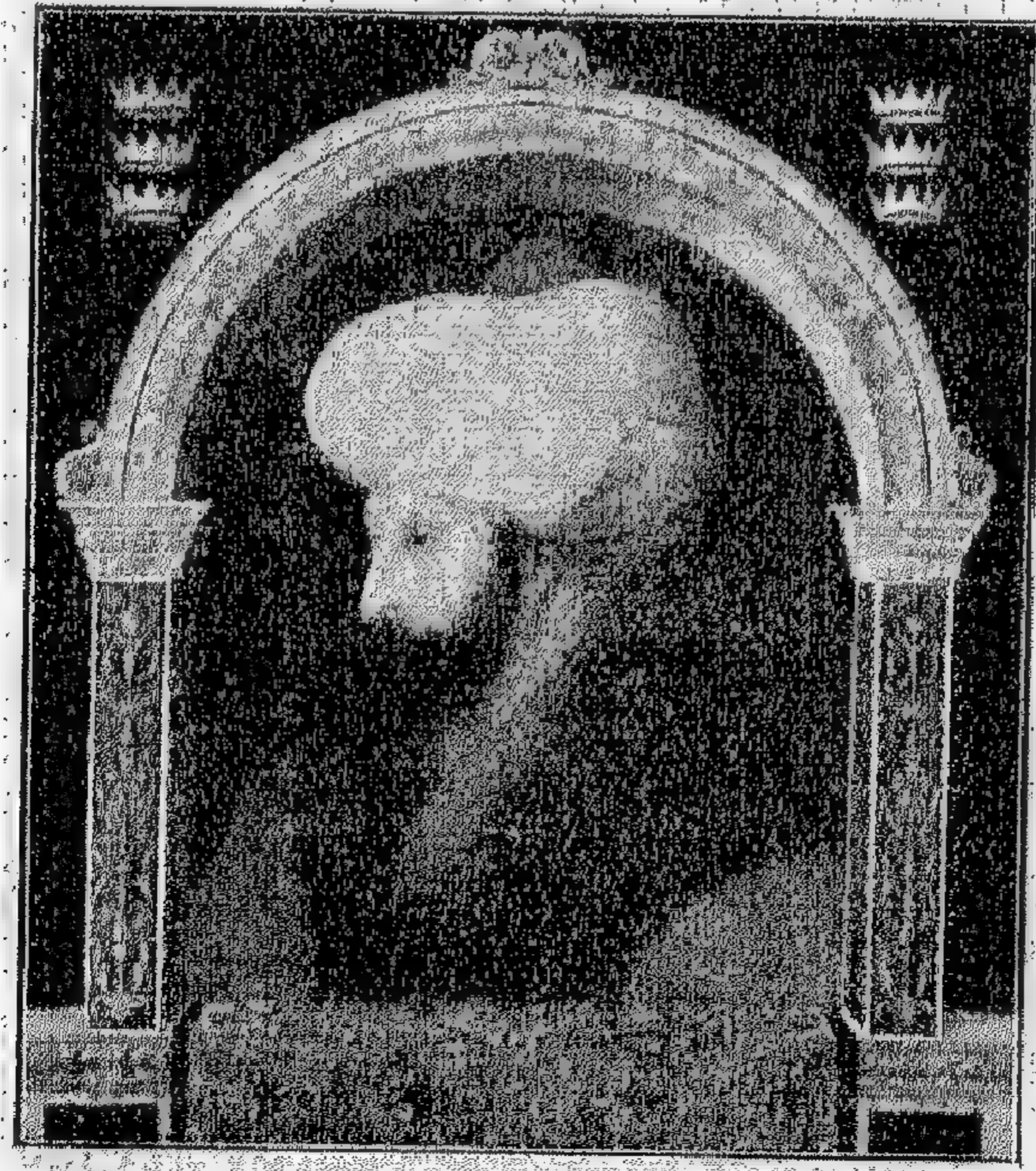
وكانت مشاغلة كثيرة بين أخوة له يشعرون عليه لينزعوا عنه الملك وبين جيران يكرهون أن لا تعود شوكة تلك الدولة الخفية وقد كان محمد ممتازا

في حكمته وكياسته فكان لا يقدم على الحرب الا اذا كان لا بد منها وجعل يسعى لارجاع دولته بالمسالمة بقدر استطاعته وترك للسلاجقة بآسيا الصغرى ما أرجعه لهم تيمور من البلاد حتى لا يثوروا عليه وقنع من الدولة أن تعترف برياسته غير أن عمله كان عظيما فقد أقام الاساس الذي سيقم خلفه عليه دولة جديدة أعظم من الدولة الاولى .

وذلك الخلف هو مراد الثاني الذي حكم مدة ثلاثين سنة (١٤٢١-١٤٥١) ويمكن أن يعد من أكبر ملوك الدولة العثمانية من جميع الوجوه فكان يفتح فتوح وينظم الشؤون الادارية وكان في نفس الوقت رجلا خيرا معروفا بالفضل

وقد أعاد بناء الدولة في آسيا الصغرى وأوربا في آن واحد فقضى على امراء السلاجقة بعد أن كان أبوه قد سمح لهم بالاستيلاء على بلاد آبائهم التي أرجعها لهم (تيمور لك) ولكنه كان موفقا في عمله اذ لم يستطع هؤلاء الامراء أن يدبروا له مكيدة تقضى على دولته كما دبر اسلافهم المكيدة لبازيد الاول بالاتفاق مع (تيمور لك) اذ لم يكن أمام هؤلاء الامراء الا مصر وكانت عند ذلك في أواخر عهد سلاطين المماليك وقد سبق وصف ذلك العهد الاخير من حكمهم وما وقع فيه من الاضطراب والفساد ولهذا لم يكن هناك ما يزعج مراد الثاني في سياسته الاسيوية وأما سياسته في أوربا فقد لقيت صدمات قوية لأن أوروبا ولاسيما الدولة المجاورة للبلقان وهي (المجر) كانت قد تنهت منذ أيام بايزيد الى خطر العثمانيين ووقفت على أهبة الدفاع على نهر الطونة وكان بطل الدفاع عند ذلك (هونياد) المجرى الذي كان حاكما على إقليم ترانسلفانيا الذي كان تابعا للمجر . وقد هزم مراد قرب مدينة نيش في أثناء نضاله مع هونياد حتى اضطر للتقهقر وراء جبال البلقان وعقد معاهدة سنة ١٤٤٤ وقد زاد من حرج مركزه أن خرج عليه أحد ضباطه (اسكندر بك) الصربي الاصل واستقل بإقليم البانيا

وجعل يهبط على الجيوش العثمانية وكما وجد فيها فرصة . وعندما رأت المجز
يخرج موقف السلطان العثماني نقضت المعاهدة وسيرت جيوشها الى الجنوب
قاصدة الاجهاز على دولته وكان مراد بعد ابرام المعاهدة قد هجر الملك واعتزل
في قرية باسيا الصغرى فعند ما علم بذلك عاد وكانت العدالة مساعده له فهزم
ناقضى عهده عند (وارنه) على البحر الاسود في سنة ١٤٤٤ واضطرهم الى اعادة
عقد الصلح واحترام العهد . ومنذ ذلك الوقت لم يجد صعوبة في رد اعدائه .
الا أنه لم يقدر على القضاء على عدويه الكبارين الذين بقيا رمزين للمقاومة
وقد صارت دولة العثمانيين ممتدة في آخر حكمه من حدود الشام الى
الدانوب ماعدا فجوة القسطنطينية وفجوة ألبانيا . وقد بقي فتحهما ليكون
من حظ خلفه الكبير محمد الثاني او الفاتح الذي بدا حكمه سنة ١٤٥١
وحكم مدة طويلة مثل أبيه الى سنة ١٤٨١ اتم في أثناءها فتح ماتخل الدولة
من الفجوات وزاد عليها فتوحا كبيرة في شمال نهر الطونة وفي البحار
المجاورة ولكن كان تاج كل فتوحه الاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣



(شكل ٢٤) محمد الفاتح

فتح القسطنطينية

بقيت الدولة الرومانية الشرقية أثراً من آثار المدنية الماضية. وقاومت الاغارات المتوالية نحو عشرة قرون بعد سقوط رومة في ايدي البرابرة . ومنذ دخلت أوروبا في حوزة فاتحيها من الشعوب الجرمانية خبا الضوء الذي كان ينبعث قديماً من التراث المتجمع من مدينتي اليونان والرومان وخيم الظلام على أرجاء تلك القارة عصوراً طويلة ولم يبدأ أن ينقشع عنها إلا بعد القرن الثاني عشر حينما بدأت تلك الشعوب بتصل بالعالم الاسلامي اتصالاً سلمياً وتستمد منه أول بذور نهضتها الحديثة .

وكانت قسطنطينية في كل هذه الاثناء تضم بين اسوارها بقايا المدنية القديمة وأكثرها من الخلفات اليونانية فكانت تلك العاصمة بالنسبة للعالم المسيحي مثل القاهرة في العالم الاسلامي فان كلا منهما احتفظ بكنزهِ الثمين ودافع عنه أمام الهجمات العنيفة التي كانت توجه اليهما من الغزاة من كل جانب .

على أن ذلك الكنز ظل أكثر هذه القرون دفينا في طيات الكتب والآثار أو على صفحات ذاكرة بعض العلماء فان علماء القسطنطينية اذ ذاك لم يكونوا أكثر من حفاظ يقدسون ما يحفظون ولا يكاد يظهر بينهم مفكر مستقل يقرب من علماء العصور المجيدة في تاريخ اليونان ورومة القديمتين وقد وقعت الجيوش العثمانية عند أسوار تلك العاصمة العظيمة موجهة انظارها اليها تتطلع الى اسوارها بين الخوف والامل . فان أسوار قسطنطينية كانت لاتزال عزيزة على مر العصور وهي التي ردت سيل العرب الامجاد وسخرت من محاولات الفرس والاقفار وصدت البلغار والصرب من بعدهم غير أن استعداد السلطان العثماني محمد الثاني كان عظيماً قضى فيه سنتين منذ اعتلى عرش أبيه ويدل على ذلك عدد الجيش اذ قدر بنحو ربع مليون من المحاربين . وقد كان دفاع آخر أباطرة الدولة الزومانية الشرقية مجيداً بقدر ما كان

الهجوم العثماني عنيفا متصلا . وقد ضيق الحصار أخيرا حتى صارت الجيوش العثمانية على مقربة من الاسوار تصوب عليها (المدفع) الذي اخترعه عند ذلك مجرى واختص به السلطان فأحله محل المنجنيق في تدمير الاسوار وكان يقذف كتلا عظيمة من الحجر قيل ان وزنها كان يبلغ اثني عشر قنطارا الى مسافة ميل .

غير ان الحصار كان من جهة البر وحده ولم يكن للعثمانيين قوة بحرية كافية للتغلب فما زالت دولة الرومانيين الى انقضاء اجلها سيدة البحر . وكانت المدينة محاطة بالبحر من ثلاث جهات وقد وضعت سلسلة عند مدخل الميناء (القرن الذهبي) لتمنع دخول السفن اليها زيادة في الاحتراس اذ كانت الاسوار هناك ضعيفة ولهذا الاحتياط كان المدافعون واثقين من نجاح مقاومتهم وزاد في ثقتهم مجي * امداد من البندقية وهي الدولة الوحيدة التي مدت يدها بمساعدة القسطنطينية في هذه الأزمة ، فان أوروبا كما مر لم تكن لتنصر الدولة الرومانية الشرقية بعد اذ كان ما كان من العداوة بينهما . ورأى محمد الثاني ان الحصار لا يجدي اذا هو لم يكن تاما من جميع النواحي حتى تعجز المدينة عن المقاومة فانفذ فكرته العجيبة وهي انه صنع في البر سفنا لحمل المحاربين ونقل هذه السفن ليلا بقوة الريح على قضبان من خشب دهنها بالشحم ليسهل الانزلاق عليها وساعد الرجال في دفعها في اثناء الليل في سكون عميق حتى بلغت رأس القرن الذهبي وانزلت الى مياهه وعليها الجنود وبذلك وصل العثمانيون الى تاحية الاسوار الضعيفة التي يستطيعون الدخول منها فما طلع الصباح حتى رأى الجنود الرومانيون ان سفن العدو دونهم مالكة عليهم مكانهم وحدث الصراع الذي انتصر فيه الاثراك . ومنذ وضعوا الحصار على الاسوار المتهدمة بدأت عزائم المدافعين تضعف وأمر السلطان بالهجوم العام في يوم ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ فكان فيه النصر

ومات آخر الأباطرة مينة مجيدة وهو يقاتل بين الجند وهنا نترك وصف ما حدث من المشاهد المعتادة عند فتح عظيم كهذا الفتح ولا سيما في تلك العصور التي لم تكن فيها البلد المغلوبة الا غنيمة وأهلها أسرى يفعل بهم الفاتح ما يشاء غير ان السلطان لم يترك الفوضى زمنا طويلا بل أعاد النظام بعد أيام قلائل وبدأ يضع الخطط لنقل مقر الحكم الى تلك العاصمة الكبرى التي ظلت سيدة العالم قرونا طويلة .

ولم يقصر همه على تنظيم الادارة بل بدأ يعمل على أن يجعل الشعب المغلوب جزءاً من شعب دولته الجديدة رغبة في الاستفادة من مجهوده ودرايته فان الاتراك كانوا ولا شك أقل دراية بالاعمال المدنية من اليونانيين الذين كانوا أهل القسطنطينية وقد أعطاهم قسماً كبيراً من الحرية وجعل لهم استقلالاً داخلياً كبيراً تحت رئاسة زعيمهم الديني وهو (البطريك) الذي صار من كبار رجال الدولة ويمثل هذه الطريقة استطاع الفاتح أن يستميل الشعب اليوناني ولو أن ذلك الاستقلال الداخلي أعقب على العثمانيين ضعفاً فيما بعد .

نتائج فتح القسطنطينية

ارتجح العالم لذلك الفتح سواء في ذلك شرقه وغربه . وكان له آثار بعضها مباشر وبعضها غير مباشر نلخصها فيما يلي

(١) هاجر كثير من العلماء الى أوربا بعد ضياع وطنهم ونقلوا معهم ما استطاعوا نقله من الكتب والآثار فكان لذلك اثر كبير في زيادة حركة النهضة الفكرية في أوربا ولا سيما في إيطاليا حيث حل الكثيرون من هؤلاء العلماء في بلاط المدن التجارية الكبرى مثل فلورنس وميلان الخ .

(٢) صار للترك مجد أدبي فوق قوتهم الحربية فأعلى ذلك من شأنهم بين الشعوب الاسلامية وأهلهم هذا للزعامة التي ستصبح لهم فيما بعد اذ

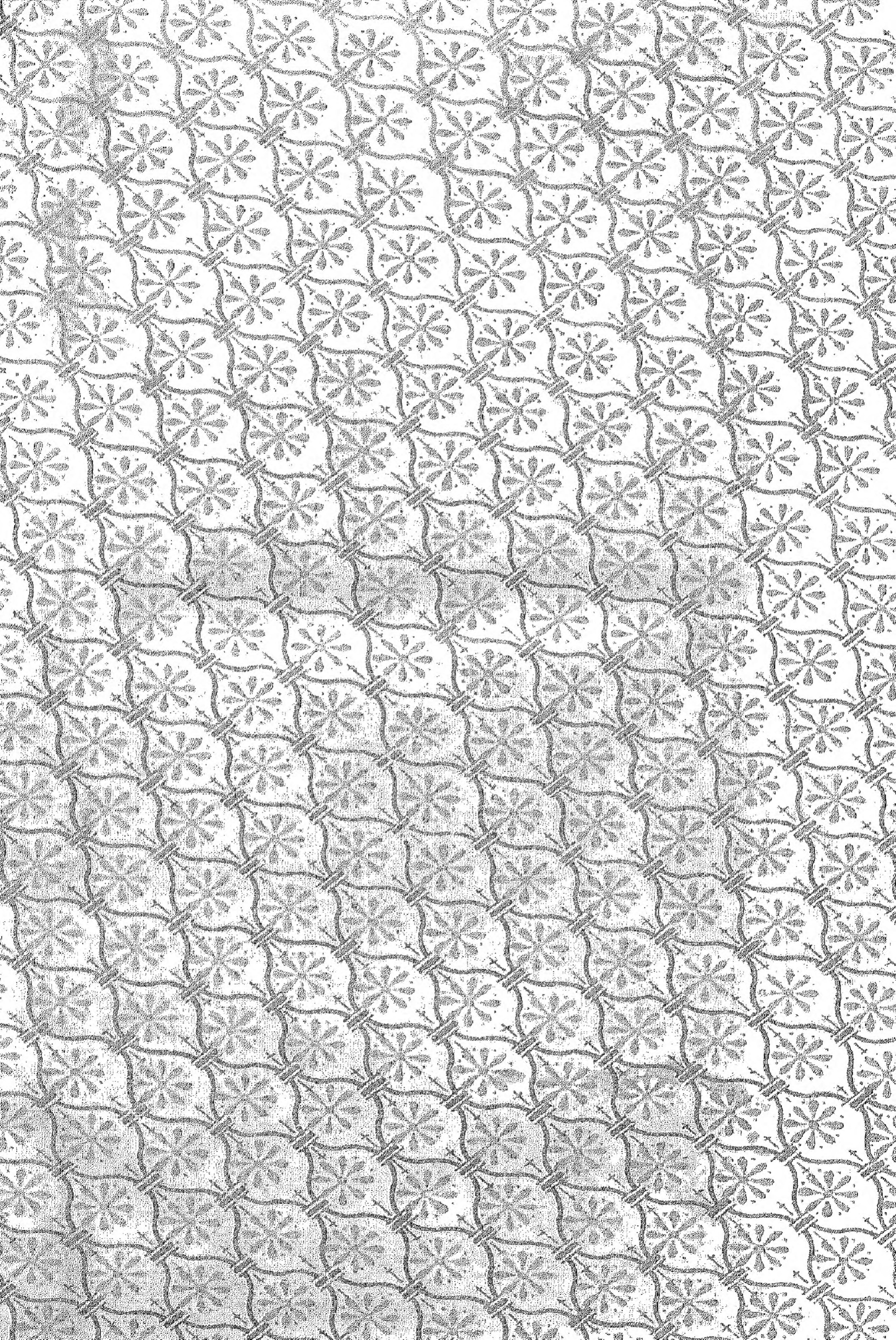
يحملون محل دولة الممالك المصرية في سيادة العالم الاسلامي
(٣) استولى الاتراك على مركز التجارة الاكبر في البحر الأبيض
وبذلك ضربت تجارة المدن التجارية الكبرى (البندقية وجنوة) ضربة
قاسية وهذا ما ساعد على نمو بلاد اخرى فقامت بلاد غرب أوربا تنافس
في التجارة وتبحث عن طريق مأمونة الى الشرق وهذا ما أدى الى زيادة
حركة الاستكشاف العظيمة حول أفريقيا
وقد اصطلح المؤرخون على جعل تاريخ فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣
مبدأ التاريخ الحديث

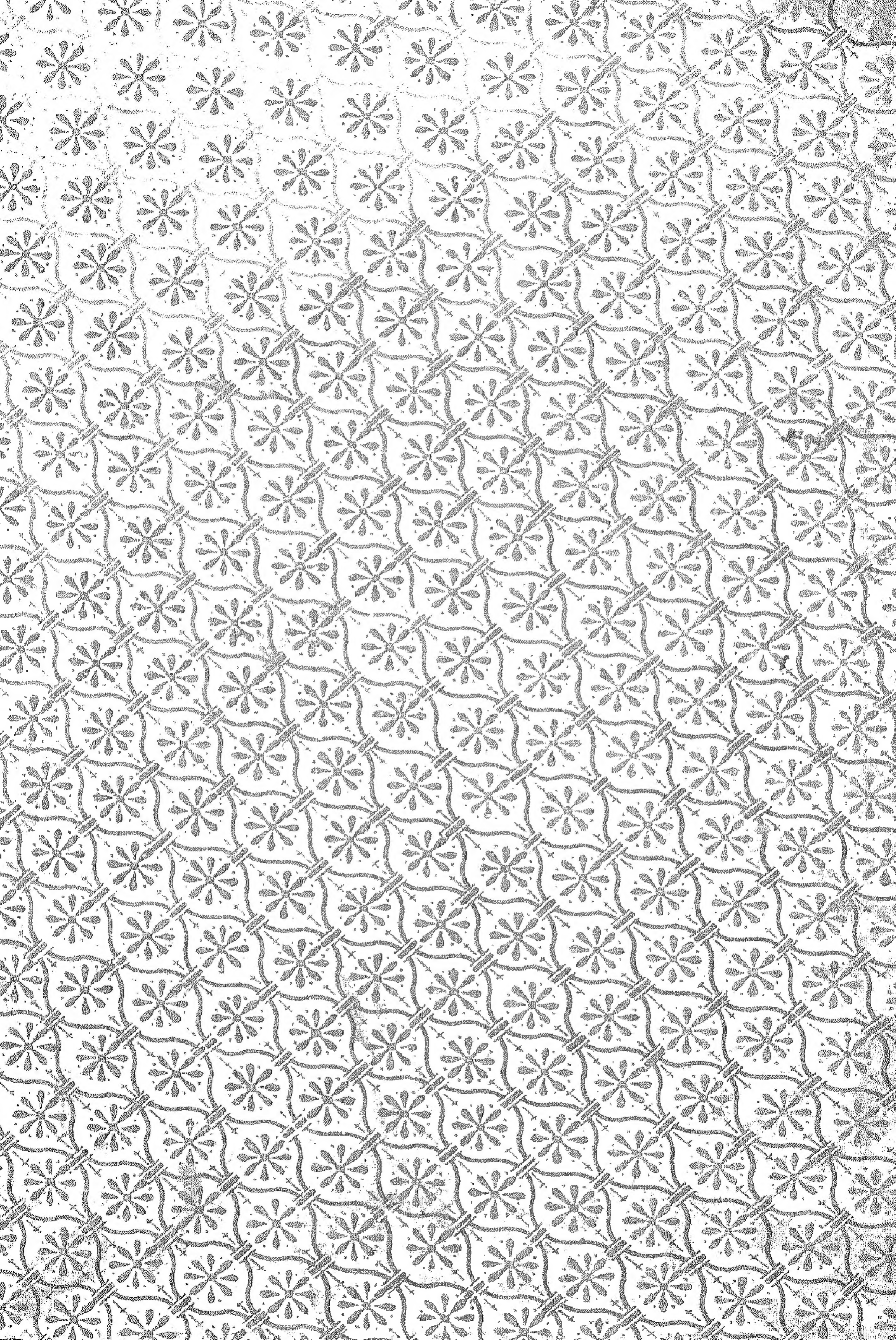


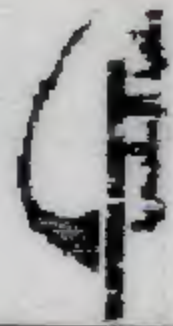
فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
١	المقدمة
٧	تقديم
٩	اضمحلال الدولة الرومانية القديمة
١٥	تقسيم الدولة الرومانية بين الهمج
١٩	انتهاء الدولة الرومانية الغربية
٢٠	قيام الدولة البربرية الجديدة
٢٨	الدولة الرومانية الشرقية في القرنين الخامس والسادس
٢٩	نشأة دولة القوط الشرقية بايطاليا
٣٣	انقلاب جستنيان وحروبه
٤٢	رد الفعل بعد جستنيان — فتح اللبردين لايطاليا
٤٤	نمو سلطة البابا
٤٦	ثورة هرقل
٤٩	اثار الحروب بين فارس والروم
٥١	وثبة العرب مع الاسلام
٥٥	رسول الله
٦٩	الدولة الاسلامية بعد وفاة الرسول
٧٠	الخلافة الأولى . دور الجمهورية
٩٣	الخلافة في دور جديد (الامويون)
١٠٢	نظرة في الدولة الاموية
١٠٦	حال أوربا في أواسط القرن الثامن
١١٣	شارل مارتل
١١٥	الدولة العباسية ومعاصروها
١١٨	أدوار الدولة العباسية
١٢٩	نظرة في أسباب اضمحلال الدولة الاسلامية
١٣٣	الدول الاسلامية الصغرى الى أواخر القرن الحادى عشر

الصفحة	الموضوع
١٥٦	دول أوروبا في القرنين الثامن والتاسع
١٦٤	أوروبا الاقطاعية
١٧٣	اضمحلال النظام الاقطاعي
١٧٨	مصر بعد المعز لدين الله
١٨٢	المدنية الاسلامية وأثرها في أوروبا
١٩٦	عصر الحروب الصليبية
٢٠٢	الحرب الصليبية الأولى
٢٠٥	الحرب الصليبية الثانية
٢١٢	انتهاء الدولة الفاطمية
٢١٣	تأسيس الدولة الايوبية
٢١٨	الحرب الصليبية الثالثة
٢١٨	حالة أوروبا في القرن الثاني عشر
٢٢٣	الحملات الصليبية المتأخرة
٢٢٧	نشأة دولة المماليك في مصر
٢٣١	نمو التجارة المصرية
٢٣٣	نشأة الممالك الاوربية وتطور نظام الحكم فيها — فرنسا
٢٣٤	التزاع بين فرنسا وانجلترا
٢٣٦	أدوار حرب المائة عام
٢٤٠	لويس الحادي عشر وشارل — الجسور
٢٤٥	نمو الدستور الانجليزي في القرن الثالث عشر
٢٤٧	حرب الوردتين ونتائجها
٢٥٢	الأتراك العثمانيون
٢٥٨	فتح القسطنطينية





 Bibliotheca Alexandrina



0691252